وثائق

تاريخ الأورطة المصرية السودانية

فى الكونغو الحرة

للدكتور

محمد رفعت رمضان

أستاذ التاريخ المساعد بجامعة القاهرة
فرع الخرطوم

يونية ١٩٦٣

مطبعة لجنة البيان العربي
٢٠ شارع الاسماعيلية بالظاهر
ت ٢٧٠٧٩

وثائق
تاريخ الأورطة المصرية السودانية
فى الكونغو الحرة

للدكتور

محمد رفعت رمضان

أستاذ التاريخ المساعد بجامعة القاهرة
فرع الخرطوم

يونية ١٩٦٣

مطبعة لجنة البيان العربي
[illegible]
ت ٢٧٠٧٩

تصــــدير

منذ فجر التاريخ يقاس دور كل أمة من أمم العالم بآثارها وحضارتها وفنونها وعلومها والسودان كأمة من هذه الأمم له تاريخ حافل بهذه الآثار والعلوم والفنون غير أنه مشوب بشيء من الغموض لعدم الباحثين عنه فكل أمة لابد لابنائها من بعث تاريخها وحضارتها ونشرها بوعي وتوضيح للعالم أجمع ولهذه الأسباب اجتمـع طلبة شعبة التاريخ بجامعة الازهر بدار السودان بالقاهرة فى يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٩٦٤ م وأسسوا جماعـــة باسم « جماعة بعث التاريخ السودانى » هدفها بعث التاريخ السودانى فى ثوب جديد وتحقيق وتمحيص وقد ما كتب عن تاريخ السودان ونشره على نطاق واسع بإصدار كتيبات أو إقامة محاضرات أو ندوات أو رسائل :

وبدأت لجنة هذه الجماعة نشاطها لابراز أهداف هذه الجماعة بوضوح وجلاء للمثقفين السودانيين وغيرها حتى التف حولها خيرة أبناء أمتنا العظيمة ومن بين هؤلاء المثابرين على العلم والمعرفة الاستاذ حسب الله محمد أحمد كما عرفناه فقد اتيحت لنا الفرصة بالتعرف عليه منذ عدة سنوات وبعد ان اشترك معنا فى لجنة هذه الجماعة قد كشف لنا عن سجاياه نوراً وضاءاً وأدباً رائعاً حتى أحبه وأحترمه جميع أعضاء هذه الجماعة وكلهم يذكر نشاطه الجم فى ابراز وجه السودان القديم والحديث فى عدة مجالات فقد دأب الاستاذ حسب الله منذ عــــدة سنوات على الكتابة فى ميدانين هما التاريخ والأدب وقد ألقى عدة محاضرات بهذا الصـدد وكتابه قصة الحضارة فى السودان دليل على نشاطه وثقته فى نفسه وحبه لوطنه . فقد تناول الكتاب فى مضمونه قصة الحضارة عن أقدم العصور من آثار وآداب وفنون وعلوم موضحاً معالمها الحقيقية من ٣٤٠٠ ق.م. الى ١٩٠٠ م ويكفيه غبطة وفخرا بأنه أول من طرق باب الحضارة فى السودان ووضع فيها مؤلف خاص بها وما هو كتابه مبسوط للقراء حسبهم مطالعته للوقوف على مزايـاه

والافادة من بحر علمه الواسع . وهو كتاب يفيد كل طالب وقارىء وباحث عن تاريخ الحضارة فى السودان . وجماعة بعث التاريخ إذ تشد يد على يد هذا الشاب المثابر النشط وتهنئة على هذا العمل الجليل الذى يعد مفخرة لكل سودانى يهمه تاريخ السودان وحضارته وتحث كل مواطن على اقتناء هذا المؤلف .

وفى الختام . هذه أول تجربة تخوضها هذه الجماعة بإصدار هذا المؤلف .

وكل تجربة لابد أن يكون فيها نقص أو خطأ ولذلك تأمل الجماعة من أساتذة الفكر والعلم والأدب فى السودان وغيرهم ابداء النصح والارشاد لها نحو الأمام قدماً لتخرج تاريخ السودان قديمه وحديثه فى ثوباً يليق به .

امضـــاء

جماعة بعث التاريخ السودانى

القاهرة فى ١٨ / ١١ / ١٩٦٦

﴿ مقدمـــة ﴾

كلمة للأصدقاء :

هذه الدراسة كانت التزاماً للأصدقاء أعضاء . عالم بحث التاريخ السودانى ضمن التزامات الأعضاء بدستور الجماعة بأحياء التراث السودانى وتقـــديم الدراسات السودانية فى هذا المجال .

وقد أخترت بعد حضورى للقاهرة أن أقدم للأصدقاء والقراء دراسة يحتاج إليها كل قارىء ومثقف يود أن يلم بتاريخ الحركة الثقافية منذ أوائل القرن العشرين وذلك لكثرة الإراء والأخبار القصيرة عن هذه الفترة . وقد بدأت فى جمع مادة عن تاريخ الصحافة فى السودان فى عام ١٩٦٤ بمساعدة الأستاذ الكبير د شاطر البصيلى ، وبمساعدة المسئولين بدار الكتب المصرية الذين سهلوا لى مشكورين كافة المراجع وأمدونى بالفهارس .

وقد وجدت بعد مسيرة أربعة أشهر فى تلك الدراسة التى يجب أن تكون امتداداً لتاريخ ثقافى واضح المعالم وجدت للأسف أن الدراسات التاريخـــية السابقة لاتشبع حاجة المثقف لمعرفة تطور الحياة الثقافية فى السودان عبر القرون ولذلك وجـــدت أن كتابتى عن تاريخ الثقافة أو الصحافة فى القرن العشرين هى دراسة عن نهاية تاريخ مفقود المعالم ..

وأخترت عبء مسئولية تاريخية وفكرية ووطنية وهى ان أحاول أن أقدم صورة عن تاريخ الحضارة السودانية وذلك بتتبع النشاط الإنسانى الذى مارسه

إنسان السودان من فنون وعلوم وأداب وعمارة وعلاقات أجتماعية منذ أن وجد هذا الإنسان على هذه الأرض وتتبع رحلته عبر القرون حتى عرف الاستقرار وخط لحياته أنظمة أجتماعية مختلفة حسب ظروف معيشته وإمكانياته الإقتصادية وشارك في الحضارة الانسانية والتقدم الإجتماعي والبشرى متمشياً مع الظروف الإقتصادية والإمكانيات الطبيعية والنظم الاجتماعية التي هي أساس كل تطور وتقدم وتوظيف تلك الامكانيات لأى مجموعة من مجموع الناس .

وقد استعنت بالمفهوم المادى للتاريخ في هذه الدراسة وذلك بتتبع النظام الاقتصادى للمجموعات التي عمرت أرض السودان وذلك أن النظام الاقتصادى هو الذي يوظف النشاط الانسانى ان كان فناً أو علماً أو إدارة .

وقد وجدت الدراسات التاريخية عن تاريخ السودان لاتستطيع أن تعطى صورة عن تاريخ النشاط الحضارى أن كان فيما يختص بتاريخ الحياة الأولى لانسان السودان أو فيما يختص بصورة المجتمع وملامحه وحركة الحياة اليومية والنظام الاجتماعي فيه ونشاط الانسان في مجال العلوم والفنون .

وقد استعنت بالمفهوم المادى للتاريخ للوصول لبعض الحقائق كما قمت بدراسة المنطقة المحيطة بالسودان وتتبع النشاط الانسانى فيها والبحث في تاريخها وما يربط السودان بها إذ توفرت لبلدان الشرق الأوسط دراسات طيبة في جميع مجالات النشاط البشرى .

وقد استعنت بالدراسات التي تتبعت الحضارة الانسانية عامة والفرعونية في مصر في مجال العمارة والديانات والعلوم وعلاقة هذه الحضارة بحضارة السودان واتصال تلك الحضارة بحضارة الفرس والاغريق والرومان كما تتبعت تاريخ

الحضارة العربية وأثرها على شرق السودان قبل ظهور الاسلام ثم جعلت من الدراسات الافريقية التي ظهرت أساسا لافريقية السودان القديم وحاولت أن أجد الصورة القديمة التي عاشت بعيدة عن أثر الحضارة الفرعونيه وحاولت أن أشير إلى الحضارة الافريقية بما فيها من عبادات وفنون ونظم اجتماعية ثم تابعت تاريخ المسيحية في الشرق وفي وادي النيل والهضبة الحبشية من خلال نشاط المسيحية في شمال النيل والهضبة الحبشية استطعت أن أتوصل إلى حال المسيحية في السودان وما قدمته للسودان .

كما تتبعت كل نشاط المسيحية وفكرة الدير والكنيسة ثم الاديرة التي قامت على النيل وداخل السودان ثم في النهاية ما أضافته هذه الديانة لحضارة الانسان السوداني وإلى الفرعونية والافريقية في السودان وما هي الاضافات التي أعطتها لذلك التراث القديم .

أما عن العرب فلم أكتف بوجود العرب داخل السودان بل تتبعت حضارة الاسلام وأسباب نزوح العرب من الجزيرة العربية والعوامل التي دفعت بهم إلى داخل القارة الافريقية مع دراسة للحركة الاموية والعباسية والفاطمية وأثر هذه التيارات في نزوح العرب إلى أفريقيا والسودان وأي هذه التيارات كان له النصيب الاوفر في طرد العرب من مواقعهم ودفعهم إلى أراضي جديدة مكرهين سياسيا .

ثم تابعت دخول الاسلام والعرب إلى السودان من كل الجهات من الشمال والشرق والغرب وحاولت أن أرسم صورة الامتزاج والاختلاط الذي تم بين العرب وسكان السودان ثم دخول الاسلام إلى السودان وبأي صورة دخل الاسلام وعلى أي صورة استقر حتى ظهور السلطنة السنارية وسلطنة

الفور ثم دراسة عن حال الثقافة والفكر فى عهد السلطنة السنارية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى .

كما أضفت إلى ذلك دراسة عن حال الثقافة العربية وتطورها فى السودان ونشأة الصوفية فى البلاد العربية وتاريخ وصولها إلى السودان مع مقارنة حال الصوفية بالسودان بالنسبة للصوفيه الاولى وتعاليمها وفكرها .

كما حاولت أن أتتبع الصراع بين الافريقية والفرعونية والمسيحية والعربية والاسلام داخل السودان حتى القرن التاسع عشر الميلادى .

وخلال هذه الدراسة قدمت بعض النماذج للحضارة الفرعونية من عادات وفنون وعلوم مع محاولتى لتوسيع تاريخ الحضارة الفرعونية فى السودان لعصور لم تتطرق لها الدراسات التاريخية السودانية . ثم أعطيت كذلك بعض النماذج للحضارة الافريقية ودياناتها وعاداتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية وكذلك بعض الامثلة لحياة المسيحية من الانجيل والدراسات القبطية وتاريخ الكنيسة المصرية ورهبان وادى النطرون . ثم دراسة عن تاريخ الشعر العربى فى السودان . بجانب الحياة الاقتصادية ونظمها وأثرها فى هذا التاريخ الذى يمتد من ٣٤٠٠ ق م . إلى ١٩٠٠ م .

وأنا أعتذر للقراء والباحثين لقصر هذه الدراسة عن التوسع والتدقيق الكافى الذى يستلزم فى مثل هذه الدراسة وعذرى هو ضيق الامكانيات وعدم وجود الاستقرار الكافى حيث الالتزامات بالقاهرة لاتترك للفرد الذى يحيا بالنشاط الاجتماعى والفكرى أى طاقة لعمل آخر . وأملى أن تكون هذه الاعوام من الدراسة والتحقيق قد أرضيا الاصدقاء والباحثين فى محاولة لاكتشاف تاريخ الحياة فى السودان عبر القرون ..

آمل أن كانت هناك أخطاء أن يغفرها الاصدقاء ويكفيني حسن النية لاعطاء حياتنا الثقافية بعض المجهود الجاد وآمل منهم تنويري للخطأ وأن كان هنـــاك أختلاف في الرأي فأمل أن يكون أختلاف رأي مسموح به في مجال الدراسات العلميـة .

ولاصدقائي من رابطة رواد الأدب الذين بحبهم أحببت الأدب والثقافة أقدم هذا العطاء البسيط وللرفاق بجامعة بحث التاريخ السوداني بالقاهرة أقدم هذه المشاركة البسيطة علها تكون حافزا للرفاق والزملاء لاعطاء الدراسات السودانية المزيد من الاهتمام والتضحيات .

حسب الله محمد أحمد

عضو لجنة جماعة بحث التاريخ السوداني بالقاهرة

وعضو لجنـــة رابطة روادالأدب بالسودان

وعضو اللجنة الخارجية لاتحاد الادباء السودانيين

السودان

أطلق اسم كوش وأثيوبيا فى العصور السابقة قبل الميلاد على الاراضى جنوب مصر وشرق أفريقيا ما بين خط عرض ٢٤و٩ ولم يعرف اسم النوبة المطلق على جنوب مصر وشمال السودان حتى العصر الرومانى .

يخترق النيل أرض السودان من الجنوب إلى الشمال ، وتتميز المنطقة الشمالية منه بالاراضى الصحراوية شرقاً وغرباً ويضيق بشاطىء النيل وتقل الاراضى الصالحة للزراعة وتحوطه سلسلة الجبال والصخور .

والأراضى الزراعية الخصبة على النيل تتسع قبل التقاء نهر النيل ونهــــر عطبرة حيث تخصب وتتسع كلما سرت جنوبا وتمتاز أراضى الجزيرة الواقعة بين النيل الازرق والنيل الأبيض بخصوبة أرضها ومساحاتها الكبيرة المتساوية وخلوها من الجبال والهضاب .

أما غرب النيل فتظهر فى شماله الاراضى الصحراوية وتظهر السافنا وتختفى كلما سرت إلى الجنوب . من أهم مناطقها منطقة جبل مره ووديانه حيث تزرع أنواع كثيرة من الحبوب والمحاصيل ، تربى الجمال والابقار فى اقليمى الغرب دارفور وكردفان . عمرته قبائل أفريقية قديمة اختلطت بالدماء العربية بعدظهور الاسلام وانتشار العرب فى أفريقيا .

وجنوب السودان منطقة استوائية غزيرة الامطار والنباتات والادغال تسكنها قبائل أفريقية قديمة وأقدمها الشلك .

اصل سكان وادى النيل

الرأى المتفق عليه بين علماء الأجناس بأن زحف الإنسان الأول بـــدأ شمال الجزيرة العربية . . وتكاثرت البشرية . . وبدأ تضيق بالاقامة فى مجموعات وبدأ جو الخلافات والمشاحنات يسودهـا . . . ففضلت الترحال لاغيره باحثة عن أرض جديدة أو أرض منفصلة بكل مجموعة لتعيش فى سلام . . نزح منهم الحاميون لجنوب الجزيرة العربية . . ثم رحل جزء من الساميين إلى أفريقيا عن طريق مضيق قناة السويس . وذهب جنس لشمال الفرس فكون الجنس القوقازى كا تكون الجنس الادرياتى من المجموعة السامية . . وإذا تتبعنا رحلة هذه المجموعات وكيف وصلت إلى أرض النيل فى زمن كانت فيه الأرض مغطاة بغابات والوحوش الضارية . ، وكان الإنسان ليس أقل من وحش ضارى . . . قبل أن تظهر هذه الصحراء الأفريقية بشكلها الحالى الذى يكاد يخلو من نبات إلا فى بعد الواحات والوديان . . ولكن وجود بعض الأشجار مجموعة (*ACCACIA ARABICA*) أشجار الصندذات الأشواك والتى تعيش على ماء قليل يدل دلالة على أن الحياة كانت نامية فى هذه الصحراء والوديان .

وفى هذا الزمن الأول تظهر لنا اتجاهات المجموعات البشرية الأول فى زحفها إلى أفريقيا . . فمنذ القرن الإفريقى . . تدفقت المجموعات الأولى إلى هضبة الحبشة فى زمن ليس كزمننا ولا ظروف الحياة الآن . . إنما فى ظروف تشبه إلى حد كبير حياة الغابة ووحشيتها . . ما يدفعنا للتساؤل عن الدوافع الأصلية إلى نزوح هذه المجموعات إلى أرض أكثر وحشية من التى كانوا بها . . حيث يحاول الحيوان أن يرحل من الأرض التى يتقدم فيها الإنسان أو يرحل الإنسان تاركا الأرض للوحش وهى لاشك دوافع قوية ربما يكون منها إضطهاد المجموعات

لبعضها البعض بفعل التكاثر أو بظهور زعامات جديدة تود أن تخلق لنفسها عالمها الخاص . . أو حول زعامات قديمة لاتستطيع أن تقاوم الزعامات الجديدة أو بفعل ظروف طبيعية . . أو بفعل تصورات غيبية تسيطر عليها أو كانت تعتقد فيها تدفعها البحث عن أرض أطيب من يعيشون بها :

ومن هذا يتبين لنا أن التنقل فى تلك الأزمنة كان معناها الهروب من جحيم الإنسان المتوحش إلى جحيم الحيوان والطبيعة المتوحشة . ودخلت تلك المجموعات إلى أرض أفريقيا . جزء سار إلى داخل القارة عن طريق هضاب الحبشة المتوحشة وجزء سار متابعا الشاطىء الشرقى لأفريقيا . . متوغلا إلى الداخل حتى كون فيما بعد السلالات الزنجية الحالية . . . ثم طال الزمن بالمجموعات الأخرى حتى تصل أو تجد مكانا تستقر به إلى أن هبطت من الهضبة الحبشية التى بطبيعتها أكثر وحشية من الوادى الذى يكون أرض السودان . . ومن هذه المجموعات سكنت أول مجموعة على شاطىء البحر الأحمر مكونة سلالات البجا التى ظلت تحتفظ بشكل سكان وادى النيل والتى يزعم المؤرخون وعلماء الأجناس أن الفراعنة من سلالة واحدة مع هؤلاء البجة . . . لأوجه الشبة فى كثير من الصفات الطبيعية فى تركيب العظام والجمجمة خاصة .

ومن هــــذه الرحلة تدفقت المجموعات الغير مستقرة لتجد النيل مهدا صالحا للاستقرار للصفات الكثيرة التى توفر جو الاستقرار والإقامة . . كما جاءت بعض الجماعات السامية من شمال أفريقيا عن طريق قناة السويس بعد ما انتشرت على شمال أفريقيا . . . ولكن النيل كان أصلح تلك المناطق للاستقامة ولذلك سرعان ما كثرت به الجماعات واستقرت وعرفت أول معنى للاستقرار ومارست الزراعه بصفة طيبة .. .. وبدأت الحياة البشرية تكون حياة بشرية لها معنى وطعم ومذاق .

وبدأ منذ ذلك الوقت مجتمع وادى النيل يتعقد وتظهر الزعامات وتكونت الطبقات الاجتماعية التى ظهرت بصورة سافرة فى عهـــد الفراعنة . . . وظهر المجتمع الطبقى من ملوك . . . ومساعديهم وجند وعبيد . . . وظهر الانسان الآله . . فى صورة فرعون مصر الأول ولكن مجتمع الطبقات لازال مجتمع الملوك والقواد والتجار والعبيد أو عبيد المملكة الفرعونية من فلاحـــين وبقية الشعب التى كانت بوضعها الاجتماعى والدينى هى خادمة الملك والمملكة .. ومن هذا التركيب الاجتماعى القائم على السادة والعبيد الذى قامت على أكتافه أول حضارة للانسان على أرض النيل من عمارة وطب وفن وعـــلوم امتدت من أرض الدلتا حتى وصلت إلى أرض الجزيرة وجنوب النيل الازرق بعد قيام مملكة مروى القديمة .

نظره على المجتمع الأول .

لنجمل تطور العلاقات الاجتماعية تتطورا للفكر . وتتطور الحياة إذا تطور العقل وتتطور العلاقات حتى تستطيع من خلال تطور العلاقات أن تصل إلى آخر مراحل التطور التى وصل إليها مجتمعنا اليوم على أساس أنه فكريا أكثر تطورا من المجتمعات الأولى .

وإذا حاولنا أن نرسم صورة عامة للعلاقات فى المجتمع الأول الذى استوطن أرض النيل ومساحات السودان الشاسعة علينا أن نتذكر مناخـــه فى تلك الظروف الطبيعية التى مهدت لخلق مجتمع زراعى مستقر وظروف السهول مهدت لخلق الحياة البدوية ولحياة الرحل التى هى أكثر مشقة وأبعد بكثير من حياة الاستقرار التى فى ظلها يرتقى الفن وتتطور علاقات الناس .

إذاً فالظروف الطبيعية خلقت لنا مجتمعين أحدهما مهدت له ليرتقى سلم

التطور خلال الاستقرار وآخر حرمته من هذا التطور ليعيش في حياة التنقل والترحال ويعاشر الطبيعة الام من غير لمسات الانسان المبدعة.

وإذا أردنا أن نتتبع هذه المجموعات سنجد سكان النيل عند البحر الابيض المتوسط إلى داخل أفريقيا حيث ينتهى النيل عند بحيرة فيكتوريا . . هـــذا النيل كان معمورا بالحياة الانسانية حيث تختلف ظروف النيل وتمهيده لحياة الاستقرار . ففي الشمال مهدت الظروف بعد هروب الحيوانات المفترسة وسهولة الأرض لتمهيدها وصناعة العشش والمنازل مكن الانسان ان يستقر في الشمال نسبة للظروف الطبيعية الخشنة التي وجدها الانسان في أرض صالحة للزراعة بعيدة عن تجمعات الحيوانات المفترسة ولكن كلمـــا مررنا للجنوب ظهرت الطبيعة الأكثر وحشية والحيوانات المفترسة حتى تدخل منطقة السدود بعد ملكال حيث تتغير الصورة وتصبح حياة النيل غير تلك في الشمال وتصبح لاتختلف في شيء عن حياة الغـــابة إذا يصعب وجود سهل على ضفتيه بل أشجار غزيرة وحشائش كثيفة مهدت لتأخر تطور الانسان الذى سكن نيل الادغال فلم يفدة النيل في شيء ولم يقدم له أى مساعدة كما قدم للإنسان الأول الذى استوطن شمال النيل .

هذا تصورنا للحياة الطبيعية في أرض السودان قبل مئات الآلاف من السنين بأن شكل اراضية لم يكن كالآن ، فأرض الجزيرة كانت عبارة عن مستنقعات والصحراء الكبرى التي تغطى نصف مساحة السودان وتـــزحف كل يوم إلى إلى الجنوب لم تكن موجوده بهذه الصورة وانما التغيرات الطبيعية التي حدثت للكرة الأرضية هي التي مهدت لهذه الصحراء أن تمتد كل يوم إلى داخل القارة

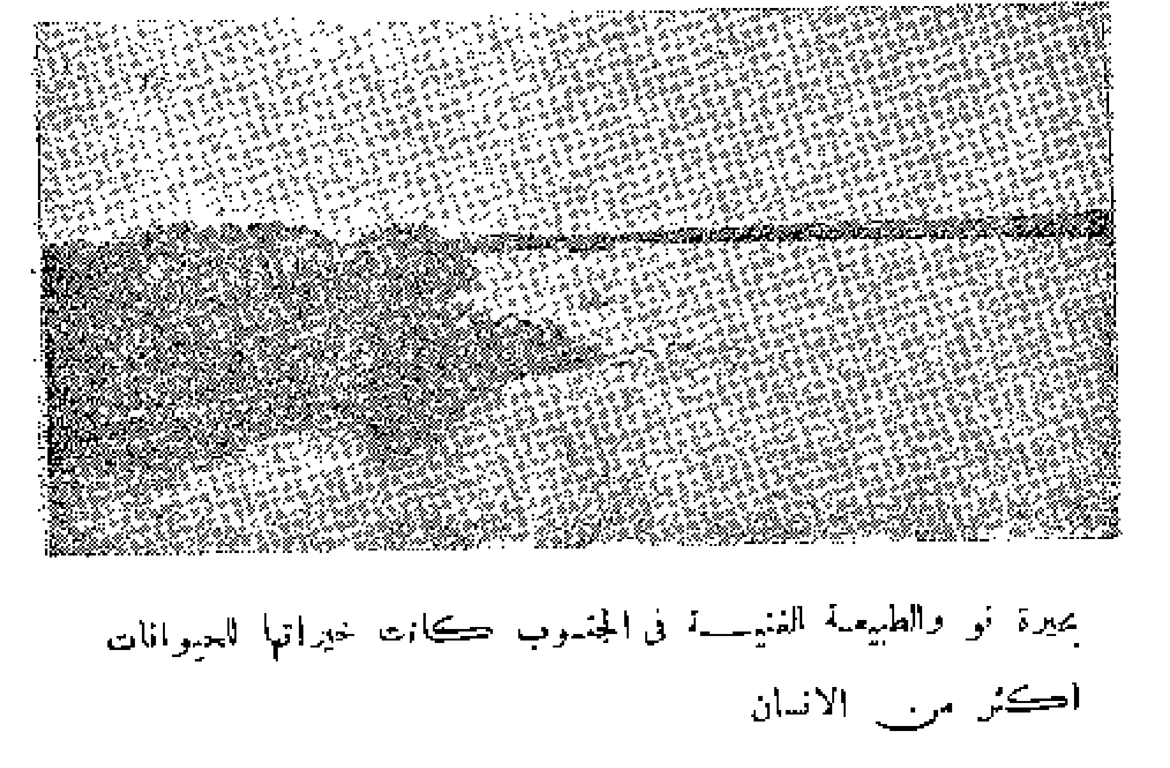


تمثال أمنحوتب الثالث — بقايا أثار مملكة نبتة (القرن الثامن قبل الميلاد عند جبل البركل)

الطبيعة هي اساس الفن والعمران والتقدم . . . وقفت هذه الأشجار الملتحمة ضد قدرة الإنسان لتطويع الطبيعة لمنفعته والاستفادة من خيراتها في جنوب النيل .



انسان النيل فى جنوب السودان (افراد قبيلة الشلك) استغلوا خيرات الطبيعة فى اعالى النيل للسكن بدل الصلصال والحجارة لتناسب مناخ الجنوب.



بحيرة نو والطبيعة الفنية فى الجنوب كانت خيراتها للحيوانات اكثر من الانسان

الصوفيه والديانيات الافريقيه

لاتنفصل الصوفيه الحقه عن الحركة العلميه بين المجموعات التى تنتشر بينهم فاذا إستطعنا أن نقتنع بأن الصوفيه هى حركة علميه فى بدايتها لتطوير علم التوحيد لاستطعنا أن ندرك اتجاهات أى حركة صوفيه ظهرت فى البلدان العربيه بعد معرفة نهضتها العلميه والثقافيه .

وأول سؤال نستطيع أن نسأله عن الحركة الصوفيه فى السودان ، علينا أن نسأل عن الحركة العلمية والثقافيه فى السودان وهل كان فى إمكانها إحتضان هذه الحركة الصوفيه العلميه الاحتضان السليم والسير بها نحو الكمال أم ان الظروف العلميه والثقافيه كانت فى مستوى أدنى من إحتضان هذه الحركة مما مهد للانحراف فيها

يجب علينا أن نقيم الحركة الصوفيه فى السودان التقييم العلمى الصحيح لأن هذه الحركة دخلت السودان منذ القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادى وانتشرت فى السودان بشكل ملحوظ وكان لها أثر كبير على الجماعات والافراد ومازالت توجه حتى اليوم الكثير من افكارنا وثقافتنا ولها أثر كبير فى معتقداتنا وأخلاقنا وطبائعنا وتطلعاتنا . فاذا إستطعنا أن نقيم المجتمع السودانى حين دخول الصوفيه وخط سير هذه الصوفيه بالنسبة لظروف المجتمع التى وجدت نفسها فيه نستطيع أن نقنع بارتياح مسيره هذه الصوفيه ان كان نحو الكمال أو نحو الانحراف .

وإذا أردنا أن نبحث عن الظروف العلميه والنهضة الفكريه التى تستطيع

مغيرة على كل حى . . واقفة ضد حياة الحياة النباتية فى الصحراء . . وبشكل الصحراء الحالى لم نستطيع أن نكتشف الحياة البشرية التى كانت فى كثير من السهول القديمة والتى تقطيها الأراضى الصحراوية اليوم كانت بها حياة بشرية وكانت بها مدنية . هذا ما تخفيه الرمال . . . ولكن كثير من الدلائل والآثار برهنت على أن هناك حضارات وحياة انسانية كانت فى هذه الصحارى بعيدة عن النيل . . . وأن الرمال قد دفنت هذه الآثار التى يصعب العثور عليها الآن حيث يصعب التنقيب فى مكان معين إلا إذا حفرنا كل الصحراء لتحدثنا عن أسرار الماضى . . . ولكن ما اكتشف على بعد كبير من النيل بقرب منطقة النوبة يدل على أن هناك حضارة وحياة بشرية كانت قائمة بعيدة عن النيل اندثرت بفعل الرمال المتحركة التى تستطيع أن تغطى قرية بكاملها فى ليلة واحدة .

هذا بالتالى يجعلنا نسأل أو أو نتصور أن هناك تجمعات بشرية كانت فى هذه الصحراء خلاف التجمعات البشرية الموجودة الآن أو من بداية تاريخ حضارة النيل قبل ثلاثين قرنا قبل الميلاد .

ونحن نعرف أن تجمعات البحر الاحمر البجة الان كانت موجودة من قديم الزمان فى هذه البقعة ثم جاءت اليها مجموعات أخرى بتقدم الزمن . . ولكن هذا لا يمنعنا من تصور مجتمعات فى تلك الرمال التى قضت على حياة كثيرة كانت نامية من قبل .

وهذا لا يمنعنا أيضا من تصور مجموعات فى الغرب أتت عن طريق ليبيا ونحن نعرف حسب الحفريات الأخيرة بأن هنالك كثير من المدنيات قامت بعيدة عن النيل . . . وإن العنصر الليبى لم تكن حدوده الاراضى الحالية . . وربما بعض الاكتشافات التى تجرى الآن فى الصحراء غرب أرض النوبة وبنشر بعض التقارير الأولية التى أرسلتها البعثة السوفيتية أن هناك حياة

بشرية ومدنية قامت بعيدة عن أرض النيل كان للرياح الرملية الأثر الأول لدثر تلك الحياة . ونتصور حياة بشرية غرب النيل اندثرت أو هرب أصحابها للغرب وتوغلوا حتى غرب أفريقيا وعمروها يجعلنا نعتقد أن كثير من الهجرات والزحف داخل أفريقيا جاء من شمال أفريقيا وسهول النيل .

واذا أردنا أن نحصر السلالات البشرية التى سكنت أرض السودان بعد هذا التوضيح فنجد النوبة وهى القبائل السمراء التى سكنت النيل . أو (تنهاسو) أو (أثيوبيا) كما كانت تسمى سابقا .. اذا كان هذا الاسم يميز سكان جنوب النيل عن سكان مصر الافتح لونا .. وما عدا ذلك فهم نوبة أو اثيوبيين . اذ النوبة فى الوقت الحاضر أرض صغيرة تمتد شمال حلفــا الى أرض الكنوز وجنوبها الى أرض المحس — فى حين كانت كل هذه الاسماء الآن غير موجودة قديما فلم يكن فى الشمال قبائل عسية أو تنقلاوية أو شايقيــة أو عبدلاب أو ميرفاب أو جعلين أو بشاريين أو شكريه .. اذ كان اسم كل هذه المجموعات هو أثيوبيا . هــذا بالنسبة للتاريخ القديم والتسمية التى عثر عليها أهــل التاريخ .. ولكن حقيقة هل كان كل سكان النيــل جنوب أرض النوبة الآن هم عنصر واحد ونحن نعرف أن الليبين كانت لهم غزوات هناك وكانت قبائل كثيرة تجاور النيــل كما أن سكان البحر الاحمر كانوا يزحفون على النيل .. ونحن نعنى من ذلك أن مجتمع القبلية والعصبية الذى عاش على أرض السودان لم يكن موجودا فى الفترات القديمة .

لم تزعفنا الآثار القديمة أو المخطوطات التى وجدت فى معرفة شــكل المجتمع القديم .. لقد كان هنالك ملك أو من ينوب عنه فى المناطق الكبيرة .. ثم تتدرج السلطة حتى تصل الى مرتبة الشيخ الآن . ولكن هذا المجتمع الصغير الذى كان يرأسه الشيخ هل كانت تربطه روح القبيلة أم روح السلطة والملكية اذ كان الشيخ هو أكثر مجموعته غناما وعبيداً وسلطة .. مجتمع صغير يقوم على الرهبة ولا يقوم على الولاء الطبيعى للقبيلة كما كان مفهوماً عند العرب .

هذا المجتمع الصغير الذى يرأسه الشيخ أو أغنى هذه المجموعة الصغيرة كان يكون الشكل العام للمجموعة كلها .. ويمثل هذا المجتمع الصغير كخادم لذلك الملك يعطيه كل الولاء والتقدير اذ يقوم الملك وأعوانه برعاية شئون العبادة وتوظيف الكهنة والاهتمام بهم .. وهذا ما كان يحتاجه الانســـان ليملأ به حيرته وتساؤلاته فى الالتجاء الى شىء فوق قدرته .

ولكن بصورة عامة يمكن أن نتصور حياة هذه الحضارات الكبيرة التى عاشت على النيل خلال البحث عن العلاقات فيها ومن خـــلال هذه التجمعات الصغيرة التى تعطى السلطة للملك الذى هو سيد الكل والذى أحكامه لا اعتراض عليها من رؤســـاء المجموعات الصغيرة أو المجموعات الاكبر ومن أعوانه ومديرى شئون مملكته .

ومن هذا نستطيع أن نقول أن حياة الاثيوبيةوهو الذى سكن أرض النيل فى أرض النوبة الحالية حتى أرض الجزيرة حيث تمتد من هنـــاك مجموعات أخرى ثم مجموعات البحر الأحمر البجة والمجموعات التى سكنت سهول النيل الأزرق لم يعرف من تاريخها القديم أى شىء حتى الآن ولكنها لا شك هى جزء من السلالات الحبشية التى امتزجت بالعناصر العربية أخيرا وتنقلت مع مجرى النيل الأزرق أو مع إنحدار الهضبة الحبشية .

• • •

تطور المجتمع الزراعى الاول

لو عدنا مع الزمن آلاف السنين بل قبل الميلاد ونظرنا إلى أرض السودان سنجد أرض النيل بها جماعات مستقرة تعيش فى مجموعات بخلاف المجموعات الأخرى التى تعيش فى السهول والوديان .

بما يعطيه المجتمع الزراعى من استقرار للفرد . . . وهذا الاستقرار يعنى استقراراً فى الحياة المعيشية فى المقام الأول وضمان وجودها بقرب الأرض ... هذا الاستقرار المعيشى سيوفر للفرد مجالا آخر للتفكير والترويح والترفيه عن نفسه بعد مشقة العمل . . . كان الانسان مزارعا لم تكن الزراعة بشكلها الحالى بل ربما كانت الزراعة اليدوية هى أن يلتقط الحبة ويغطيها بالتراب ثم تتطور وبدأ يعمق لهذه الحبة بعد أن رأى الطيور تأكل الحبة والديدان تفسدها . . . ثم الأعشاب التى بدأت تنمو على الزراعة فتعوق نمو عودها وثمارها ، فكر فى إزالتها . . ثم رأى أن يده تتعب من حفر الأرض فبحث عن عود بدل يده . . . ثم بدأ يشكل هذا العود يستعمل رجله لأن الانحناءة تتعبه . . . ثم كثرة المجموعات فأصبحت الأرض المروية بسيطة . . . والنيل بعيداً عنها . . . ففكر فى الشاتوف فهذا كان آخر ما وصل إليه فى دنيا التطور والزراعة .

بعد أن صنع الشاتوف وصنع السلوكة ومحراث الخشب الذى يجره آخر ... وطورية الحطب . . والجاروف . . . ثم طور المحراث الانسانى إلى محراث تجره الحيوانات بأن ربط المحراث إلى الثور أو البقرة . . . وبذلك وفر جهـــداً جسمانيا عليه . . . فأصبح عنده شاتوفاً ومحراثاً . . . وطورية وسلوكه ـــ هـــذه كل معدات الزراعة الأولية بعـــد تطور المجتمع وحتى وصل إلى حضارة الفراعنة .

ثم كانت الافات الزراعية الكثيرة منها الطير والزرزور والجراد وفرس البحر

كلما تفتك بزرعه الأمر الذى فرض على الانسان أن يفكر وان يبدع حتى يقاوم الطبيعة . . . ففرس البحر كان موجوداً على طول النيل . . . وخروجه بالليل يعنى إفساد مزرعته بكاملها وضـــياع المحصول على مالكه . . . فلابد الانسان أن يفكر للتخلص من هذا الوحش الذى لا يرحم بجهود الليالى والأيام وتعب الزراعة والرى والنظافة . . . يأتى عليه فى ليلة واحدة . . . ففكر فى حفر حفرة عميقة يغطيها بالاغصان والاعشاب وعندما يأتى ليلا هذا الوحش يقع فى هذه الحفرة وبذلك يسهل قتله أو حرقه .

ثم كان أمر السكن فاستعمل الاغصان فلم تفلح فى هذا الطقس الجاف صيفاً وشتاءاً . . . ثم فكر فى بناء منزل من الطين ربما أخـــذت التجربة الأولى عشرات الاشكال وفشلت المحاولات الأولى أكثر من مرة لعدم وضع أساس للمنزل كلية أو بدرجة عميقة أو لعدم معرفة خلط الطين جيداً . . . أو لعدم معرفة عرض سمك كمية الطين . . . « للطوف » — أو ربما لعدم اعطاء الطوف كمية كافية من الجفاف حتى يضع عليه الطوف الثانى — ثم كان أمر عرشه كيف يعرشه . . . طبعا لم يفكر أن يضـــع عليه ساق شجرة طويلة فى أول الأمر . . . عشرات المحاولات والتجارب حتى اهتدى إلى ساق شجرة طويل ثم تغطيته بالأغصان والأعشاب والطين . . . وهـذه المنازل الطينية على النيل الآن هى خبرات عشرات الآلاف من السنين بدأها الأولون ثم يضيف إليها كل جيل بعض التعديلات . . . ربما لم تكن بها نوافذ فى بداية الأمر لأنه لم يعرف كيف يصنع النوافذ ويضع لها أخشاباً من فوق ويقطع الطينه وهى لينه . . . وربما كان الأولون يفتحون النوافذ بفتح ثقب بأى آلة وأى وسيلة .

ثم تطور الزمن فعرف أن ساق الشجرة ربما تسقط عليه وضره . . ولذلك فكر فى وجود آخر يضعه تحته . . هذه الاضافات اتت لاشك بمرور الزمن . . فلزمن طويل لم تكن هنا لك أبواب كالتى نعرفها اليوم فالنجارة لم يتفرغ ،

إليها أحد كما أن آ لات النجارة لم تكن معروفة والحديد لم يكن بالوفرة اليوم لصنع المناشير والفارات وخلافه من أدوات النجارة .

لو حاولنا البحث عن شكل العلاقات بين هذه الجماعات التي سكنت النيل وملأت ضفافه كيف كانت في البداية . . لاشك أنها لم تتمركز في نقطة واحدة ثم انتشرت شمالا وجنوبا . . بل كل مجموعة . . سكنت بعيدة عن الأخرى لا تعرف عنها شيئا في بداية الأمر . . ثم كان أمر هـــذه الجماعات الصغيرة المنعزلة في البداية لاشك ستخلف بينهما بعض الخلافات . . . وتضع لها قوانين ففيها الكسلان . . . وفيها الأحمق . . . وفيها العاقل . . . وفيها كل ضعف البشرية هـــذه الجماعات كان لابد من وجود مدير بينها ليحكم في خلافاتها . . . ربما في البداية شخصيته وشجاعته وقوته هي التي فرضت نفسها على المجموعة . . وبذلك أصبح مهابا من المجموعة لأنها تحتاج إليه لحمايتها من الأشرار من أقرانها . . وربما يظهر زعيم آخر له نفس القوة فيحدث القتال بين الاثنين فيفرض القوى سيطرته ومشورته على الآخرين . . ومن خلال هـــذه التجارب أدرك الإنسان حوجته لزعيم . . ومن هذه الحوجة كان الزعيم . . وتطور الحال وأصبحت هذه الزعامة وراثية بعد سيطرة فرد وأسرته على كل مشاغب ومغامر . . وعاولتها لحفظ النظام والأمن للمجموعة . . الأمر الذي جعل للمجموعة أن تترك لها هذا العبء الثقيل وتتولى مصادمة الشر والخارجين عن النظام . . ثم كان أمر هذه الأسرة المسيطرة بعد عشرات السنين . . بعد أن تمكنت من فرض السيطرة على المجموعة . . وشعورها أن المجموعة ترهبها . وأنها تقدم خدمات المجموعة . . فلا بد من أن تقدم هذه المجموعة مقابل هذه الخدمات . . . ربما تتولى المجموعة المساعدة في زراعة حقول هذه الأسرة . . وحصدها . . أو دفع شيء من حصادها لهذه الأسرة التي بدأت تأخذ صفة الأسرة المالكة أو زعيم القبيلة أو المجموعة . . وظهرت الضريبة على المجموعة في شكل خدمات أو عطاء

فى بداية الأمر .. واستمر الحال عند هذه المجموعة الصغيرة حتى قويت الأسرة المتزعمة .. وبدأت تفرض شروطها وآراءها على الجماعات .

وبشكل هذه المجموعة تكونت على النيل أعداد هائلة من المجموعات . . . ولكثرة سكانه . . وانتشارهم على النيل والبحث على ضفافه عرفوا أن هنالك مجموعات تعيش بالقرب منهم وبدأت الغارات بين هذه المجموعات فى شكل سرقات بسيطة من أفراد ضالين مطرودين أو من الجماعات نفسها . . . أو زعيمها . . . إذا رأى عند الجماعة الأخرى خيرا أكثر . . . وبدأت هذه المجموعات فى الاحتكاك ببعضها وتهب بعضها . . وبذلك أصبحت شخصية الزعيم أكثر ضرورة لتنظيم الدفاع والهجوم وتعويض الأسر المكلومة أو المنهوبة .

وظهرت مجموعة كبيرة بين هذه المجموعات شعرت إنها بعد هذا الاحتكاك .. وغلبها لمعظم هذه الجماعات أن تفرض سيطرتها على المجموعات الأخرى بالقوة .. بعد أن أخضعت المجموعات القريبة منها استغلتها لإخضاع المجموعات الأخرى وبذلك ظهر مجتمع الدولة الأول على النيل بحكم زعيم أكبر مجموعة . . . يساعده فى إدارة مملكته زعماء المجموعات الأخرى .. وأصبح يطالب هؤلاء الزعماء ببعض الضرائب لحاجته للمال لإدارة شئون رعيته وتكوين جيش وصنع سلاح وللتفرغ لهذا العمل الجديد .. وبالتالى .. لم يرى زعماء الجماعات غير رعاياهم ليتحصلوا منهم هذه الضريبة . . وأصبح هؤلاء الزعماء فى مركز أقوى بالنسبة لجماعتهم . . وذلك لمساندة الملك لهم . وأنهم أصبحوا يمثلون الملك .. وما كان على الجماعة المغلوبة التى تحارب الطبيعة فى آفاتها وحشراتها وطيورها من الخضوع لهذا التنظيم الجديد الذى يعيش على ما تبقى لهم من آفات الطبيعة . فقد كانوا يساعدون الزعيم .. فأصبحوا يساعدون الزعيم والملك . . وأعوان الزعيم وحراسة .

وبهذا الشكل تتكون شكل الدولة الاول . . . وظهرت الملكية فى مناطق متعددة من النيل . . أصبحت كل مملكة تترقب المملكة الأخرى . فقد كانت التجربة الأولى هو تغلب مجموعة كبيرة على مجموعات صغيرة . . والاستعانة بها فى التغلب على المجموعات الأخرى ولكن التجربة الجديدة هى الشعور أو المعرفة بوجود مجموعات متحدة فى شكل مملكة .. ويبدأ الاعتداء الأول فى محاولة أحدى الممالك فى السيطرة على مجموعة من مجموعات المملكة الأخرى .. وربما تخضع المملكة التى أخذ منها جزء من مجموعاتها لضعفها .. فلو سكتت فيعنى ذلك أن المملكة التى فازت على الأولى ستحاول أن تفرض سيطرتها على المجموعات التالية حتى تأتى على مجموعة الملك نفسه . وإذا لم ترضى المملكة المجاورة بالتجربة الأولى فستكون الحرب . وربما يكون هناك صلح أو ربما لايكون وفى النهاية هو إخضاع مملكة لأخرى ..

وبهذا الشكل تتوسع المملكة .. ويصبح الملك المهزوم مندوب الملك الغالب أو ربما يعين خلافة أو أحد أفراد مملكته . . وبالضرورة أصبح لهذا الملك جيشه ونظام إدارة مملكته التى توسعت .. وبهذا الشكل قامت على النيل ممالكات مختلفة .. هـــذا بالنسبة للمجموعات التى فى أرض السودان . . أما المجموعات التى فى أرض مصر . . فيبدو أنها كانت أقوى من مجموعات السودان وظهور الملكية فى مرحلة أبعد من مرحلة السودان .. وربما أقوى .. ولذلك زحفت سيطرة مصر على مجموعات السودان .. وفرضت عليها سيطرتها . . وديانتها . . وأصبحت هذه الممالك السودانية تابعة للمملكة المصرية الفرعونية بعد قرون طويلة من النضال والبحث عن بعض .

ونحن لانستطيع أن نتحدث عن حال المجموعات التى حكمها المصريون لأن الوثائق القديمة غير كافية حتى الآن ولكن مايهمنا الآن هو بداية استقلال المملكة السودانية عن المملكة الفرعونية ... وتزعم هذه المملكة القوية

على مملكات السودان . . . وفرض سيطرتها حتى على مصر .. ومحاولتها طرد أعداء مصر من الليبيين وقبائل أرض فلسطين والقبائل الآتية من الشمال وذلك منذ القرن الثامن قبل الميلاد .

وقبـــل البحث عن تطور هـــذه المجموعات الحضارى والثقافى حتى القرن العشرين نود أن نعـــود مرة أخرى إلى المجموعات الأخرى التى تسكن بعيدا عن النيل حتى نـــكمل صورة المجموعات التى كانت تمـــلأ أرض السودان الحالى .

* * *

مجموعات السهل

يذكر التاريخ الحديث لنا أسماء قبائل عديدة تسكن السهول شرق النيل وأخرى غرب النيل وأخرى جنوب النيل .

هذه المجموعات التي تسكن الشرق الان مثل العبابدة والرشايد والشكرية وبنى عامر والامرار والبطاحين وكلها أسماء حديثة وعربية وهى أسماء أتت بعد الإسلام .. فقد كانت هذه القبائل المهاجرة التى استوطنت أرض السودان والنصف الشمالى من أفريقيا هى أول من سكن هذه السهول والوديان والأنهار أم كانت هناك مجموعات قبلها . . وهل كانت هذه المجموعات رعوية أيضا .

عرفنا قديما بأن أرض السودان لم تسكنه المجموعات النيلية وحدها . بل هناك مجموعة أخرى على ضفاف البحر الأحمر .. وهى البجة .. ولكن لو حاولنا أن نبحث عن بداية حياة هذه المجموعات هل كانت رعوية . وهل محاولة رعاية الحيوانات تأتى بدون مقدمات وتأليف هذه الحيوانات وكيف ألفت .. وأين كان أصل هذه المجموعات .

بدأت لاشك هـذه المجموعات بالزراعة على الانهر الكثيرة الساقطة من الجبال والوديان تحت الهضبة الحبشية وجبال البحر الأحمر .. وبدأت الإنسان يدرك هل أسهل تأليف الماعز أو الاسد أم الحمار فوجد أن الماعز أفضل لأنها تحتاج للعشب فى حين يحتاج الأسد للحم . . لحمه أو لحم الماعز . . ولذلك فضل الانسان تأليف الحيوانات التى يمكن أن ترعى .. ويأتى لها بالعشب فى مكانها فى البداية حتى ألفت عليه ..وتوالدت وكثرت .. وبذلك بدأ الإنسان يبحث عن مرعى لماشيته التى كثرت وأصبحت تعطيه اللحم واللبن والشحم

وتحمله . . وتنقله . . حتى توسع فى الاستفادة منها فى المقايضة بها فى مقابل حاجياته الأخرى كالملابس والملح وخلافه .

عرفت السهول السودانية الجمل منذ قديم الزمان قبل الإسلام والمسيحية . . وكانت هناك مجموعات تعيش على زراعة الوديان والأنهار ورعى الماشية . . هذه المجموعات كانت أكثر شراسة من سكان النيل وذلك لما تفرضه الحياة المدنية والعشرة مع مجموعات على تلطيف طباع الإنسان .. ووجوده فى مكان دائم يجعله يفكر باستمرار لتحسين أحواله وأدواته .. أما ذلك الراعى فلا أنيس له الا تجمع أسرته فى الليل .. وماشيته طول النهار لاهم له إلا البحث عن مكان أخضر .. وصيد الحيوانات المفترسة عنها فقد عرفت هذه السهول كل الحيوانات المفترسة والاليفة .كما أن هذا الراعى لا يحتاج لأدوات كثيرة ليستعملها أو لمسكن دائم يفكر فى تحسينه .. فالماشية تعطيه وبرها وجلدها ليصنع منه منزله المتنقل وتمده .. وأتاه لبنه ومائه .

قد عرفت الأبل من قديم الزمن وربما الأبل التى استعملها الفراعنة أخذت من هذه المجموعات التى ترعى شرق النيل وضفاف البحر الأحمر

ولكن كيف تكونت هذه المجموعات وما هى القوانين التى سارت عليها فى رقيها وتطورها .. لاشك أن تجمع هـــذه المجموعات فى مجموعات كبيرة لايختلف فى شكله عن المجموعات النيلية وحوجتها لهـــذا التجمع حتى أضاع بفرديتها .. فكانت المجموعات أسر صغيرة كبرت ــــ وأصبح لها زعيم تحتكم إليه .. ولا شك أن لأكبر القوم بين هذه المجموعات كانت له فائدة أكبر ليعرف تاريخ الماشية . . وطباع الناس .. وأصبح للشيخ بين هذه المجموعات تقدير خاص لأنه يستطيع أن يكشف تاريخ كل فرد وممتلكاته . . فلا يستطيع أحد أن يستولى على حق آخر مدعيا ملكيته .. لأن هناك رجل عجوز يعرف حق كل فرد .. ولم يكن لهذا الشيخ من الجماعة أى ولأغير الطاعة وسماع الأمر .. وكانت تخرج هذه المجموعات فى زمن الصيف باحثة من مرعى . . فكانت تلتقى فى الوديان

بمجموعة أخرى تشاركها نفس المرعى .. وربما تتعصب صاحبة الحق الأول فى المرعى فى طرد الأخرى أو ربما ترى صاحبة العدد الأكبر طرد الضعيفة .. ولذلك كانت حياة هذه المجموعة محفوفة دائماً بجو القتال .. بالعصى والحجاره والسيوف أخيرا والتى تفننوا فى صنعها وتشكيلها كالخنجر .. ثم السكين .. والحراب .. وهذه أكثر الأدوات تطورا التى استعملتها الجماعة الرحل فهى لم ترى البندقية إلا بعد الفتح التركى والتى كانت تملكها قبل ذلك عم الزعماء للارهاب فقط أما بقية الجماعات فقد كانت تخاف منها وترهبها ويفزعها منظرها .

بتجاور القبائل الرعوية .. والصداقات التى كان يعقدها شـــيوخ القبيلة والزواج من مجموعة مع مجموعة أخرى لتوثيق هذه الروابط . جعل الكثير من المجموعات الصغيرة لتكون مجموعات كبيرة .. كان لشيخ القبيلة أو زعيمها الرأى والحكم النهائى فى كل خلاف .

لم يكن لهذه المجموعات عمل يملأ فراغها ويتمســك قواها كالمزارعين .. ولذلك فكرت فى ألعاب الفروسية والمبارزة والصيد والقتـــال والسباق .. وتطورت فى فن هذه اللعبات الفروسية ولكنها لم تحاول غير ذلك الا بعد زمن طويل ودخول مجموعات جديدة تحمل حضارة جديدة ورأت أشـــياء جديدة أو سمعت بها .

هذه الألعاب الوحشية زادت من طباع البدو وحشية فالقتال وعشقه هو الرجوع بالانسان لحياته البدائية .. فالانسان فى تطوره يتخلص من حيـــاته الوحشية والبدائية الأولى .. والفروسية وقتل الاخرين ما هى الا أشـــباع للاخلاق البدائية .. والتمتع والتباهى بقتل انسان من أجل الرياضة لا يعد تطورا مهما كانت الصفات الرجوليه الذى تطلق عليه .. فالرجولة ليست فى خلق مباراة لقتل انسان آخر انما الرجولة فى تقديم الأعمـــال الكبيرة للاخرين

ومساعدة الغير ونكران الذات والتحلي بالأخلاق السمحة النبيلة .. أما الدعوة لاراقة الدماء فليست صفة من صفات الانسان المتمدن .. ولبقاء هذه الصفات بين العرب الرحل أسباب كثيرة منها عدم حياة الاستقرار لتهدئة وحشية الانسان .. وعدم اختلاطه بأنماط من الناس يختلفون عنه فى تفكيره وعاداته ليقتبس منهم . فكل الذين يعيش بينهم ويعاشرهم هم عرب رحل .. كلما أظهروا غلظة أبدى غلظة أكثر منهم وكلما أبدوا لينا ظن ذلك جبنا .. فحتى الحلم لا ينفع فى البادية .. فالحليم جبان .. والذى يكره قتل انسان من أجل نعرة قبلية يعد جبانا . وكل من يكره القتال وألعاب الفروسية ليس برجل .. ولذلك حكموا بالتقاليد على مجتمعهم أن يعيش فى جو من القيم البدائية التى تحبذ القتل . وتقف حتى الان ضد رقى الانسان وتلطيف طبائعه الوحشية لأن الخروج من هذه الوحشية يعد عيبا وانحدارا بالرجولة لا تطويرا للانسان الحديث فى أفكاره ومشاعره وأخلاقه وعاداته ومعاملاته .

ظلت طبيعة الارض عنصرا مساعدا على انتشار الرعى وحياة البدو فالسهول الشرقية الغنية بالأعشاب والوديان والأشجار والنباتات المختلفة طيلة أيام السنة ساعدت مجموعات السهول الشرقية فى السودان أن يحترفوا مهنة رعى الماشية والابل .. بل أضاف أجدادهم مهنة الزراعة البسيطة ببذر الذرة على ضفاف الأنهار دون مجهود ليجد الطبيعة تكفلت بنمو هذه الحبوب .. حيث لم يفكر هذا المتنقل فى صنع آلات زراعية تعيق من تنقله وتثقل عليه حمولته أثناء زمن الصيف والتجوال والبحث عن مرعى جديد .

تكاثرت هذه المجموعات فى عشرات الآلاف من السنين قبل الميلاد على السهول الشرقية .. وحيث كثرة التنقل وعدم الاستقرار لم يخضعها انتظام دولة لها نظامها الثابت وادارتها المركزية .. وهذا التنقل كان حائلا دون قيام دولة مركزية لهؤلاء الرحل حيث تحتاج الدولة لمكان دائم .. واستقرار ورعايا

لهم أماكن محدودة أما هؤلاء .. فيصعب التحكم فيهم ومعرفة أماكنهم فتارة هم فى الشرق على جبال البحر الأحمر وتارة قرب النيل أو نهر عطبرة أو الشمال داخل أراضى مصر ولذلك نشأ عندهم حكم يساير هـذه الظروف هو حكم القبيلة وزعيمها الذى تخضع له القبيلة حيث يرحل معها يحتكم اليه أفرادها فى حقوقهم .. ويتزعمهم فى حالة الاعتداء على أحد منهم أو الاعتداء على القبيلة أو ما شيتها .. وكان يجب أن يكون هذا الزعيم صاحب حكمة وشجاعة وقوة ترهب كل مشاغب وتردع كل خارج على قانون القبيلة والجماعة .

كما أن طبيعة الأرض الموحشة أو تلالها الصخرية .. وأشجارها الشوكية وحيواناتها المتوحشة والمفترسة المتعددة — التى تحيط بحياة هذا البدوى جعلته يعيش فى حالة موحشة وطبائع أقرب الى طباع الحيوان المفترس .

أما جنوب ملتقى النيلين الأبيض والأزرق فقد كانت تسكن هنالك القبائل الزنجية فى طبيعة محاطة بالاشجار المتعددة .. والأمطار الغزيرة — والنباتات الكثيفة التى تغطى السهول وضفاف النيل كما تعيش الحيوانات المفترسة بكثرة أكثر من الشمال مما جعلت المجموعات أن تقضى جل تفكيرها فى صنع أسلحة لقتل هذه الحيوانات أو لايجاد مساكن لا تقترب منها هذه الحيوانات .. والاعشاب التى كان يحوطها سور من الشوك الكثيف لا شك كانت منازل هذه المجموعات حيث يصعب على الحيوانات المفترسة ليلا أن تقتحم هذه الاشواك الكثيفة .

* * *

الحضارة قبل القرن الثالث الميلادى

الحضارة هذا التاريخ المجيد . وهذه الآثار الرائعة وتلك النهضة التى قامت على أرض النيل والفرات والبحر الأبيض المتوسط . . هـــذا الماضى العظيم للانسان قام على أكتاف العبيد والفلاحين والعمال .

إستنفذ المجتمع القديم طاقات هـــذه الطبقات من الفن والعمارة ومن أجل هذه الآثار الرائعة التى قامت على أيادى البوساء والمنبوذين . . كانوا هم مصدر الدخل وهم المواهب التى تعمل . . كان المجتمع القديم يختلف فى استغلاله لطاقات هذه الطبقات عن المجتمع الرأسمالى أو الملكى الحديث الذى يدخر خيرات هذه الطبقات لمنفعته الشخصية الملذات الدنيا . . على أن يعيش هو فى مستوى معيشى من المتع والكماليات وتعيش الطبقات الأخرى صـــانعة الانتاج محرومة من معظم الضروريات . . فى حين تكدس خيراته معطلة أو تستغل لاستغلال مجموعات أخرى . . أما المجتمع القديم فان لم يختلف فى تركيبه عن مجتمع العبودية والطبقات اليوم فى كثير من الصور والتفاصـــيل إلا أنه اكتشف الفن . . هذا التراث الذى نقف حياله اليوم مبهورين مقدرين نبوغ الاقدمين ومواهبهم . . اكتشف المجتمع القديم الفن عن طريق العبادات . . فقد ولع بتقديس الآلهة التى اخترعها .

ومبالغة فى تقديسها سخر المجتمع القديم كل طاقات المجتمع لتخليد هذه الآلهة . . وكان هذا التخليد وسيلته الفن . . مجتمع عاش على السيادة . . سيادة الملكية والمعابد وكهنة المعابد والطبقة الممتازة لخدمة الملكية والمعابد . . أم بقية خلق الله فقد كان نفاية ، وخادم لاسعاد هذه الطبقات .

إنسان من نوع آخر ليس من فصيلة هذه الطبقات التى تسيطر على مقاليد الحكم والمعابد . . كان هنالك العبيد فى كل من حضارة الفراعنة أو الرومان والاغريق أو الأشوريين . . وكان هنالك الفلاحين الفلاحة المساكين وكان هنالك العمال أساس الانتاج والابداع . . لأن الأقدمين وخاصة الأغريق عدوا أهل الحرف من أهل الفن منهم النجارين والحوذية والبنائين وكل الفعلة . . وهى نظرية سليمة لأن كل عمل يدوى كان يحتاج لروح فنية حتى يصبح عملا مقبولا ترتاح النفس إلى استعماله ومعاشرته .

هذا هو وضع الحضارة التى قامت فى العصور القديمة والتى تعدها البشرية اليوم بعصور الابداع وعصور النبوغ الانسانى .

هذا هو أصل تلك الحضارات قام على أكتاف العبيد وحصاد الفلاحين وإنتاج وابداع العمال . . وعاشت الطبقات العليا فى القصور والمعابد تخطط لهذه الطاقات الانسانية وتقسوا عليها . . حتى بنت الأهرامات والمعابد والقصور التى تقف اليوم أمامها إجلالا وتقديساً .

جاب العمال من شتى أنحاء البلاد بلارغبة أو أجر وسيق الفلاحون بالألوف لنقل الأحجار وتكسيرها . . وأرسل عشرات الآلاف للبحث عن الذهب ونقل خيرات الطبيعة إلى القصور والمعابد لتجميلها وتذويقها بأيدى هذه الطبقات المنبوذة .

هى تخلق الفن . . يقبل الفن . . وهى ترفض . .

أشيد هذه الأيادى الهزيلة المريضة بالانيميا والعرى تلك القصور والمعابد والتماثيل . .

وتبقى التماثيل لتعيش حضارة الفراعنة .. وتذهب الملايين ضحية لتلك الحضارة التى قامت على أسوأ صورة من صور الاستغلال .. والاضطهاد .. والتسخير ..

وكما جلب الفلاح والعامل المصرى جلب الفلاح والعامل السودانى وكما سخر المواطن المصرى كعبد سخر المواطن السودانى كعبد لذلك النظام .. القائم على تحالف البلاط الفرعونى وكهنة المعابد ..

وقد أخذ الفلاح السودانى من أرضه مثل الفلاح المصرى قسرا إلى مواطن العمل عاملا أو عبداً بلا أجر أو رعاية إنسانية تقابل هذا المجهود الذى يبذله لارضاء طموح البلاط الفرعونى وأفكار رجال المعابد والحاشية ..

وقد أخذ هؤلاء المساكين لا عن طريق التطوع أو التجنيد ولكن عن طريق جنود الملك ، سيقوا كعبيد لا عن طريق الشراء أو البيع ولكن عن طريق وضع اليد .. أى عدد تغير عليه شلة من الجنود المستعبدين تستولى عليه لينضم إلى عبوديتهم وربما خرج منهم عبد مبرز فى فنون القتال .. وعاد رسولا يقيد أبناء طبقته عبيداً حسب الأوامر الصادرة إليه من البلاط أو الكهنة تحت ذلك النظام وتلك الحضارة التى قامت على النيـــل والتى أولعت بالمعابد والمقابر والقصـــور والتى يعجز دخلها على الانفاق على تلك المشاريع الفنية الضخمة ..

كان لابد من السخرة والتسخير .. كان لابد من إيجاد عدد هائل من العمال المهرة وغير المهرة من أرض النيـــل ليعملوا على تشييد مئات المعابد والقصور والأهرامات التى قامت على النيل .. وبذلك وربما لأول مرة فى التاريخ تنشط حركة العمل بتلك الصورة .. ولكنه عمل بلا أجر عمل السخرة ..

الأمادات والممالك الصغيرة حتى جاء زمن أصبح الجنوب أكثر غناءاً من الشمال الذى يستهلك طاقات البشر فى البناء والتشييد بروح السخرة وفقد الايدى العاملة فى الزراعة من اجل المعابد والقصور وصار اقتصادة يعتمد كلية على خيرات الجنوب الذى صارت فيه نفقات البناء والتشييد بأقل قدر من النفقات وقامت فيه عشرات المعابد والقصور ولكن بتكاليف أقل من فى الشمال وهذا الفرع وهناك الأصل .

وحين جاء القرن الثامن قبل الميلاد كانت أرض النوبة والبركل وجنوبها قد دبت فيهما الحياة ونشطت فيهما الحركة والعمل واستغلت الأيدى العاملة البشرية أقسى استغلال لانتاج أكبر قدر من العمل البشرى . . وكان لابد لجنوب المملكة الذى أصبح اقتصاد الدولة الأم يعيش عليه عيشة كاملة ويطالبه كل يوم بالمزيد .. بالمزيد .. حتى جاء اليوم الطبيعى فى أن أن يعجز إقتصاد الجنوب ويعلن التمرد . .

وإذا بالجنوب فعلا يعلن التمرد وتظهر أول دولة وصلنا من المعلومات مايكشف لنا عن شكلها وقوتها وتركت لنا من الآثار مايكشف لنا عن نشأتها وقوتها وتكوينها وهى دولة نبتة التى ظهرت فى القرن الثامن قبل الميلاد .

بظهور مالك نبته (البركل الآن) وقد أمتلأت خزائنه وقوى جيشه وأصبح فى وضع يسمح له أن ينفصل من الامبراطورية الأم التى ساءت حالتها الاقتصادية ودب الضعف فيها وأصبحت لاتجد من الموارد مايعيد لها شبابها وقوتها الأولى وأصبحت قوتها فى هذه الاجنحة التى رفعت عصا العصيان بعد أن أصبح استغلالها أمراً مستحيلا .

هذا القانون واضح فى كل الحضارات والنهضات التى قامت بها الدول

والمجموعات خلال تاريخها الطويل.. فلو بحثنا عن سبب نهضة الأغريق أو الرومان في يد حفنة من التجارة والبيوت وكانت التجارة والبحر هي عصب اقتصاد و انتعاش حياة تلك الحضارة وكذلك الحال عند الاشوريين فقد وجدوا خيرات نهري دجلة والفرات فأستغلوا خيرات هذه الأراضي الخصبة وماجاورها حتى أمتلأت خزائن تلك الحضارة ..

ثم جاء وقت إستنفذت فيه تلك الحضارات كل طاقات هـــذا العمل التجاري وهذا الاستغلال الطبيعي القائم عن سيادة طبقة أو مجموعة من السادة على العبيد والفلاحين والعمال . . وحين لم تجـــد تلك الحضارات روافد جديدة لتغذية إقتصادها وقف نمو حضارتها التي هي في حقيقتها مشاريع غير إنتاجية لا تأتي بدخل أو عائد . . والصرف عليها كان يجب أن يقوم في تلك العصور على ذلك النوع من الاستغلال والسخرة .. وهذا ماحدث في أرض النيل . وسنرى ذلك في تاريخ الاسرات بشيء من الإيجاز معتمدين على دراسات الحضارة المصريه ومنقولات المتحف المصري للاثار ومجموعة الكتب التي لخصت هذه الفترة من تاريخ السودان القديم بتاريخ الاسرات .

وهي المجموعة (١) (أ) من عام ٣٤٠٠ ق . م إلى عام ٢٧٢٠ ق . م

المجموعة (ب) من عام ٢٧٢٠ ق . م إلى ٢٢٢٠ ق . م

المجموعة (ج) من عام ٢٢٢٠ ق . م إلى ١٦٠٠ ق . م

(٢) حضارة كرمة

(٣) دولة كوش القرن الثامن ق . م ٨٠٠ — إلى ٣٥٠ ميلادية .

ثم بعد ذلك انتهت الممالك الفرعونية بعد عام ٣٥٠ ميلادية ليدخل السودان فى العهد المسيحى .

ونعود مرة أخرى لنقف على بعض التفاصيل البسيطة التى وصلت الينا عن امتداد الحضارة من الشمال للجنوب وازدهار هذه الحضارة خلال تلك الحقبات الخمسة التى بيناها ثم نقف على أثار تلك الحضارة من الفن والعمارة ونرى .. اتجاهات هذا الفن وفى أى الأغراض وجه واستغل ..

المجموعة (أ) من عام ٣٤٠٠ ق . م إلى ٢٧٢٠ ق . م

هذه أول مجموعة أثبتها المؤرخون فى تاريخ السودان القديم وعلاقتها بالحضارة الفرعونية .

جعل المؤرخون بداية الحياة من جديد بعد الطوفان لوادى النيل بعام ٦٠٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد حيث بدأ العصر الفرعونى بعد شبابه وتكوينه وتظهر الحضارة الفرعونية على أرض النيل ولما كان هذا الجزء من تاريخ الحضارة المصرية الأولى فيحسن أن نربط بين الحضارتين أو نتحدث عن حضارة وادى النيل ككل حتى تتضح لنا الصورة لتلك النهضة وذلك التوسع فى تلك العصور البعيدة التى نتصورها والوقوف عند بعض الحقائق العلمية لها يمكن أن تجعل من تاريخ تلك الحقبة صورة اسطورية حلوة للذين يعشقون الافكار غير المألوفة ..وهذا هو الجانب الممتع فى الحضارات القديمة وذلك الخليط من التقاليد والمعتقدات التى تبدوا لنا مدهشة وغريبة :

وتدخل الدولة السودانية الأولى أو أرض وتاهسو ، كما كانت تسمى أرض النيل جنوب أسوان . . تدخل هذه الدولة من ٣٤٠٠ ق م إلى ٢٧٢٠ ق م

يدخل هذا الجزء من تاريخ السودان مرحلتين من مراحل الحضارة المصرية التى إتفق على تقسيمها إلى مجموعات الأسرات : ومنها الدولة القديمــــة أو المنفية (٥٠٠٤ — ٣٠٦٤ ق . م) أو دولة منف من الأسرة الأولى إلى الأسرة العاشرة ثم ندخل فى الدولة الوسطى أو الطيبية الأولى تبتدىء من عام (٤٠٦٤ — ١٧٠٢ . ق.م) أو دولة طيبة وتبتدىء من الأسرة الحادية عشر وتنتهى فى الأسرة السابعة عشر .

زعم المصريون القدماء أن أصلهم جاء من تسعة آلهة خلقت « نو » المحيط الأول مكان الالهة رع « الهة الشمس فى باطنة ثم ظهر هذا الكون فبسط النور على السهول والوديان وطرد الظلمات وقسم هذا الكون إلى ماء ويابسه . ورأت الالهة رع هذه الأرض عند بدايتها كما خلقها « نو » .

رأت الحياة بدون حياة ولا نباتات وذرفت الدموع السخينة التى نزلت من عينية الزرقاء وخلقت الدموع الحيوانات والنباتات .. ورأى الأرض منبسطة . . فظهر الآله « شو » ورفعها على ذراعية الجبلتين . . وجعل لها الجبال أوتادا وأعمدة لتساعد على تماسكها . . وبانت الأرض . . حسب ماوصل إليه تفكيرهم فى الوجود بأنها عبارة عن صندوق مربع قائم على أعمدة من الجبال تغطية المياه من كل جانب قاعدته هذه اليابسة ..

وعندما توصلوا لخلق الحياة على هذا المنوال خلقوا حسب نفوسهم وأعمالهم آلهة الخير لتقابل الأيام والفصول والحوادث الطيبة . . وكان هذا اشيئا ضروريا بأن يخلقوا الرمز لكل تصوراتهم التى يجب أن يجدوا لها مدلولا ومفهوما .

وجعلوا الالهة «رع» آلهة الشمس حاكما على الارض وجعلوا اقامته فى عين الشمس وفكروا أنه لا يمكن أن يعيش وحيدا فجعلوا له رعيته . يخرج عند شروق الشمس الصافية فى زورقه تصحبه حاشية من الآلهة .. طائفا بالارض ناشرا حكمته

ونصائحه على رعاياه فى كل الارض .. مسديا لهم النصيحة والخبرة .. حتى ركب الشيطان رأس خادمته « ايزيس » اتفكر فى أخذ الطلسم السحرى الذى ورثه عن والديه الذى يضمن لحامله الملك الذى ورثه عن والديه ويحفظه من الضرر والاذى . . ونجحت خادمته فى سرقة الطلسم السحرى حتى ضعفت سلطة رع الارضيه وتجمع البشر لخلعه . . وعندما شعر « رع » بنكران البشر لخيره وأبوته جمع الالهة غاضبا من البشر وحكموا على البشر بالقتل وتولى الالهة هاتور تنفيذ وصية الالهة .

ويدأ فى إرسال الاوبئة لفتك البشر .. ومازال هاتور يفتك بهم حتى اشفق رع صاحب القلب الطيب على نكبة البشر من هاتور . . فانقذهم . . ثم صعد على ظهر بقرة إلى السماء . ثم تستمر سلسلة الالهة التى تصورها الانسان القديم لتقف مكان الحقيقة ثم جاء « أوزيريس » من سلالة رع فاحبه الشعب واحبه رع وخلفه ملكا على مصر ثم تزوج اوزيريس باخته « إيزيس » وجعلها شريكته فى الملك وعلم المصريين الفلاحة واخترع لهم الالات الزراعية وعلمتهم ايزيس الطحن بالرحى والغزل بنسج الكتان ومبادىء السحر والطب وسنت لهم قوانين الزواج الشرعى .

ووضع لهم أوزيريس الكتب والطقوس والقوانين الدينية وبنى طيبة وقيل ولد فيها . .

ثم دخل الملك إلى أيزيس ورحل عن بلاده مع بعض الالهة على شعوب الأرض الأخرى يعلمهم ماعلم المصريين . ثم عاد إلى مصر فدبر له أخاه بتفون آالهة الشر وقتله غدرا .

وكان لاوزريس طفل حين قتل يدعى حوريس وعلم الطفل بعد أن كبر بقصة مقتل والده اوزيريس على يدعمه « يتفون » . . وأضطر للتنازل عن أرض

الدلتا فانقسمت مصر بعد ذلك إلى مملكتين الأولى الوادى وهى واقعة بين منف والشلال الأول وكانت من نصيب الهم « بتفون » والاخرى الدلتا وكانت من نصيب حوريس ثم جاء الى أرض مصر إسرتان عظيمتان حكمتا مصر وأمتد ملكهاالى الفرات شرقا والى الحبشة جنوبا وربما كان المقصود بالحبشة أرض السودان رغم قدم حضارة الحبشة .

واشهر ملوك هاتين الاسرتين « توت » الذى علم المصريين الكتابة والبحث فى أحوال الفلك وأوجه القمر وحركة الشمس وقسم السنة الى أيام وشهور وفصول .. فصل التخضير (نمو الزرع) وفصل الحصاد وفصل الفيضان وسمى شهور السنة بأسماء الآلهة فجعل الشهر الأول توت والثانى بابه والثالث هاتور .

وظلت مصر تحت حكم الآلهة الذين كانت السلطة فى أيديهم ثم بعدهم الجند ثم بقية السكان من فلاحين وعمال وعبيد ..

وزاد ظلم الكهنة واستبدادهم حتى ظهر « مينا » وحرض الجند على الكهنة حتى اعترفوا به ملكا .. وبذلك تغير نظام الملك على وادى النيل وأصبح الكهنة يساعدون الملك بعد أن كانوا هم يصرفون الملك وعمقوا فى تلك الفترة التى حكموها فكرة الالهة وعقابها وابتدعوا ما شاء لهم خيالهم من الالهة حتى جعلوا لكل شيء الاه وظل هذا التأثير الاول والايمان المطلق بالالهة هدف صنع واختراع دولة الكهنة الأولى وظل هذا الاعتقاد قرونا طويلة حتى جاءت المسيحية ثم الاسلام .. وقد امتد هذا الايمان بالالهة على طول النيل حيث امتدت دولة الالهة ثم المملكة المصرية التى توسعت لتلبى حاجات العمرات التى قامت فى وادى النيل لتخليد الالهة والموتى .. ومما ساعد الى خلود الايمان بالالهة أن الملوك بعد تنازل الالهة عن الملك جعلوا للملك تقسين أحداها سيدة الدلتا والأخرى سيدة الصعيد .. وان الملوك يتناسلون من الشمس .

هذا المفهوم الديني الذى عمق بين عامة الشـــعب من رجال حكام وكهنة تفرغوا للتفكير الديني جعل الشعب فى حالة سلبية لأى ظلم يقع عليه.. فلا يصح أن يغضب العبيد من الكهنة والملوك آلهة كما علموا واعتقدوا وبذلك سخروا شعب وادى النيل لخدمة الالهة وجعـــلوا كل البشر عبـــيدا لهؤلاء الملوك والالهة.

هذا هو النظام الملكى الذى شب على أرض وادى النيل .. حد من أى تفكير للتمرد عند الناس وجعل من ملوكه آلهة وخلق أساطير الالهة لهم.. وهى أخطر فكرة لشل حركة الناس ضد الظلم ويبدوا أن كهنة القرون الوسطى فى أوربا قد استلهموا هذه الفكرة ووقفوا حائلا بين تمرد الشعوب الاوربية على ظلم الاقطاع الاوربى وجعلوا هذا الظلم من مشيئة الرب .. وجعلوا الملوك أبناء الرب المختارين وأى تمرد ضد هؤلاء الملوك انما هو تمرد ضد الرب حتى وصل هذا الظلم لرجال خرجوا من الكنيسة وحطموا هذا الاعتقاد وأنقذوا البشرية من سباتها لضلال كهنة القرون الوسطى مثل مارتن لوثر .

ثم ظهرت عبادة الحيوانات على يد الملك كاكاو واشتهر العجل « أبيس » فى منف ثم بقية أراضى النيل وزاد حب المصريين لملوكهم بعد عهد الملك بيتوتريس الذى سن القوانين وأباح للنساء حق تولى الحكم .. وجعل الملك نائب الالهة وابن الشمس .

* * *

تطور الفنون ونشأتها فى السودان

نشأة الفن الأول

[illegible]
الأول ، بين الرسم والنحت والموسيقى و الغناء . فلاشك أ نه قد توصل إلى واحدة
تلوا الاخرى .

لا نستطيع أن نكتشف هـــذا الفن الأول إلا إذا وضعنا فى إعتبارنا نظرية وهى أن كل الفنون تخضع للامكانيات الطبيعية .

الفن هو الإنسان دائماً الامــــكانيات الطبيعية التى حوله بما فيها من نباتات وإمكانيات إجتماعية وحضارية الخ .

فلو حاولنا أن نطبق هذه النظرية على الفنون البدائية الأولى لنكتشف أى

الفنون استطاع أن يكتشفها الإنسان دون غيرها فسوف تقدم الرسم والنحت على بقية الفنون الأخرى لانها أخذت في طورها الاول تقليد الطبيعة من الصورة التي أنطبعت في الذهن أو محاكاة الطبيعة .

أما الموسيقى فقد كانت تحتاج إلى آلات وإحساس أرهف وكذلك الرقص والغناء يحتاج لامكانيات حسية وفنية في الانسان لم تكن قد تكونت بعد في حياة الانسان الاول الذى عاش وحيداً بين الادغال والحيوانات ، يفترسها وتفترسه لا فرق بين ، حياته وحياتها غير بعض التصرفات العقلية التي كان يأتي بها يأوى يأوى إلى كوخ من البرد والحر والمطر أو يختبيء من الحيوانات أو في كيفية صيد حيوان قوى .

هـــذا الانسان الاول ترك لنا آثاره على الكهوف والصخور تلك الآثار أعطتنا فكرة عن مقدرة الانسان الأول على محاكاة الطبيعة إلا أن معظم المؤرخين لم يحاولوا أن يبحثوا عن الفنون الأولى التي نشأت كالرسم أو النحت بل وقف معظم المؤرخين مع النحت وذلك للاثار التي وجدت أما الفنون الأخرى التي لم تخلف تراثاماديا فلم يحاولوا أن يبحثوا عنها كالموسيقى والرقص وإنمـــا اكتفوا بتطور هذا الفنون بعد تطور النحت وهي مرحلة بعيدة في حياة الانسان الحضارية .

كانت ظروف الإنسان الأول تهيئة للرسم قبل النحت فالنحت عملية أصعب من الرسم وذلك للمواد التي تستعمل في كل من الحالتين فقد تعلم الإنسان

الأول الرسم بالصدفة . . . جلس على شاطىء النهر أو تحت شجرة وبدأ يخط بيده على الأرض ... أشكالا غريبة غير مقصودة ووجد نفسه أنه يعمل أشكالا على الأرض لم يحدد ماهيتها وبدأت هذا الخطوط على الأرض تأخذ شكلا آخر فى ذهنه ، بعد أن كانت عملية عضوية أو حركة غير مباشرة من يده بدأ يوظف هذه الحركة لتقليد شيء مما يراه أمامه . . وهو بلا شك لم يخلق شكلا جميلا به كل المقاييس الفنية ولكنه استطاع أن يرسم الشكل الذى أراده إن كان لشخصه أو لحيوان أو شجرة أو طير ... وبدأت له هذه العملية جميلة تملأ فراغه وتشغله وصار يمارسها كلما وجد الوقت والمكان المناسب لهذه العملية .

بعد أن توصل الإنسان بالصدفة بتخطيطه على الأرض إلى الرسم توصل كذلك إلى النحت على الحجر بعد أن جرب إمكانياته على تقليد الطبيعة وحين اضطرته الظروف إلى الاحتماء بالكهوف لم يمارس النحت فى بداية أمره لملأ الفراغ الذى يحتويه بل بدأ يلعب على الأرض يخط أشكالا غريبة أو مقصودة لمظاهر الطبيعة ثم اكتشف وجود حجر حاد بجانبه فبدأ ينقش على الكهوف تلك الأشكال التى كان يخطها على الأرض بعد أن تمرس عليها . بعض تلك النقوش التى كان يخطها على جدران الكهوف احتفظت بشكلها لتصل إلينا وتعطينا وثيقة خطية على مقدرة الإنسان على العمل الفنى مستحدثاً الإمكانيات المادية التى حوله .

أما الموسيقى والرقص والغناء أيهما سبق الآخر فيمكن التوصل إلى النتيجة بنفس النظرية الأولى ، فقد بدأ الرقص والغناء فى لحظة واحدة . . . وجاء ذلك تعبيراً للاندهاش والفرحة فى لحظة معينة ومعبراً عن سروره . . . حين حاول الإنسان الأول أن يصطاد حيواناً . ونجح فى اصطياد ذلك الحيوان . وبدون أن

يشعر بدا يقفز فرحا ويصدر أصواتاً ليست جميلة على كل حال ولكن لها إيقاع يساير الحال والقفز ويعبر عن حالته النفسية وفرحته وهى عبارة عن همهمة وقفزات عالية ثم جاءت الموسيقى فى حياة الإنسان الأول حين وجد نفسه سائراً وحيداً يلعب بأصابعه فتعطيه فرقعة الأصابع إيقاعاً منتظماً متنوعا وصار يكرر هذا الايقاع وينسجم إليه بمفرده ثم طور هذا الايقاع بالضرب على الأيدى مع المجموعات للتعبير عن الفرح مصاحبا الرقص الجماعى حين اصطاد حيواناً . أو العائلة حين تجد وليمة أو حيواناً ، أو تعبيراً عن اللقاء والعودة إلى المنزل أو المكان الذى اختارته للقاء فيه.

لقد حاولنا أن نعطى صورة عن بداية الفنون مع بدايه الانسان الأول . ولا بد الآن علينا أن نتتبع تطور هذه الفنون فى السودان عبر التاريخ بعد أن انتظم الإنسان فى مجموعات وتطورت حياته البدائية لحياة اجتماعية لها قوانين ونظم وذلك خلال مسيرة الإنسان على النيل حتى وصل إلى الحضارة الفرعونية ثم المسيحية والإسلامية .

نود أن نضيف نظرية أخرى للفن وهى أن الفن تعبير عن إمكانيات الطبيعة والمجتمع.

إستعمل الانسان إمكانيات الطبيعة التى حوله فخلق منها الفن الذى يمكن أن يأتى من تلك الامكانيات ...

فلو نظرنا فى ظروف الحضارات التى قامت حول البحر الأبيض المتوسط وهى الحضارة الفرعونية والاشورية والاغريقية والرومانية لوجدنا أن أعظم ما خلفته تلك الحضارات لا تتعدى عن إمكانيات الطبيعة ، فقد وجد الانسان الأول على النيل الامكانيات المساعدة لتشييد العمارة والنحت من حجارة الجرانيت

الذى يساعد على النقش الغائر وكذلك يجد الجير الأبيض وأنواع عديدة من الحجارة فى كل منطقة .

فقد وجد الانسان على النيل مواد حجرية مختلفة استغلها كلها بما يناسب إمكانيات تلك المواد للاعمال الفنية مثال ذلك حجر الجرانيت الأحمر ذى الحبيبات الخشنة لصنع التماثيل الكبيرة التى لا تحتاج لصقل وشكل ملس ناعم واستغل الجرانيت الأسود ذى الحبيبات الصغيرة للتماثيل الصغيرة وذلك لجعلها ملساء رقيقة على اليد وإمكانية صقلها فى أشكال صغيرة مختلفة . . . واستغل حجارة الجير لرخاوتها وإمكانية صبغها بالألوان واحتفاظها بتلك الألوان .

توفرت مثل هذه الامكانيات للانسان على النيل فى حين لم توجد مثل هذه الامكانيات فى منطقة الحضارة الاشورية التى كانت تقيم مبانيها من الطين وقد ساعدتها ظروفها الاقتصادية وإمكانياتها المادية على استيراد هذه الأحجار للتماثيل من خارج منطقتها ولذلك ساعدت سلسلة جبال الألب وغناءها بالأحجار المختلفة على قيام التماثيل وعمارة الأعمدة عند الاغريق والرومان .

أما فى السودان فقد هيأت الظروف للمنطقة الشمالية فى السودان قيام مثل تلك الفنون من نحت وعمارة وذلك لغناء تلك المنطقة بسلسلة جبال تحيط بمجرى النيل مما يساعد على بقاء تلك الآثار القديمة عبر التاريخ واحتفاظ تلك الآثار الحجرية بتاريخها عبر التاريخ رغم الخراب البشرى والطبيعى الذى تعرضت له .

أما إذا سرنا جنوب المنطقة الشمالية فنجد قلة الجبال التى تصلح لبناء عمارة كالتى قامت فى الشمال وكذلك التماثيل الأمر الذى جعل أثر هذه المنطقة خلال العصر الفرعونى غير معروف .. ولكن هذه المنطقة استغلت إمكانياتها الطبيعية

وهى (الطين) ، لبناء المعابد والتماثيل من الصلصال وصنع الفخار الأمر الذى جعل آثار هذه المنطقة قابلة للتلف بواسطة الإنسان والطبيعة مما جعلنا لا نعثر على آثار كافية لتلك الحضارة التى نشأت فى مروى القديمة قرب الدامر وذلك لاعتماد عمارة وفن تلك المنطقة على بنـــاء قلاعها ومعابدها من الطين وتماثيلها وأوانيها من الصلصال .

وقد امتازت أرض السودان وجباله بالمعادن كالذهب والنحاس والحديد الأمر الذى ساعد الحضارة الفرعونية لاستغلال هذه المعادن فى التماثيل والأوانى والزينة إلى أبعد حد ..

وقد برع الفنانون فى تشكيل تلك المعادن وإخراج تماثيـــل غاية فى الجمال والروعة وقد احتفظت لنا منطقة البركل (نباتا) ببعض هذه التماثيل الذهبية كما تضم المتاحف الأوربية ومتحف القاهرة الكثير من آثار تلك الحضـارة التى قامت فى السودان من المعادن والذهب والأحجار .

وهنالك إمكانية أخرى وهى النباتات الطبيعية من أشجار ونبات نبت على ضفاف النيل استغلها الانســـان فى كثير من حاجياته اليومية وقد ظهرت المصنوعات الخشبية ضمن الآثار المعروضة فى متحف القاهرة وإذا ابتعدنا عن النيل نجد إمكانيات أخرى استغلت نفس الاستغلال لحاجة الانسان للجمال وهى المصنوعات المصنوعة من جلود الحيوانات المختلفة والطيور والأشجار وقد اختص جنوب السودان بنوعين من المصنوعات الفنية وهى المصنوعات الخشبية. وذلك من الأعشاب القابلة على التشكيل كما استغل الأبنوس والعاج وظهرت فى غرب السودان المصنوعات الجلدية للحيوانات والزواحف والطيور والنباتات وافتقدت تلك المنطقة المصنوعات الحجرية والصلصال وذلك لطبيعة الأرض الرملية ولقلة الأحجار الصالحة لهذا الفن إن كان للعمارة أو النحت .

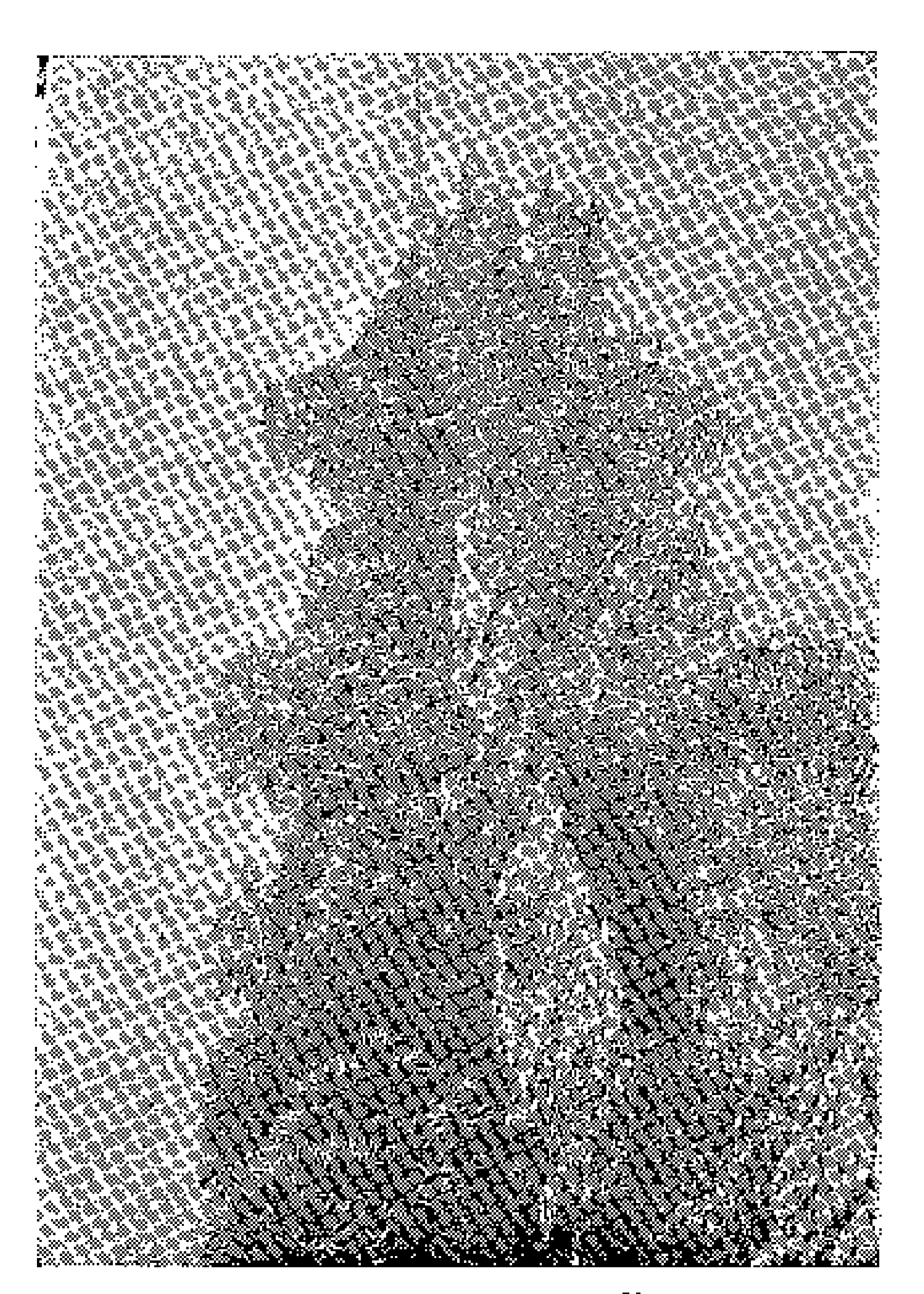
تطور هذه الفنون :

هذه فكرة عامة عن نشأة الفنون عند الانسان وتنوع هذه الفنون فى السودان باختلاف الأماكن والامكانيات الطبيعية لأن تلون الفنون وتنوعها جاء نتيجة تلون واختلاف الامكانيات الفنية .

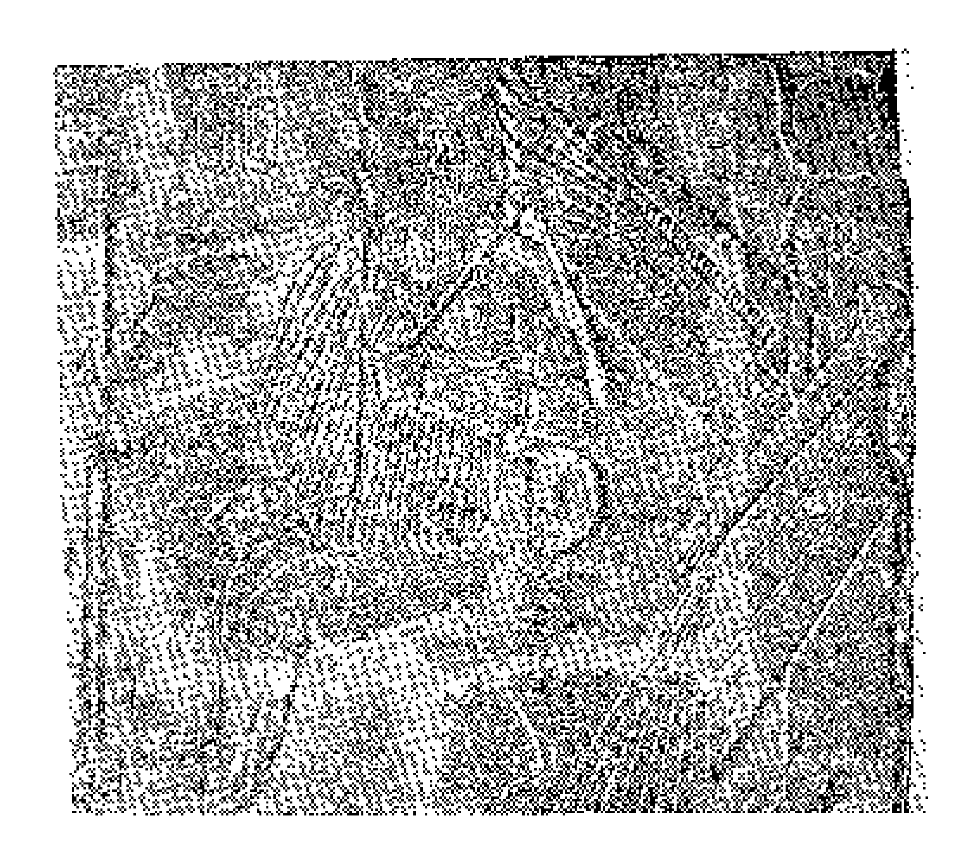
فالانسان عنصر واحد متساوى فى كل الامكانيات البشرية الخلاقة ، وما يظهر هذا التنوع هو الطبيعة أو المسادة الفنية المصنوع منها الفن ومظاهر الطبيعة نفسها توحى بالفن ومحاكاته . لأنه لا يعقل أن يرسم سكان غرب السودان أو النيل الدب القطبى أو الحيوانات البحرية والقطبية كما لا يجوز أن يصنع الانسان فى الجنوب مصنوعاته الفنية من المرمر والأحجار الصالحة للفن وهى غير موجودة بحوزته ولا يدرك الامكانيات التى أعطتها له الطبيعة كالعاج والأشجار وجذورها والحيوانات ومخلفاتها والطيور ولا يعقل أن لا يصنع الفيل والتمساح والطيور المتواجدة بجانبه بكثرة ويفكر فى صنع الجمال الصحراوية والخيل والحيوانات التى لا تقطن المناطق الاستوائية .

من الامكانيات التى حول الانسان ومن مظاهر الطبيعة خلق الانسان فنونه وبدأ يطورها بمرور الزمن والعصور وإن كنا لم نعثر على آثار قديمة لسكان النيل قبل الحضارة الفرعونية فلا يعنى ذلك أن تلك الفترة التى سبقت الحضارة الفرعونية لم تخلق فناً ولكن الأمر يرجع إلى أن تلك المصنوعات لم تقاوم مادتها الطبيعية كل هذه القرون بجانب المناطق الأخرى التى لم تتوافر لها مثل هذه المواد الحجرية القابلة على البقاء والتى كانت مصنوعاتها من الطين والصلصال ومخلفات الحيوانات من عظام وجلود ومن أخشاب الأشجار وثمارها .

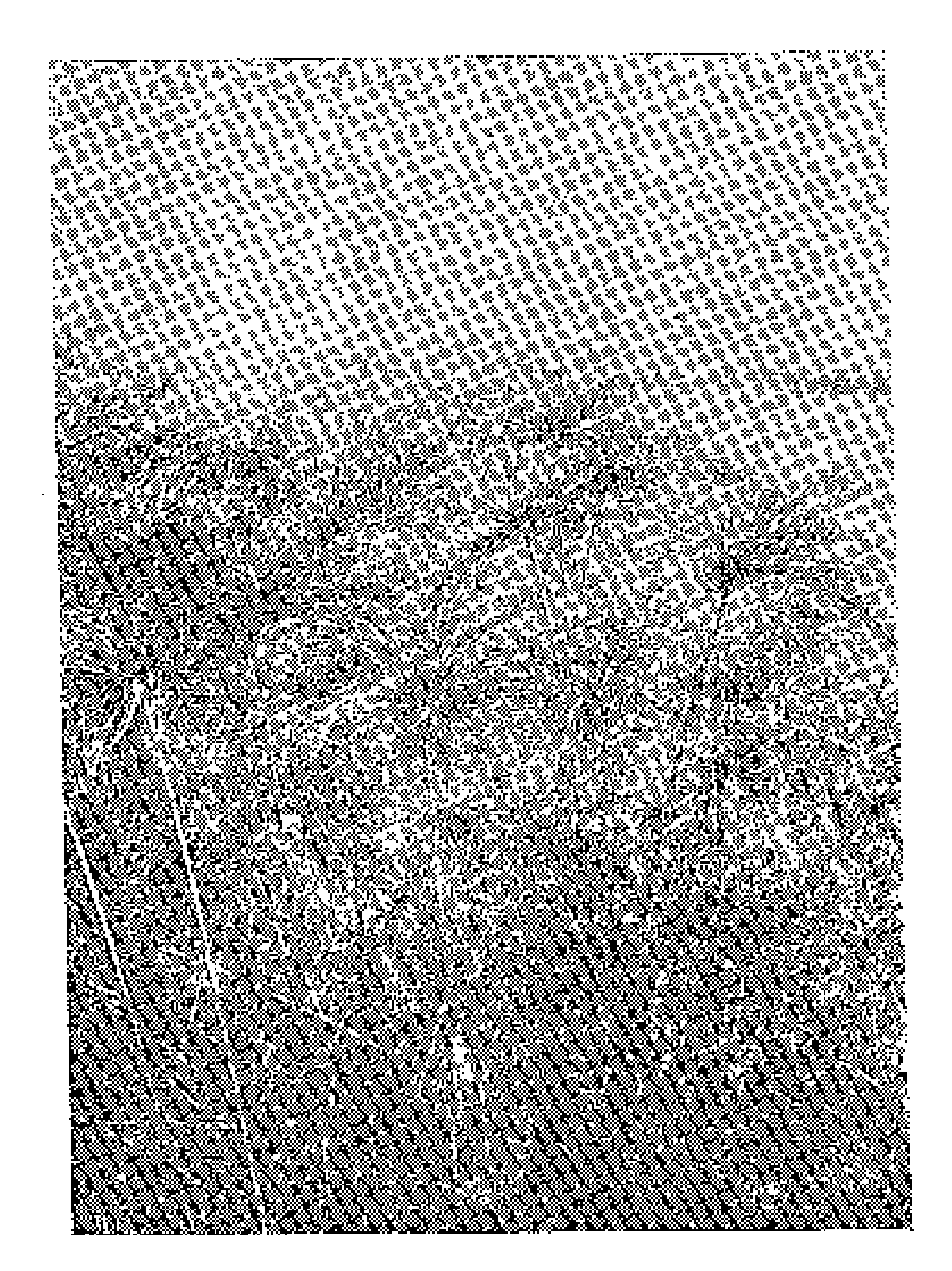
ظهر الفن فى شمال السودان ذلك الذى خلفته لنا آثار الأسرة الثانية عشر



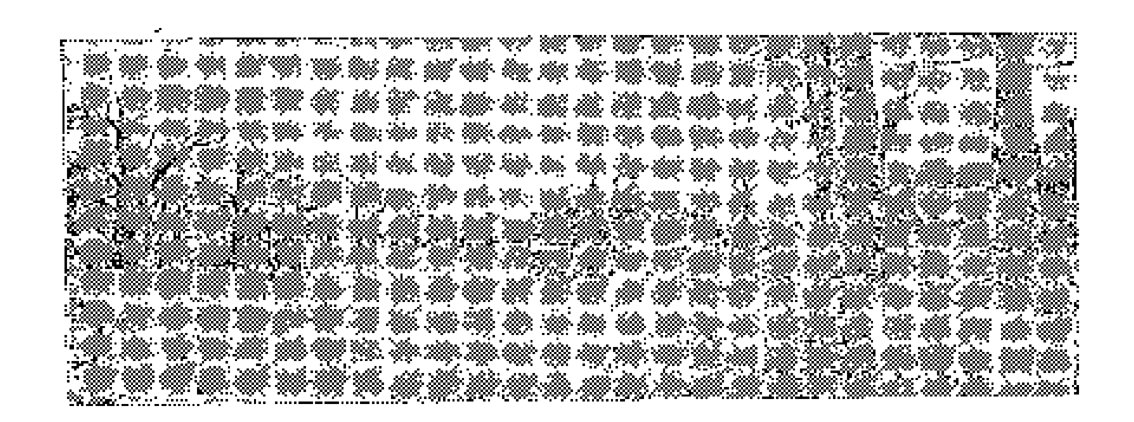
الطبيعة المتنوعة الغنية وقفت كثافتها بينها وبين الإنسان



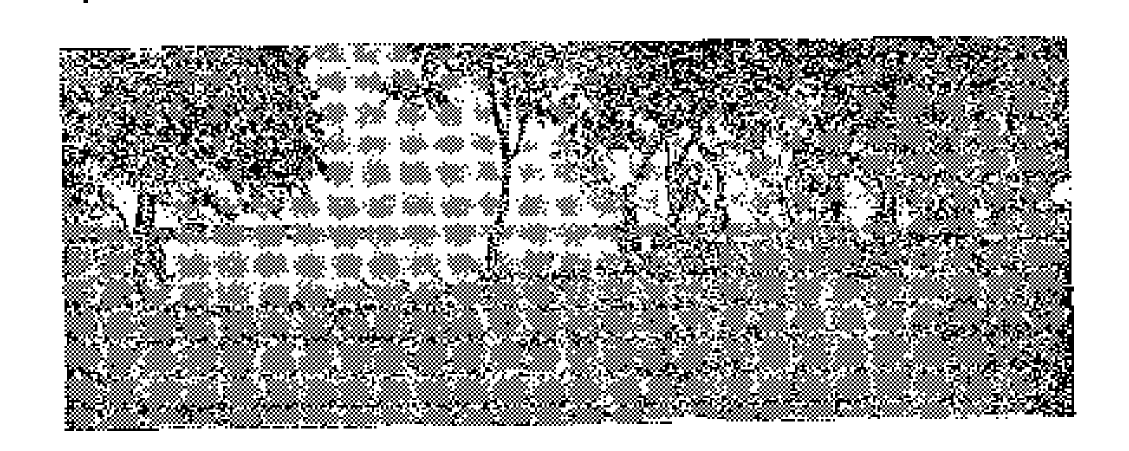
أحد ملوك مروى القديمة حيث امتدت الحضارة الفرعونية بمبانيها وفنونها داخل السودان . جمال الخطوط ودقتها تبين ما وصل إليه الآن فى منطقة مروى من جمال وروعة .



أعشاب بحر الجبل مثال لصورة أعشاب الجنوب وقف الإنسان حائراً أمامها !!



غابات النيل الازرق طيبه سهلة تختلف عن غابات الجنوب .. وفرت المرعى الماشية واتاحت للانسان ان يرتادها و يستفيد منها



الطبيعه على النيل الازرق غنيه بسيطه فى تركيبها اتاحت للانسان الذى عمرها امكانيات لا تحد

الطيبيه (٢٧٥٩ — ٢٩٦٣) ق . م وكذلك ظهرت آثار هذا الفن الفرعونى فى منطقة النوبة وأسوان قبل هذه الأسرة فى عهد الأسرة السادس الاسوانية (٣٢٩٩ — ٣٦٠٣) ق.م .

لم يظهر الفن فى السودان بظهور الحضارة الفرعونية فى القرن الأربعين قبل الميلاد إنما ظهر الفن قبل ذلك بآلاف السنين واستخدمت نفس المادة التى استمر صنع الفن منها بعد ذلك فى عصر الفراعنة ولكن ما ظهر فى هذه المنطقة هو التأثير الفرعونى وتوظيف هذا الفن لخدمة العبادات واستمان الانسان ببعض الأدوات الفنية التى تستعمل للنقش والنحت على الحجر ، أما نوع الفنون قبل التأثير الفرعونى والأغراض التى كان يستعمل من أجلها وهى لاشك و معظمها محاكاة للطبيعة وربما أغراض دينية وتقيه أيضاً لم تعثر على آثار لها ولكن مما لا شك فيه أن المجتمع على النيل داخل منطقة النوبة وجنوبها قد انتظم وعرف النظم الاجتماعية الأولى وترقى فى هذا السلوك الاجتماعى الأمر الذى أتاح له أن يجد الوقت لصنع الأشياء الجميلة وتقليد الطبيعة والكشف على مقدارته الخلاقة كما اكتشفت من قبل مقدرته على خلق مجتمع مستقر مستقر منتظم وعلى كسب القوت والسكن وحاجياته الطبيعية للحياة .

إن ما تعطينا له الآثار عن أثر الحضارة الفرعونية يجب أن لا يوقف تصورنا عن وجود آثار قديمة اندثرت بفعل الطبيعة أو بفعل الانسان أو بفعل الحضارات المتعاقبة . وعلينا أن نضع فى اعتبارنا إن الاستقرار وتنظيم الحياة المعيشية وضمان سبل العيش من العوامل المساعدة للاستقرار الذى من داخله تأتى الأشياء الخلاقة وتتفتح فى ظله المواهب الانسانية الرقيقة ويقود لتهذيب السلوك والأخلاق التى ينعكس أثرها فى الفن .

إذن هنالك فن نشأ على النيل قبل قيام الحضارة الفرعونية يختلف باختلاف

إمكانيات النيل الطبيعية وذلك بسبب ما أعطاه النيل للمجموعات التي عمرته من خيرات وعيش مضمون من زراعة وحيوانات وماء ... الخ ...

كانت الحضارة الفرعونية قفزة في حياة المجموعات التي سكنت النيل وذلك بسبب بسيط وهو تسخير كل إمكانيات الناس في أيدي فئة قليلة من الملوك والكهنة الأمر الذي أمكن استغلال كل تلك الإمكانيات البشرية لخلق الحضارة التي قامت على القسوة والسخرة على حياة الأفراد العاديين . .

عرف الفراعنة فن النحت والنقش وأبدعوا فيه وانتقل هـــذا الفن إلى السودان بعد أن وصل إلى أعلى مستوياته في عصر الأسرة الثانية عشر الطيبية قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد والتي وحدت الحياة في مصر من جديد وعادت طيبة من جديد عاصمة الدولة المصرية التي مـــدت نفوذها إلى السودان حيث اكتشف الذهب في السودان الأمر الذي حتم ضم « إثيوبيا » أي « بلاد النوبة » إلى المملكة المصرية الفرعونية وانتشار الفن الفرعوني . وقد كان الذهب من العوامل المساعدة لنقل الحضارة الفرعونية للجنوب والاحتفاظ بالأراضي التي تصل إليها وذلك من أجل المزيد من الذهب للمعابد وتماثيل الآلهة والملوك والزينة والأدوات المنزلية . .

وساعد وجود الذهب بأراضي السودان لانتقال العمال المهرة من مصر والفنيين لتنقية الذهب وصبه في سبائك ونقله إلى مصر وانتشر في السودان صناعة التماثيل الصغيرة للآلهة والحيوانات المقدسة كما أن استخراج الحديد من المعادن نشر صناعة الأواني وآلات النقش كان لأرض المعدن الغنية بالذهب أثر كبير لاهتمام المصريين بالأراضي الجنوبية .

الرقص :

يصعب تحديد نوع الرقص القديم الذي عاش على أرض السودان ولكن بعض

اللوحات الاثرية وما وجد من أثار فى مصر يستطيع ببساطة أن يعطينا صورة عن نوع الرقصات التى كانت سائدة على النيل إذا أعتبرنا أن ظروف المعيشة على النيل تكاد تكون متشابهة رغم أختلاف الظروف الاجتماعية تحت النظام الفرعونى والملكية فى أرض النوبة والنظم الأخرى المنتشرة جنوبا التى لاشك لها تأثير أيضا على الرقص ، وقد خلفت لنا الحضارة الفرعونية العديد من الرسومات مما مهد لتقديم دراسات طيبة عن حال الرقص عند المصريين ونحن سنحاول أن نقترب من تلك الدراسات واضعين فى اعتبارنا الاختلاف الذى سيطرأ نتيجة الظروف المعيشية والمناخية والاجتماعية . .

وقد أظهرت اللوحات التى وجدت بعض الرقصات لاهالى الجنوب فى النوبة والزنوج بآلاتهم الموسيقية وحركاتهم . . .

وقد ضم كتاب الرقص المصرى القديم لايرينا ليكسوفا دراسة جيدة للرقص المصرى كما تضمنت السبعة والسبعين لوحة التى جمعها الكتاب أنواع الرقص وأوضح اشتراك بعض أهل جنوب مصر فى بعض الرقصات وبعض آلاتهم الموسيقية انتشار معظم تلك الرقصات فى أرض السودان بعد أن انتقل إليه بعض الحكام المصريين فى عهد الاسرة الثانية عشر . وإذا أردنا أن ندرس الحركات التى تسيطر على الرقص على النيل فى مصر والسودان والتى مازال جزء من تلك الرقصات والحركات باقيا حتى الآن لبقاء نفس الظروف المعيشة بالنسبة لعامة الناس وهى حركات تشبه حركة الرجل الذى يحفر والذى ينظف الذره والقمح بالرياح ثم حركات الرجال على المراكب ثم حركة غرس الزرع والبذرة . .

بعض الرقصات هادىء وبعضها مثير كرقصات النساء وقد كان جميل الرقصات

يشتمل على الرقصات الاستعراضية مثل رقصات القوة ، ثم رقصات الافراح ثم رقصات الطبقات الخاصة والموائد والقصور ورقصات الزرع والحصاد والرقصات البهلوانية وكثير من هذه الرقصات كانت تفرضه الظروف الاجتماعيه لتسلية الاغنياء والمـــلوك والطبقة الخاصة التي كانت تحتفظ بالعبيد والراقصين من الجنسين . . . ثم كانت الرقصات الدينية داخل المعابد وخارج المعابد .

وقد ظهرت في بعض الصور الرقصات الزنجية ومعها الطبلة الافريقية فقد كانت إمكانيات العصر الفرعوني وبلاطه تستطيع أن تستورد كل ما تريده من أدوات اللهو والمرح وبذلك أعطت للفن المصري إمكانيات لأحد لها باستجلاب كافة الفنون والرغبات التي يرغبها أهل البلاد إلى مصر لتعيش فيه وبذلك غدت الفن المصري بفنون جديدة عليه استقاد منها شعب وادي النيل . .

أما في المناطق الأخرى البعيدة عن النيل فقد كان فنها لاشك يختلف عن فن سكان النيل نسبة لاختلاف الظروف المعيشية والبيئية إذ عادة ماتأتي رقصات الشعوب من حركات العمل أو مشابهة لها في كثير من الأحيان .

وإذا أردنا أن نجد منطقة غنية بالسكان فسوف نجد منطقة البحر الأحمر حيث سكنت قبائل مختلفة وحيث لم نجد آثارا تنبيء عن حضارة هذه المنطقة وتكشف لنا إمكانياتها السابقة إلا إننا نجـــد في بعض رقصاتهم اليوم مايساير ظروف معيشتهم في التنقل والجري وصيد الحيوانات البرية كالأرانب والطيور وحركات رقصهم في جملها تعبير عن القفص والوثب والحركة الحربية السريعة بما فيها المبارزة التي هي أحدى رقصاتهم .

الموسيقى:

عرف سكان وادى النيل مجموعة كبيرة من الآلات الموسيقية مازال كثير منها باقيا حتى الآن وقد كان للحضارة الفرعونية وما صاحبها من عبادات وثنية وطقوس دينية تحتاج الموسيقى مع وجود طبقة خاصة مرتاحة تبحث عن اللهو والمرح شجعت الفنون والموسيقى من أجل متعتها الخاصة وأتاحت خلق فن عام وفن خاص لهذه الطبقة فى مناسباتها المختلفة.

وقد انتشرت الآلات الموسيقية بأنتشار الفن، فى البلاط وفى المعابد وفى الطبقة الخاصة وفى عامة الشعب وقـــد استعملت آلات موسيقية مثل الجنك والكنارة والطنبور والجيتار، المزمار، الدف والصفقة على الايـــدى والطبول . . .

وقد أهتم بالاحتفال بالأعياد، كعيد الحصاد وفيضان النيل والاحتفالات الدينية وقد انتشرت هذه العبادات فى السودان بعد تمركز الحضارة الفرعونية فيه بعد القرن السابع والثامن قبل الميلاد وبعد أن دب الخلل فى الدولة الفرعونية وأمتدت إلية أثار حضارة جديدة من الشرق ومن شمال البحر الأبيض المتوسط وبقيام دولة نبته السودانية لتحكم السودان ومصر وتطرد عنه خطر الاشوريين والليبيين.

وقد كان لثراء مصر الفرعونية أثر كبير فى استجلاب الآلات الموسيقية من أماكن بعيدة وأحضار المواد التى لم تتوفر محليا وهذه الآلات التى كانت تستجلب ولا توجد موادها محليا كانت للخاصة والبلاط والمعابد. أما عامة الشعب فقد كانت المزامير وهى من البوص والطار المصنوع من جلود الماعز والربابة آلات يمكن صنعها من المواد المحلية بواسطة عامة الشعب . .

وقد كانت الالات الرئيسية للموسيقة قد انتشرت فى السودان كالربابة والطار والطبلة الافريقية وهى الالات التى يمكن صنعها من المواد المحلية من نباتات وحيوانات . وقد كان للطبقة الحاكمة فى نبتة ومروى نفس الفرق الموسيقى التى كانت لفراعنة مصر نسبة للامكانيات المادية ولمكانة المعابد والطقوس الدينية بجانب البلاط الملكى وأهمية هذه الطقوس الدينية التى كانت الموسيقى عنصرا هاما فيه .

فقد عرفت الطبقة الحاكمة والخاصة أنواعا شتى من الفنون و الموسيقى والرقص لم تكن متاحة لبقية سكان النيل كما كانت للمعابد موسيقاها الخاصة والاعياد التى حافظ حكام السودان عليها فى ظل الحضارة الفرعونية على التمسك بها مثل تقديس النيل وأعياد الحصاد والفيضان والافراح وهى عادات ماذالت أثارها باقية حتى اليوم .

العمارة :

كثيرون يسألون عن حضارة السودان وأثارها بعد منطقة البركل شمال السودان فلا يجدون إلا بعض الاثار البسيطة التى لاتفيد كثيرا ولاتعطى صورة حقيقية عن نهضة تلك الحضارة. وقد فات على البعض عن إمكانيات الطبيعة ومواردها لحفظ أثار تلك الحضارة .

فقد اختصت المنطقة الشمالية من السودان بنوع خاص من الاحجار صالح لبناء المعابد والقصور والاهرامات لاتؤثر فيه الطبيعة من رياح وأمطار ولا تتآكل سريعا بفعل العوامل الطبيعية الامر الذى ابقى لشمال السودان الكثير من أثار تلك الحضارة رغم عبث الناس وتحطيمها بواسطة الأفراد والجماعات وإستغلال تلك الاثار لاغراض كثيرة عبر التاريخ أما المنطقة التى تقع جنوب مملكة سوبا

المسيحية قرب ملتقى النيلين حيث قامت حضارة وعمارة عظيمة لم تترك لنا الايام منها الا بعض الاثار البسيطة فيرجع ذلك إلى المواد التى لا تستطيع أن تحافظ على نفسها الاف السنين لان معظم العمارة التى شيدت فى مروى وسوبه المسيحية كانت مصنوعة من اللبن والاحجار التى لاتحتمل تغيرات الطبيعة من رياح وامطار وجفاف لتبقى آلالف السنين .

ونحن إذا حاولنا أن نبحث عن إمكانيات هاتين المنطقتين مروى القديمة وسوبه المسيحية لنجد الطبيعة هنا أغنى من شمال السودان حيث هنا الأراضى الزراعية أكبر مساحة وأخصب والمراعى لاحدود لها الأمر الذى اتاح لهاتين المنطقتين من الخيرات الطبيعية من نباتية وحيوانية ماجعلها غنية تنفصل عن شمال الوادى وتجلب منه ما تريد . إلا أن مناخ هذه المنطقة كان له أثر مباشر فى اندثار آثار تلك الحضارة التى قامت فى منطقة الخرطوم وسوبة .

* * *

الآلهة عند الفرس

كان الفرس يتبعون عادات وتقاليد أعرف منها ما يلي : — لم يكن لديهم أية صورة أو تماثيل للآلهة ولا معابد ولا مذابح — إذ كانوا يعتبرون استعمالها علامة من علامات الحماقة . وأظن هذا راجع إلى عدم اعتقادهم بأن طبيعة الآلهة من طبيعة البشر ، كما كان يتصور الاغريق ، ومع ذلك كان من عادتهم يصعدوا إلى قمم الجبال ويقدموا الذبائح لجوبتر وهو الاسم الذى يطلقونه على المجموعة الكونية كلها كما كان من عادتهم أيضا أن يقدموا الذبائح للشمس وللقمر وللارض وللنار والماء وللريح . هذه فقط هي الالهة التي توارثوا عبادتها من اسلافهم منذ أقدم العصور الغابرة .

أعظم يوم يحتفلون به هو يوم عيد ميلادهم من بين أيام السنة .

ذكرنا هذا لاتصال حضارة الفرس بالحضارة الفرعونية بعد أن وهنت الأخيرة وخرج ملوك السودان في القرن الثامن الميلادى من منطقة البركل لصد أثر الفرس عن مصر وعدم احترامهم لديانة الفراعنة التي هي ديانة ملوك نبته إلا إن بعد عاصمة دولة نبته عن طيبة وحدود الفرس حال دون استمرار انتصار دولة نبته العظيمة ووقف خطرها على عبادات وادى النيل حيث حاولوا الاستهجان بها وعدم تقديرها واحترامها بعد ما دخلوا مصر .

هيرودوت

تأليف أ . ج أيفانز

جولة فى متحف الآثار المصرية

« المقابر الملكية بجهتى بلانه وقسطل ببلاد النوبة »

(العصر البيزنطى)

فى عام ١٩٣١ قرر أعضاء بعثة مقابر بلاد النوبة تحت إشراف مستر أمرى أن يفحصوا بالتفصيل الكثبان الكبيرة الممتدة على جانبى النيل بالقرب من قريتى بلانه وقسطل على بضعة أميال إلى الجنوب من أبى سمبل وشمال حدود السودان مباشرة . وقد تبين أنها كانت تغطى مقابر العصر البيزنطى وتشبه ما سبق العثور عليه فى سماى وفركه ووادى وجزيرة ساى وكلها فى السودان إلى الجنوب من وادى حلفا . وهذه المقابر محفورة فى الرواسب الغرينية وتتكون من طريق طويل منحدر طويل يؤدى إلى حفرة كبيرة بنيت فيها حجرات من اللبن الاجر .

وعندما كان يوضع الملك أو الأمير المتوفى الذى من أجله أقيمت المقبرة فى حجرة الدفن وعليه ملابس من الجلد كانت تودع أمتعته الشخصية والأطعمة والنبيذ فى غرفة مجاورة ثم يغلق الباب الخشبى المكسو بلوحات كبيرة من البرونز مسمرة عليه ثم يختم ويبنى عليه جدار من اللبن .

وكان يؤتى بخيول صاحب المقبرة إلى هذا الطريق المنحدر وقد طهمت بسروج رائعة واقمم من الفضة (توجد تماثيل لهذه الخيول رأيتها محفوظة ليست للعرض الآن) وعدد مزركشة بألوان تختلف بين الأحمر والأزرق ثم تقتل فى مكانها بضربات الفئوس (وفى الخزانات فأسان منها) وتدفن اتراق سيدها

فى الآخره وعلى مقربة من هذا المكان دفن العبيد والخدم بعد خنقهم بحبال معقودة وهؤلاء أيضاً كان يراد بهم خدمة سيدهم بعد الموت وفضلا عن الخيول فقد عثر على طائفة أخرى كبيرة من الحيوانات كالجمال والأبقار والحمير كما عثر كذلك على سلحفاة وقد ضحيت جميعها لنفس الغرض .

أما الكثبان التى أهيلت وسط المقبرة فتتكون من كميات هائلة من أتربة نقلت من الجهات المجاورة ويختلف حجمها تبعاً لأهمية المتوفى وقد بلغ ارتفاع بعضها إثنى عشر متراً ... وفى هذه الكثبان عثر على عدد من الآثار الهامة المعروضة بالمتحف ومن بينها الصندوق المزين بألواح من العاج ورقعة اللعب والدروع والحراب وبعض قطع فريدة من الحلى كالأقراط المصنوعة من الفضة وحجر الجمشت والاساور الفضية المرصعة بأحجار نصف كريمة .

الملاحظـــة

١ — يوجد أوان ومباخر من الفضة من ضمن الآثار المسيحية التى يرجح أنها نهبت من الكنائس)

٢ — إناء من الفضة عليه رسوم يمام (أو نعام وأسماك ويبدو أنها رموز مسيحية نهبت من أحد الكنائس .

٣ — صحن من الفضة صور الإلهة (أبوللو هومس تحيط به رموز خاصة بمعبودات أخرى منها امكيريوس وهرقل ومارس وديونيسوس وفولكان . تبين أثر الفن الأغريقى والرومانى .

صورة أبوللو ممسكا بيـــده عصا مزركشه ويعد قطعة من التفاح أبو النضـح

إلى الثعبان أمامه وعلى شماله الفرس المجنح ذو المنقار والأرجل الحيوانية والمعز. وفأس ومقبض ووجه أسد فى شكل تجريدى .

٣ — مباخر وموائد صغيرة وملقط شمع وقطعة على هيئة صقر وجوه الحيوانات على شكل غريب مرعب الأوانى غاية فى الدقة والترف . . وخنجر على شكل ثمرة الاناناس .

٨ — (١) قطع من البرونز والعاج والفضة وألواح من العاج فى صناديق ..

ملاحظة :

العاج يظهر فيه أثر الفن الافريقى .

(٢) إصلال من الفضة من تاج ملكى وزرار وأقراص من الفضة كانت تزين ملابس من الجلد .

توجد قطع حديدية على شكل فأس وأسوده .

وليس هنالك ما يدل على حقيقة هؤلاء القوم إذ لم يعثر فى مقابرهم إلا على النادر القليل من الكتابات ويرى على كثير من جرار النبيذ الكبيرة والأوانى المعدنية بضع كلمات باليونانية وربما كانت هذه الأوانى مستورده من الإسكندرية وقد عثر على رمح من الحديد وإناء عليها نقوش مقتضبة جداً بالخط المروى ذى الخطوط المستقيمة كما أن الكثير من الأوانى الفخارية والأشكال من الأشكال التى تتميز بها المملكة المروية وإذا أضفنا ذلك إلى أن هذه الطرز لم يعثر على مثيل لها شمال قسطل لاستنتجنا بأن هؤلاء القوم كانوا على صلات وثيقة بمروى .

ويظهر أن أهالى بلانة وقسطل استمروا دهرا طويلا بعد دخول المسيحية إلى

مصر وهم يعبدون المعبودات المصرية كحورس وايزيس وأوزيس كما أن بعض الالهة المختلطة وجدت مرسومة بكثرة على احناء السروج وأرجاء الفضة .

وقد أمدتنا هذه المقابر بكمية وافرة من الاثار مختلفة الاثار مختلفة الانواع وقد عرض منها مجموعة كبيرة كاملة التمثيل ولعل أجدرها بالملاحظة ذلك الصندوق المزخرف بلوحات عاجية عليها صور لاتكاد توارى فى دقة وتهذيب — وتلك التيجان الفضية المرصعة بأحجار حسنة الصنع ثم الطوق الفضى ذا النقوش البارزة واللجم الفضية الخاصة بالأجنة ووقايات أيدى الرماة ثم الاثار المخروطية الشكل وهى أن كانت ذات صلة بالرماية إلا أن طريقة استعمالها مازالت غير معروفة ومما هو جدير بالذكر أن بعض القطع البرونزية عليها شارات مسيحية وهى أما أن تكون قد سلبت أو أشتريت من الشعائر المسيحية أو الكنائس ويلاحظ أن من بين المنسوجات عينات صنعت من الحرير .

ويرى على كثير من الجثث آثار واضحة لاصابات حصلت فى ميدان القتال ويشبه أشراف بلانه وقسطل الزنوج إلى حد كبير وإن لم يكونوا من الزنوج فهلا — أما خدمهم وعبيدهم فكانوا من أجناس نوبية مختلطة ، وخلاصة الاحتمالات أن هذه الجهات كانت لجنس من النهابين الميالين للقتال يعرفون بالبليميين الذين كانوا حتى القرن الثالث بعد الميلاد لايزالون تحت سيطرة مروى .

وقد هاجم البليميون الحدود الرومانية أول مرة عند أسوان عام ٢٥٠ م ثم مرة ثانية ٢٦١ م ثم عادوا عام ٢٦٨ م فاجتاحوا مصر حتى وصلوا إلى كيتوس فقط وبتلمايس .

وقـــد دعا الامبراطور دقلد يانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) بعض قبائل النوبة (النوباديون) الذين كانوا يقطنون الصحراء الغربية ليستوطنوا فيها بين بـــلاد

البليميين وأملاك روما وبالرغم من هذه الحيطة فان البليميين احتاجوا الواحة الخارجة حتى عام ٤٢٩م ويظهر ان طرد البليميين النهائى حدث فى أواسط القرن السادس عندما اجتاح سلكوا ملك النوباديين الذى كانوا قد اعتنقوا المسيحية إذ ذاك بلاد البليميين ومن بعد ذلك لم يذكر التاريخ عنهم شيئا .

وقد قام مستر امرى بالنشر عن هذه المقابر ووصف أقوام البليميين فى مؤلفة To. Entery The Royal Tomps of Bauana and Bustol

(وهو الكتاب المطبوع بالمطبعة الأميرية بدلان (بعثة حفائر بلاد النوبة ٢٩ — ٣٤) .

٢٩) أكواب وجرار وقوارير من الفخار بعضها ملون وبعضها على زخارف مسارح وأباريق وأوان واوعية للطرح وحوامل — ويسهل ملاحظة ماقى الكثير منها من تأثير الفن المصرى القديم على الفن اليونانى والرومانى .

تمثال من البرونز يشبه كوبين . أغريقى الفن — تمثال من البرونز يمثل إليه يحمل شمعتان.

١٥ — جلب لحفظ السهام وبقايا حقيبة للحلى وأدوات للزينة ومنها تفلها وقطع ملابس ونعال وأجزاء من لجام وكلها من الجلد — ثم قطع من سلال من القش وخرز منضود فى خيوطة الاصلية ونموذج من الحجر الرملى لمائدة قربان من الطراز المروى .

١٦ — نماذج من الاقمشة المختلفة والحبال التى كانت تستعمل فى اطقم الخيل . ملاحظة النسيج ممتاز ودقيق . . . وسميك . . وبعض أنواع الشمل . . من صوف الماعز والضأن وخلافه كانت تستعمل لكساء الحيوان . . .

والانسان . الاقمشة تشبه لحد كبير نوع الاقمشة هـــذة الايام رغم جوده صنع القديم .

١ — الفخار كبير . . تستعمل الماء وحفظ الاشياء . . فى شكل برام وحلل وزجاجة . . وغيره . . يوجد من نفس النوع مصنوع من النحاس والبرونز من والفضة .

١ — أدوات الزينة موجودة . . وقد عثر معها على أصباغ الوجه .

ودلاية (مقبض) من الحديد من الطراز الرومانى أمشاط من العاج الملون على زهرة . . دقيقة الإسنان . . ومكحلة من الخشب على هيئة الالهة . (رع) وجه قريب من وجه البومة .

لوحة للعب مطعمة بالعاج وزواياها ملبسة بالفضة وجدت فى الركام فى الكوم الذى يعلو المقبرة وكان باسفله حقيبة من الجلد بها قطع اللعب والزهر .

المعادن المختلفة التى استغلت فى صناعة هذه الأدوات تكشف لنا إمكانيات تلك الحضارة ومقدرة الأنسان جنوب نهر عطبره لاستخراج المعادن وتوظيفها فى حاجيات الحياة اليومية .

شواهد شكلها

موائد وقرابين

من العهد المروى

هـــذه الموائد كانت توضع عند مدخل المقابر وكلها تقريبا مستطيلة الشكل وبأحد جوانبها بروز به قناة تنصب منها السوائل أما فى الوسط فيغلب أن تكون عليها رسوم أوان خبز منقوشة نقشا بارزا وكذا بعض مناظر من الاساطير المصرية أما الكتابة التى حولها فتبدأ دائما بدعاء موجه إلى أحد الالهة إزيس أو يا أوزريس ثم بعد ذلك أسم المتوفى وأوصافه وتكتب بعبارة الترحم عليه . ويذكر فى أوصافه أنه كان طيب كريم الأصل . . . الخ . . ويلحق غالبا باسماء والديه .

ملحوظـــة :

وربما بمزيد من الاكتشافات التى تجرى فى منطقة مروى القديمة جنوب نهر عطبره نستطيع أن نعثر على المزيد من الوثائق والآثار التى يمكن أن تعطينا صورة كاملة عن تلك الحضارة التى قامت جنوب نهر عطبره وتكشف لنا عن حدودها جنوبا ومدى سيطرتها وعلاقتها بالقبائل التى سكنت أرض الجزيرة وقبائل الشلك خاصة والمجموعات الأخرى التى سكنت السهول

حضارة السودان الفرعونية

رغم قلة المعلومات لدينا عن حالة الحضارة قبل دخول السودان تحت تأثير الحضارة الفرعونية فى عصر الأسرة السادسة الاسوانية (٢٦٠٢ — ٢٣٩٢) ق.م. بانتقال السلطة فى الوجه البحرى إلى الوجه القبلى إلا أننا بتطور حالة المجتمع على أرض النيل وما وصل الينا من رقى يمكن لنا أن نقيس حالة المجتمع جنوب مصر من جراء تشابه الظروف الطبيعية والاجتماعية .

فالمجتمع هنا زراعى كما فى الشمال .. مجتمع مستقر تطور من المجموعات الصغيرة إلى الممالك الكبيرة ...

فقد عرف سكان السودان الحكم النظامى شبيه بالنظام الملكى فى مصر إلا أن .. تدخل كهنة الدين الملكى فى مصر جعل إمكانيات وطاقة شعب مصر فى يد الكهنة والملك حتى تطور ذلك النظام باستغلاله لطاقة شعب مصر إلى أقصى إمكانيات الاستغلال ، حتى تطور ذلك المجتمع من الوجه الحضارى فى استغلال إمكانيات شعب مصر لبناء السفن والعمارة وخضوع هذا الشعب لسلطة ورهبة الكهنة الأمر الذى لم يعرف فى السودان حيث لم يصل الدين إلى ما وصل إليه كهنة آمون .

باستقلال الناس فى السودان عن سلطة الكهنة وبذلك وتحرر إمكانياتهم من سيطرة الملك ، جعل المجتمع السودانى على النيل جنوب الحضارة المصرية مجتمع ممالك ، أقل ثروة ، وأقل سيطرة على أفكار الناس حيث كان يعتمد النظام المصرى على السيطرة الروحية ، وتقديس الكهنة ، ثم الملك مما خلق طبقة معينة ، منفردة بالحكم لم يحد من قوتها إلا بتوسع مصر ، وتوسع أعوانها بخلق جيش عظيم هو جزء من السلطة حتى وصل الشعب فى بعض الظروف إلى حالة التجنيد

واجبارى ، وبذلك استطاع أن ينتقل من حالة العبودية والطاعة والاستغلال إلى مستوى الجندى المحترم المنطوى تحت نفوذ القصر والمعبد .

ولبعد المجتمع السودانى من هذا التركيب الاجتماعى ، وتحالف القصر والمعبد عاش النظام الأول للملكية فى السودان باحترام جميع الافراد فى التجارة والملكية والعبادة حتى ظهرت الحضارة الفرعونية جنوب النوبة فى عهد الاسرة السادسة السودانية ، ومحاولتها اخضاع أراضى النوبة وضمها اليها ، أو الاستيلاء على خيراتها وعمالها ، لبناء الحضارة الفرعونية الجديدة ، التى كانت فى حاجة إلى كل يد عاملة ، وإلى كل امكانيات مادية لتمتد هذا العمل الذى خلده النيل .

فقد غار حكام الوجه القبلى على أرض النوبة ، وزنوج السودان وبعدرا أنهم توغلوا بعيدا عن أرض النوبة وكرمه لحاجتهم للعمال وخيرات النيل بعد انشقاق الدولة إلى قسمين ومحاولة مملكة الوجه القبلى (أسوان) أن بسط نفوذها على كل الممالك التى حواليها وإخضاعها لسيطرتها وليس هنالك مجال لبسط نفوذهم غير جنوب النيل ولذلك كان طبيعيا أن يمدون نفوذهم إلى الجنوب ويستولوا ويخضعوا الممالك السودانية التى كانت قائمة على أرض النيل .

ولنا أن نتساءل هل كان هذا الاخضاع إدارى فقط ، أم أنه امتد إلى اخضاع حضارى بأدخال العادات والعبادات الفرعونية على الاراضى الجديدة . . . . وهذا كان يتوقف على نوع السلطة الادارية التى أقامها حكام أسوان على جنوب النيل . .

ونحن لانعرف على وجه التحديد هل أنابوا عنهم فى هذه المناطق الحكام المحليين أم فرضوا على تلك الممالك حكاماً مصريين ، عن طريقهم يمكن أن تدخل مظاهر الحضارة الفرعونية مما لاشك فيه فى الحالتين أن سكان السودان

عرفوا بعض العادات والتقاليد الفرعونية من جراء حملات الجيوش المصرية وبقاءها مدة طويلة لاخضاع جزء كبير من أرض السودان كانت فى أثنائه تؤدى الشعائر والعادات المصرية كما إن إستجلاب عدد كبير من السكان المحليين إلى مصر ليعملوا فى الجندية أو كعبيد والاستفادة منهم فى أوجه النشاط العمرانى المختلف قد شجع هؤلاء بالتقاليد والعادات والديانات الفرعونية التى بدورهم كانوا سفراء فى نقلها إلى الجنوب بما فى ذلك العلوم والفنون والعبادات والتقاليد .

أننا يجب أن ننظر إلى هذه الفترة من التاريخ بفترة مليئة بالحركة والنشاط والتوسع حتى يمكن لنا أن نتصور حالة المجتمع القديم.

وقد خضعت أرض النوبة مرة أخرى فى عصر الأسرة الثانية عشر الطيبية (٢٩٦٣ – ٢٧٥٠) ق م ويبدو فى هذا العصر ظهرت دولة أثيوبيا عند الشلال الرابع ويبدو أن مملكة أثيوبيا كانت قائمة منذ قديم الزمن ، ألا أن سيطرة الأسرة السادسة لم تصل إليها .. ويبدو أن هذه المملكة الاثيوبية كانت تبسط نفوذها على الاراضى جنوب أبى حمد وكانت غنية وكانت ذات صلات تجارية فى حاصلات السودان مع مصر مما شجعها بآثار الحضارة الفرعونية ، ومصنوعاتها حتى جاء زمن كانت فيه هذه المملكة وريثة للحضارة الفرعونية لما لها من إستعداد وتقبل ومالها من امكانيات ونفوذ على أراضى شاسعة .

وقد ظلت أرض النوبة متمردة على مر الزمن على النفوذ الفرعونى ويعزى ذلك لارفض هذه الشعوب للعادات والحضارة الفرعونية ولكن لما كان يفرض عليها من ضرائب والتزامات من جانب تلك الدولة المتوسعة القوية وهذا يكشف لنا انفراد السلطات المحلية بالحكم وعدم توظيف حكام مصريين على هذه الشعوب مما جعل تمردها سهلا . . . ولكن امتداد الحدود المصرية حتى حلفـــا فى

عهد الاسرة السابعة عشر الطيبية (١٩٨٣ - ١٧٠٣) ق : م . . . . .

فقد وصلت الجيوش المصرية حتى المملكة الاثيوبية عند الشلال الرابع .. وعا يجعلنا نعتقد بقيام الدولة الأثيوبية فى زمن بعيد هو محاولة ممالك الوجه البحرى الفرعونية أن يصلوا إليها ويستولوا على خيراتها ...فزواج (امونزيس) ١٧٠٣ ق . م من إبنه ملك إثيوبيا يدلنا على إن هذه المملكة كانت قائمة وكان لها شأن عظيم كما إن هذا الزواج كان يعبر عن تشابه التقاليد الاثيوبيه والمصرية حتى سمح بزواج هذا الملك من تلك الاسرة المالكة عند الشلال الرابع وهذا يكشف لنا أيضا انتقال الديانات والعلوم والفنون الفرعونية لهذه المملكة فى عصر قديم .. وربما تمكن هناك بعض الدماء المصريه فى هذه الأسرة وربما لاتكن ولكن هذه الدولة الأثيوبية كانت صديقة حميمة لدولة طيبة وعبادة أمون والحفاظ على عبادة الآلهة المصرية حتى كان عهد الاسرة الحادية والعشرين(١١١٠-٩٨٠ق م) وتوحدت دولة طيبة وأثيوبيا ومدت نفوذها حتى سنار والحبشة ناقلة مظاهر الحضارة الفرعونية إلى تلك المناطق .. وهذا يفسر لنا قوة شأن هذه المملكة التى لم تصل إلينا وثائق تكشف عن إخبار ملوكها وحضارتها إلا إنها كانت ذات علاقات طيبة بملوك طيبة :

من هذا الرد تكشف لنا الحقائق التاريخية أن دولة أثيوبيا كانت قائمة قبل ثلاثة ألف سنة قبل الميلاد ولكن أخبار هذه المملكة لم تصل الينا وتكاد لانعرف شيء عن حياتها الداخلية وحضارتها الا فى القرن الثامن قبل الميلاد بظهور ملوك عظام استغلوا ضعف الحالة فى مصر فبسطوا نفوذهم شمالا إلى فلسطين وبلاد فارس :

(٥٠٠٤ - ٣٠٦٤) ق : م (الاسرة الأولى إلى العاشرة):

(١) الاسرة الاولى حكمت ٢٥٣ عاماً (الاسره الطيفية ٩ ملوك)

أول حكومة ملكية حكمت مصر بعد الكهنة .

أول ملوكها مينا : قال تحوت الكهنة .. أسس القوانين والشرائع ظهر فى عهده علم الجراحة والتاريخ بواسطة الملك (تيتا بن مينا) أشهر ملوك هذه الحقبة

الأسرة الثانية الطيبية (٤٧٥١ - ٤٣٤٩) ق م

أول ملك : بيسار

خلفه كاكاو .. وعمم عبادة العجل « أبيس » :

بينوتيرس : أول من سن القوانين وأباح للنساء تولى الملك

زعم أن الملك نائب الآلهة وابن الشمس .. ظهرت عبادة المصريين لملوكهم درجة تصل إلى الألوهية :

الأسرة الثالثة المنفية ٤٣٤١ - ٤١٣٥ ق م (المنفية) نسبة إلى مدينة منف

أول ملوكها نخروفيس : حارب الليبيين

خلفه توزرترس - كان عالما بالطب وكتب فيه وذهب بفن قطع الاحجار ونحتها حد الكمال

آخر ملوك هذه الاسرة سنفرو « أول فرعون » وجدت له آثار .. ظهر فى عهد هذه الاسرة تمثال أبو الهول فى الجيزه وهو تمثال حيوان ضخم له جسم أسد ورأس انسان أشارة إلى القوة والعقل :

الاسرة الرابعة المنفية (٤١٣٥ - ٣٨٥٠) ق م

تحسنت أحوال الادارة والتنظيم فى عهد هذه الاسرة .. أوقفوا هجماتهم على عرب الصحراء الشرقية والليبيه واهتموا بالاصلاح الداخلى .. توسعت المملكة شرقاً واستولت إلى محيرات أراضى سينا

أعظم ملوك هذه الاسرة خوفو أو خيوبس الذى بنى الهرم الاكبر فى الجيزة وسماه خوت .. ويقال أنه سخر المصريين فى بنائه ثلاثون عاما — كان يستخدم منهم كل ثلاثة أشهر حوالى ألف شخص

وتولى أيضاً فى عهد هذه الاسرة « خفرع » أو « الفرن » . .

كان عهد هذه الاسرة قاسيا على الرعية فى تسخيرهم لتشيد هذه المبانى الضخمة مما قاد لموت الكثيرين وغضب الشعب .. وبلغ الغضب الشعبى ضد هذه المملكة أن الجماهير بعد أن ضاقت بالتسخير أن أخرجت جثتى هذين الملكين وحطموا تابوتيهما .

وجاء بعد ذلك منقرع بانى الهرم الاصغر المجاور الهرمى «خوفو» و«خفرع» وقد سماه «حور» أى الأعلى وكان عادلا رحيما بالرعية . فأباح للناس التفرغ لشئونهم الخاصة بعد عهد السخرة التى عمت فى عهدى « خوفو » و « خفرع » ... وارتقى الفن والنحت والعمارة فى عهد هذه الاسرة شأوا بعيدا .

<u>الأسرة الخامسة المنفية (٢٨٥٠ - ٢٦٠٢) ق م</u>

أول ملوكها اسكاف .. كان محباً للعلم وعطوفاً على الرعية . سن لها القوانين وبعده « نفرار كارع » ومن أشهر آثار هذه الحقبة الآثار التى وجدت فى مقبرة سقارة وقد بنى هذه المقبرة « تى » صهر الملك عنوسر سابع ملوك هذه الاسرة وقد اهتمت هذه الاسرة بالحياة الداخليه وقل نشاطها الخارجى مما قلل دخلها وانحط فى نهايتها الفن لانشغال الناس بأعمالهم وعودتهم لحياتهم الطبيعية بعد حياة التجنيد والتسخير .

الأسرة السادسة الاسوانيه (٢٦٠٢ — ٢٣٩٩) : ق م

ظهور النوبة فى التاريخ القديم :

ظهر إسم النوبة لاول مرة فى عهد هذه الأسرات وبذلك يمكن أن تؤرخ دخول أرض النوبة والسودان بخضوعها للآثار الفرعونية والعبادات والفنون من هذا التاريخ . . ولاشك أن هذا التدرج الذى قاد الأسر الفرعونية من الشمال إلى الجنوب جاء بعد صراع مرير وأخضاع لتلك المنطقة الجنوبية فقد إشتركت شعوب جنوب منطقة أسوان (النوبة) فى عمارة الأسرة الرابعة والخامسة واستخدم سكان تلك المناطق كعمال لبناء الاهرامات والمعابد لحاجة العمران للأيدى العاملة . ويبدو أن شعوب أرض سيناء وليبيا قد تمرسوا على القتال وأصبحوا فى حالة طبيعية للدفاع عن أراضيهم . . . ولاشك أن تأثير الحضارة على شعوب شمال النيل والدلتا والتجارة بين شعوبهم قد أثرت فى تنظيم الادارة فى جنوب النيل . ورغم أننا لم نتحصل على وثائق تثبت حالة الادارة فى أرض النوبة والسودان قبل هذا التاريخ إلا أن التدرج الطبيعى للحياة الاجتماعية المستقرة على النيل قد خلق نظاماً اداريا يكفل الأمن والنظام بين شعوب النيل جنوب أسوان . . فقد انتقلت تلك الشعوب من حياة الافراد إلى المجموعات فى الممالك الصغيرة التى نشأت على النيل وسارت فى نظامها الادارى الملكى بخلاف ما كان فى شمال الوادى حيث لم تخضع هذه الشعوب للآلهة والكهنة مثل ما خضعت شعوب الدلتا ووسط مصر .

فى عهد الأسرة الاسوانيه انقسمت مصر إلى قسمين الدلتا يحكمها ملك من منف والصعيد ويحكمه أول ملك من الأسرة الأسوانية . . ويبدو إن مملكة الصعيد كانت اقوى من مملكة الدلتا للفتوحات الجديدة التى خطتها فى أراضى النوبه والسودان والخيرات الكثيرة التى جاءت إليهما حتى تمكنت الأسرة

الأسوانية في عهد « بيتي مريترع » ووحد المملكتين الدنيا وأسوان وجعل العاصمة أسوان وبذلك إنتقلت تلك الحضارة إلى الجنوب وانفتح بذلك السودان لمؤثرات الحضارة الفرعونية في عهد هذه الأسرة وأكتشفت المعادن في السودان في هذه الفترة وجاء بعد « مريترع » الملك فيوبس » الذى حدثت في عهده ثورات كثيرة منها تمرد النوبة والزنوج . . ويبدو أن هذا العهد توسع الملك في الشمال بعيدا داخل أراضي السودان لذكر إسم « الزنوج » بجانب النوبه في هذه الفترة . ثم خلفه « مريترع » الثانى ثم خلفته أخته « نيتوفريس » ذات الحسن والجمال كما قال « مانيتون » المؤرخ الاغريقي .

الأسرة السابعة إلى العاشرة (٣٢٩٩ – ٣٠٠٦٣) ق . م

حكمت هذة الفترة أسرتان من منف والأسرتان الأهناسيتان بعد إنقراض — الأسرة السادسة الأسوانية ويبدو أن تمرد الجنوب وإسترداده لسلطته إضعف إسرة أسوان مما جعل إسرة منف تعود للسلطة من جديد وتنقل العاصمة من أسوان إلى (إهناس) وفي هذه الفترة بعد أن خضع السودان والنوبة للمؤثرات الحضاريه الفرعونيه وتمكن من الأستقلال عنهـــا خضع لاشك للديانات المصرية والحضاره الفرعونية بعد إن فرضت عليه في عهد الأسرة الاسوانيه .

الأسرة الحادية عشر الطيبيه (٣٠٦٤ ٢٩٦٣) ق م

يبدو اهتزاز الملك بين الأسرات السابقة وانتقال السلطة وإنشقاق الدولة وانتقالها لأسوان ثم إلى إهناس كان في عهد وصلت فيه السلطة المصرية دورا من التدهور مما قاد إلى هذا التغير السريع والتنقل . . وإذا كان هذا التنقل

وهذا الانشقاق قد كان كارثه على الدولة المصرية لكنه كان له فضله على الجنوب فى دخوله تحت تأثير هذه الحضاره فى عهد الأسرة الاسوانيه التى نقلت الحضاره للجنوب والنوبه والسودان . . حتى بات السودان بعد إنتقال السلطة للشمال مرة أخرى ذات سيادة وحضارة ذات طابع فرعونى مستقلة كل الاستقلال ولا يمكن أن يكون لتلك الحضارة التى انتقلت للسودان فى عهد الأسرة الأسوانيه من رقى ما كان فى الدلتا ووسط مصر ولكنه كان بلاشك بدايه جديده فى الرقى والحضاره والتفكير الدينى ونظام الدولة .

ويمكن لنا أن نؤرخ تلك الفترة بفترة النهضة الاولى التى حدثت بعد إنتقال الاسرة من أسوان وإنعزال تلك الحضارة عن الشمال .

وبعد إنتقال الحكم فى الجنوب إلى الشمال مرة أخرى بدأت الحياة تدب فى الدولة المصريه مرة أخرى فى عهد الأسرة الطيبيه (نسبة إلى طيبه) وظهر فى عهد هذه الاسره « منتوحتب » الرابع الذى نزع الدلتا من ملوك أهناس ووحد مصر تحت سيطرته وعمر البلاد ووسع مملكته حتى سيناء وفلسطين ثم جاء بعده ملوك لم يكن لهم شأن يذكر . انحصرت على يديهم اصلاحات هذا الملك .

الأسرة الثانية عشر الطيبيه (٢٩٦٣ — ٢٧٥٠) ق م

وفى عهد هذه الأسرة التى حكمت مائة وثلاثة عشر عاماً عادت لمصر مرة أخرى وحدتها وعادت طيبه مرة أخرى عاصمة الدولة الموحدة .

وبعد أن استتب النظام لهذه المملكة الطيبيه ووحدت السلطة الداخليه ورأت المستعمرات القديمة التى تمرد عليها فكرت فى اعادة أرض (النوبة وأثيوبيا)

مرة أخرى . وقد ظهر اسم أثيوبيا هنا لأول مرة وقد كان يقصد به جنوب النوبه . . . فقد كانت النوبة وأثيوبيا وبونه تطلق على الأرض جنوب مصر .

وقد خضع السودان مرة أخرى لسلطة هذه الدولة الطيبيه ويبدو هذه المرة أن جنود هذه المملكة قد ساروا داخل السودان وكان ذلك فى عهد الملك (امنحتب الأول) الذى عرف بالحكمة والحزم وحين حانت وفاته دعى أبنه وقال له هذه الوصية :

(يابنى لقد أصبحت حاكم الأقاليم الثلاثة) الوجه البحرى ـ القبلى ـ النوبة (وهذه أول مرة تصبح النوبة جزءا لايتجزأ من المملكة الفرعونية) وقال : (فأقتد بأحسن ما كان يفعله أسلافك وحافظ على نظام الرعيه ولا تكن فى معزل عنها ولا تعجب بنفسك ولا تقتصر على مصاحبة الغنى دون الفقير . . ولا تسرع بتقريب الوافد إليك فأن ضمائره خافيه عليك) .

وفى عهده استخرج الذهب من أرض النوبة وقام بغزوات عديده لها ورجع بالكثير من الغنائم والسبايا وأخضع كذلك الزنوج خلف أراضى النوبة .

ثم جاء بعده إبنه (أوسرتيس) ثم جاء بعدة امنحتب الثانى أو (سيزوستريس) الذى شاد حصونا وقلاعا فى وادى حلفا وقد وجد على بقايا هذه الحصون وهذا حد مصر الجنوبى وضع فى السنة الثامنه لحكم الملك (أوسرتس) .

الأسرة الثالثة عشر الطيبيه (٢٧٥٠ - ٢٥٦٦) ق . م :

وكذلك يبدو أن حدود مصر إمتدت ابعد من حلفا فى عهد المملكه وكذلك أثار هذه المملكة وغزواتها كانت تذهب بعيدا عن حلفا وربما كانت الرائضب

نجى من ملوك الممالك السودانيه جنوب حلفا وفى عهد هذه الأسرة توسعت فتوحات المملكة المصرية للجنوب حتى وصلت الشلال الرابع شرق كريمه . . .
وربما خلف المصريون على هذه الاراضى الجديده التى اخضعوها بعض الامراء الوطنيين أو بعض المصريين ولكن هذا الامتداد الجديد للجنوب قد نقل الحضارة الفرعونية إلى داخل السودان ونقل معها الديانات والنظام الادارى .
وربطت هذه الممالك بحركة الدولة المصرية التى كان عليها أن تحافظ على هذه الحدود .

وجد بمدينة بوهين بقايا مدينة قديمة بها معبدين وقلاع من الأسرة الثانية عشر . زارها شامبليون وروسيني ونقلوا آثارها إلى فلورنسا . أخذ تمثال أمون من قاعدته التى وجدها كابتن ليونز وارسل إلى فلورنسا يرجع تاريخه إلى الاسرة الثانية عشر . وكان على أمراء هذه الممالك أن ينتهزوا فرصة أى ضعف فى الشمال ليعيدوا استقلالهم وكان أهالى السودان أكثر يقظة للبحث عن ضعف فى الدولة الطيبيه وفى نفس الوقت كانوا يحاولون أن يتقربوا للممالك المصرية واعتناق دياناتهم والاستفادة من نظامهم ومدنيتهم . . . وهذه حال الشعوب والممالك .

والأسرة الرابعة عشر والخامسة عشر (٢٢٨٢-٢٠٦٦) (٢٢٨٢-٢١٤٣)ق . م:

حكمت مصر فى هذه الفتره الاسرة السخاوية أو دولة العمالقة والرعاه . .
وهم من قبائل الشام انتهزوا فرصة الشقاق فى مصر . . وقد كان العمالقة من العرب العمالقة .

الاسرة السادسة عشر الصاوية (٢١٤٣ - ١٩٨١) ق . م .

ظهر فى عهد الاسرة الصاوية التى جعلت صان عاصمة لهم أيضاً من العرب

ومنهم (أبوفيس) الذى لقبة العرب (بالركبان بن الوليد) أنتزع ملوك هذه الاسرة الوجه القبلى من فراعنة مصر . . . . وفى عهد هذه الاسرة ظهر سيدنا يوسف عليه السلام ومن قصة سيدنا يوسف عليه السلام تبدولنا صورة المجتمع فى تلك العصور وحالة الشعب والرعية ورهبة الفراعنة واستبدادهم وتحكمهم فى مصائر البشر كما تكشف لنا عن انتشار السحر والشعوذة سلطة الملك وحوله مجموعة من رجالى الدين الذين احترفوا الشعوذة والسحر . . وارهبوا الناس . .

الاسرة السابعة عشر (١٩٨٣ - ١٧٠٣) ق م

من تاريخ هذه الاسره يظهر لنا أن الصعيد كان قد انفصل عن الشمال حتى اضطرت لاعادته وبذلك تكون الممالك السودانية قد انفصلت واستغلت ادارتها عن الشمال والسبب عدم استقرار الملك على ارض النيل هو توسع هذه المملكة شرقا وجنوبا وغربا مما جعلها تخضع اجناسا مختلفة كما فعلت الدولة العثمانية فى العصور الوسطى مما سهل انفصال هذه الشعوب عن المملكة المصرية واعادتها مرة أخرى وبذلك أصبحت تخضع للعادات والتقاليد الفرعونية ثم تعود مرة أخرى لتقاليدها المحلية . . وفى تاريخ هذه المملكة التى حكمها الرعاة ٣١ عاما لاشك قلت فيه نهضة الحضارة الفرعونية ودخلت عليها مؤثرات جديدة .

وفى نهاية هذا العصر ظهرت الدولة النوبية الاثيوبية فى أرض النوبة .

وجد بمنطقة بوهين مع التمثال قائمة بعشرين مدن أخرى بين بوهـــين ودنقلا .

وتدل القائمة على غناء هذه المنطقة بالذرة والمحاصيل الاخرى

الاسرة الثامنة عشرة الطيبية (١٧٠٣ - ١٤٦٢) ق . م :

يبدو أن سلطة الاسرة الثامنة عشر الطيبية قد امتدت إلى الجنوب اكثر

عما سبقتها من ممالك . . ففي عهد هذه الأسرة ظهر ملوك وملكات عظام على مصر وسعوا حدودها وأخضعوا كل جيرانهم . . وقد ظهر لنا توسع الأسرة الثانية عشر الطيبية إلى الجنوب حتى الشلال الرابع ويبدو أنهم أقاموا مملكتهم الجنوبية هناك وقد تعبت تلك المملكة الجنوبية وصارت تابعة لهم ، أما عن ظهور المظاهر أو الحاكم المقيم . . . رغم انفصال هذه المملكة عن سلطة مصر في عهد الأسر المقبلة ولكن زواج أول ملوك هذه الأسرة الملك (امرتريس) الأول من أميرة مملكة أثيوبيا وهذا مترجمة بأنه كان يقصد به مملكة الشلال الرابع (كرمه) وليست أثيوبيا الحبشة .

تزوج أموزيس بأبنة ملكة إثيوبيا (كرمه) وهذه المصاهرة لا يمكن أن تكون قد قامت بدون مقدمات . . . فلابد أن تكون مملكة إثيوبيا قد بلغت شأوا من التقدم والازدهار حتى تتطاول لمصاهرة ملك الشمال . . . أو أن - هذه المملكة كانت إنحدرت من ممالك الأسرة الثانيه عشر واحتفظت بزعامة إثيوبيا وتعود مرة أخرى بعد إستتباب الأمن في هذه الاسرة الثامنه عشر لتساعدها في حروبها على ممالك النوبه والعرب المالقة حتى إنتهى منهم بمساعدة دول أثيوبيا . . وبهذا الاتحاد بين الجنوب والشمال ، خضعت منطقة النيل حتى الشلال الرابع لمظاهر الحضارة الفرعونية مرة أخرى . . وبهذه المصاهرة بين ملك طيبة وأبنه ملك إثيوبيا فقد نشطت التجارة بين الشمال والجنوب وازدهرت العلاقات وأصبحت الممالك النوبية الكثيرة التمرد محصورة بين ملكين توحدوا بالمصاهرة ضد أعداءها وبذلك قلت خطورة وتمرد الجماعات الصغيرة . وربما تكن في هذه الفترة قد خضعت كل مجموعات النيل لاشراف الدول الاثيوبية وتم تمصيرها بمظاهر الحضارة الفرعونيه بعد تمرد النوبيين الذين عرفوا بعدم الخضوع لأى نفوذ جديد .

ثم بعد وفاته إستلمت وصاية الملك زوجته نفرتارى على ابنه (امنوفيس)

حتى شب هذا الملك وفى عهد وصايتها قويت مملكة إثيوبيا وجاء ابنهـــا فأتم إخضاع الممالك النوبيه وضمها لمملكته . ولاشك أن هذا الاخضاع هذه المره كان كاملا لايتوقف على الجزية والعقوبات ولكن كان بطريقة إشمل بتعيين نواب على هذه الممالك .. وهؤلاء النواب لاشك كانوا من القوات المصريين والاثيوبيين .

ثم جاء بعد إمنوفيس الملك (تحوتمس الاول) مصمماً على ضم الشام والنوبة ، وبايع النوبة خلفه تحتمس الثانى بلا قتال وهذا يعنى خضوع هذه الممالك لهذه الاسرة والاعتراف بأى ملك جديد تكشف عن نفوذ ونجحة هذه الممالك النوبية وذلك من جراء الدم الذى تسرب إلى بلاط المملكة الفرعونيه .

ثم جاء تحتمس الثالث الذى استولت أختـــه (هاتاسو) على الحكم نسبة لصغر سنه وانفردت بالحكم ووسعت بلادها وتوسعت فتوحات المصريين فى هذه الفترة .

ولما توفت عاد الحكم إلى أخيها تحتمس الثالث إعظم ملوك مصر الذى وسع مملكته وجند شعبه لهذه الفتوحات حتى أخضع الحبشة والنوبة ومعظم أراضى السودان وقد وصلت فيه لأول مرة جنود الحضارة الفرعونية إلى نهر العطبرة . ولكن لايمكن أن نعزل الحضارة قد دخلت إلى هذه السهول والحبشة فقد كان الاخضاع عسكرى وتجارى لم يسمح ببذر بذور حضارة شمال النيل وفى هذا العهد توسعت المملكة المصرية إلى الموصل والعراق واليمن وكردستان وارمنيه وجزيرة قبرص ثم جاء بعدة إبنــــه أمنوفيس الثالث الذى أمكنه أن يخضع السودان لسيطرته حتى النيل الازرق . . . وبعد هذا التوسع المنقطع النظير كان لابد أن يتقلى كاهل الدولة بمراقبة الأمن والنظام وهذا يحتم وجود ملوك عظام على مر الزمان .

ولكن ما حدث فى نهاية هذه الاسرة الثامنة عشرة الطيبية ان أضطرب الحكم فى هذه المملكة الشاسعة .. وتمردت الممالك السودانية هذة المرة التى أشادت لها قلاعا وحصونا على طول النيل وعرفت المعابد المصريه بدخول الجنود المصريين والكهنة ورجال العمارة حتى تعلم أهل النيل هذه الفنون والعبادات وكثرت مظاهر الحضارة الفرعونية من عادات وفنون عند أهل السودان رغم ما عرفوا به من عدم الخضوع لأى سلطة خارجية فقد كانوا كثيرى التمرد والعصيان الأمر الذى قاد لارسال جيوش مصرية عظيمة فى عهد الفتوحات وبناء القلاع المصرية للحفاظ على طاعتهم . ولكن الفتوحات المصرية كان قل تعدادها فى عواصم النيل والنوبة حتى إصبح عدد هذه الممالك مرهون بقوة الملك فى طيبة وإستعدادة السريع لتأديب هذه الممالك المتمرده .

الأسرة التاسعة عشر الطيبيه (١٤٦٢ - ١٢٨٨) ق م

كان رمسيس الأول أول ملوك هذه الاسرة الذى وجد تركة ثقيلة ومملكة واسعه الارجاء تفككت أوصالها فى الشمال والجنوب والشرق وكانت أسيا مصدر قلق لهذا الملك .

وعادت الحروب من جديد لاخضاع إثيوبيا والنوبة والعراق والشام وإعادتها إلى حدود المملكة القديمة . . . وتطورت الفنون فى عهد هذة الاسره التى ظهر فيها ملوك عظام مثل تحتمس الرابع ورمسيس الثانى . . ولكن بعد عهد هؤلاء الملوك إختفت مظاهر التمرد والعصيان من جديد . . . وتعرضت مصر لهجوم من الشمال من اليونانيين والليبيين وساء حال الحكم فى مصر وذلك لكثرة الجند الذين أصبح فى أمكانهم التمرد وقد كانوا من شتى الشعوب التى خضعت لحكم مصر . هنا تجمع أعداء أخر ملوك مصر لخلعه ووضعوا على عرش الملك رجل من عامة الشعب .

الاسرة العشرون الطيبية : (١٢٨٨ - ١١١٠)

ظهر رمسيس الثالث في عهد هذه الاسرة وهو من سلالة أولئك الملوك العظام ولكن حال هذه الاسرة لم يختلف عن الاسرة السابقة في مواجهة صعوبة الحفاظ على هذه الممالك الواسعة وهذه الشعوب المتمردة ..

الاسرة الحادية والعشرون الصانية (١١١٠ - ٩٨٠)

بعد إنتهاء الدولة الطيبية الثانية إستولت على الحكم إسره من (صاى الحجر) وانقسمت مصر إلى قسمين مصر الوجه القبلي تتبع لكهنة آمون وعاصمتها طيبة والوجه البحري وكان قراعنها الصانيين وقاعدتها صان ..

كان سمنوس هو أول ملوك صان وقد حاول إخضاع طيبة في عهد ملكها الكاهن (حرحور) ـــ . . . . الذى لم يرضى بتغلب الصانيين عليه فأتحد مع الممالك الجنوبية الاثيوبية ووسع مملكته حتى سنار واتحاده هذا لاشك كان مع مملكة كرمة عند الشلال الرابع التي إستطاعت أن تقوى نفوذها وتحتفظ بسيادة جنوب النيل حتى النيل الازرق . . . . ويبدو إن العنصر المصرى والديانات الفرعونية كانت خاضعة لامون الامر الذى حتم تطويع هاتين المملكتين في زمن الشدة ومحاولة الصانيين القضاء على عبادة آمون . . .

الاسرة الثانية والعشرون البسطية (٩٨٠ - ٨١٠)

وقد عاد الاضطراب مرة أخرى لمصر بدخول شعوب كثيرة إليها حتى سقطت مصر في إيدى الشعوب المجاورة وخاصة شعوب آسيا الذين مهد لهم ملوك الدلتا بالعمل والوصول إلى مراكز عظيمة وإنتقل الحكم في عهد هذه

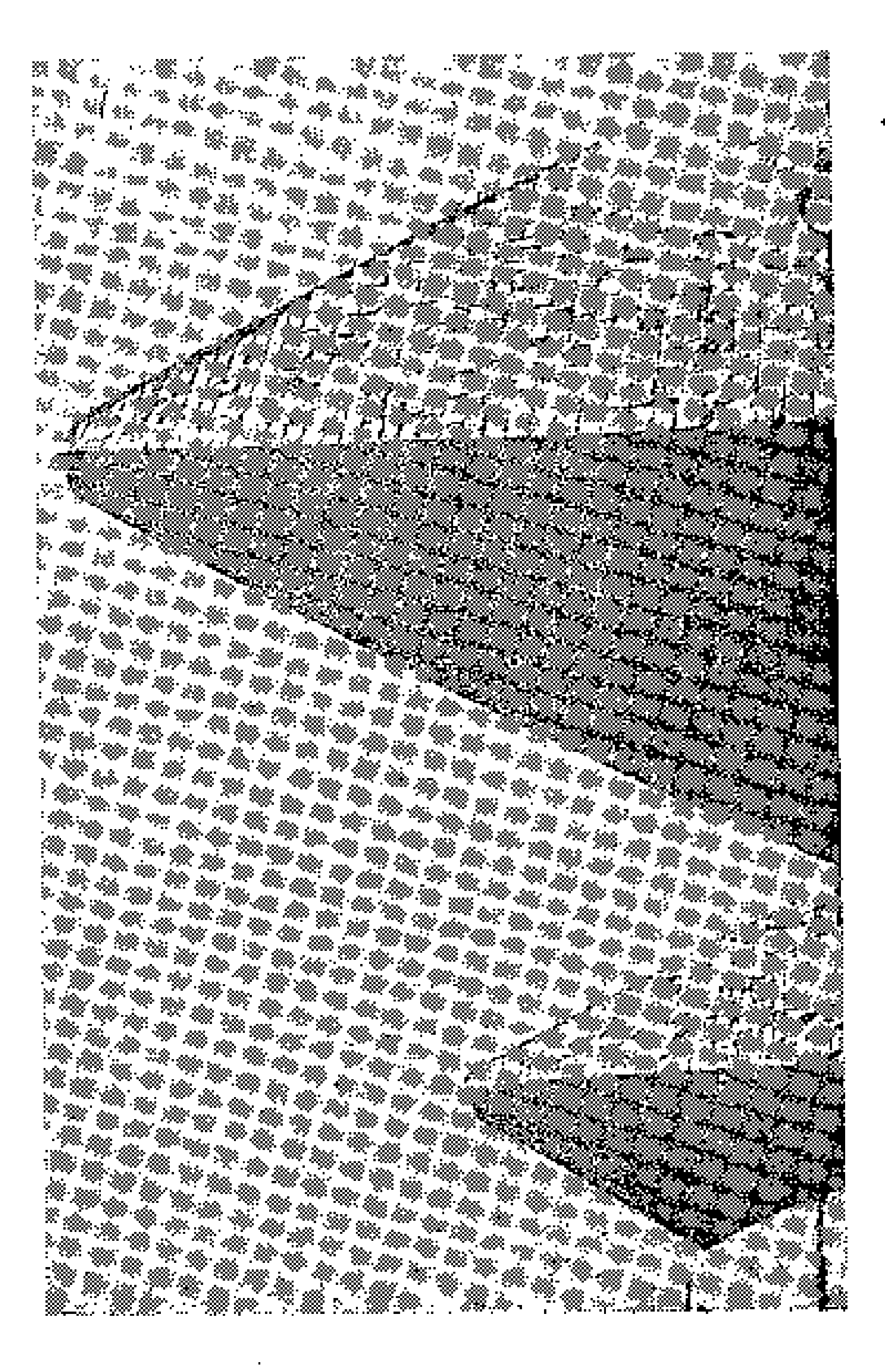
الأسرة إلى مدينة بسطة وهى من الأسرة الطيبية واستولى اشنف على الحكم وهو من العنصر السامى ثم حارب ملوك طيبة وأخضعهم وبذلك مهد لانفصال اتحاد مملكة طيبة واثيوبيا واستقلال السودان مرة أخرى ! .. ..

ولم يستتب الأمر لاسرة من هذه الاسر المتعددة التى باتت تتربص بعضها البعض ومحاولة إستجلاب الأجانب والجنود المرتزقة للتمرد على الملك وخلعه : ثم ظهرت الأسرة الثالثة والعشرون الصانية .. .. (٨١٠ - ٧٢١ ق . م .) خالفة الأسرة الصانية التى ساعدت على انقسام مصر إلى أكثر من عشرين أمارة وبذلك تفككت الدولة المصرية العظيمة وأصبحت غير قادرة على الحركة فى الداخل والخارج بعد أن انهكتها أطماع الاسر المختلفة للملك ..

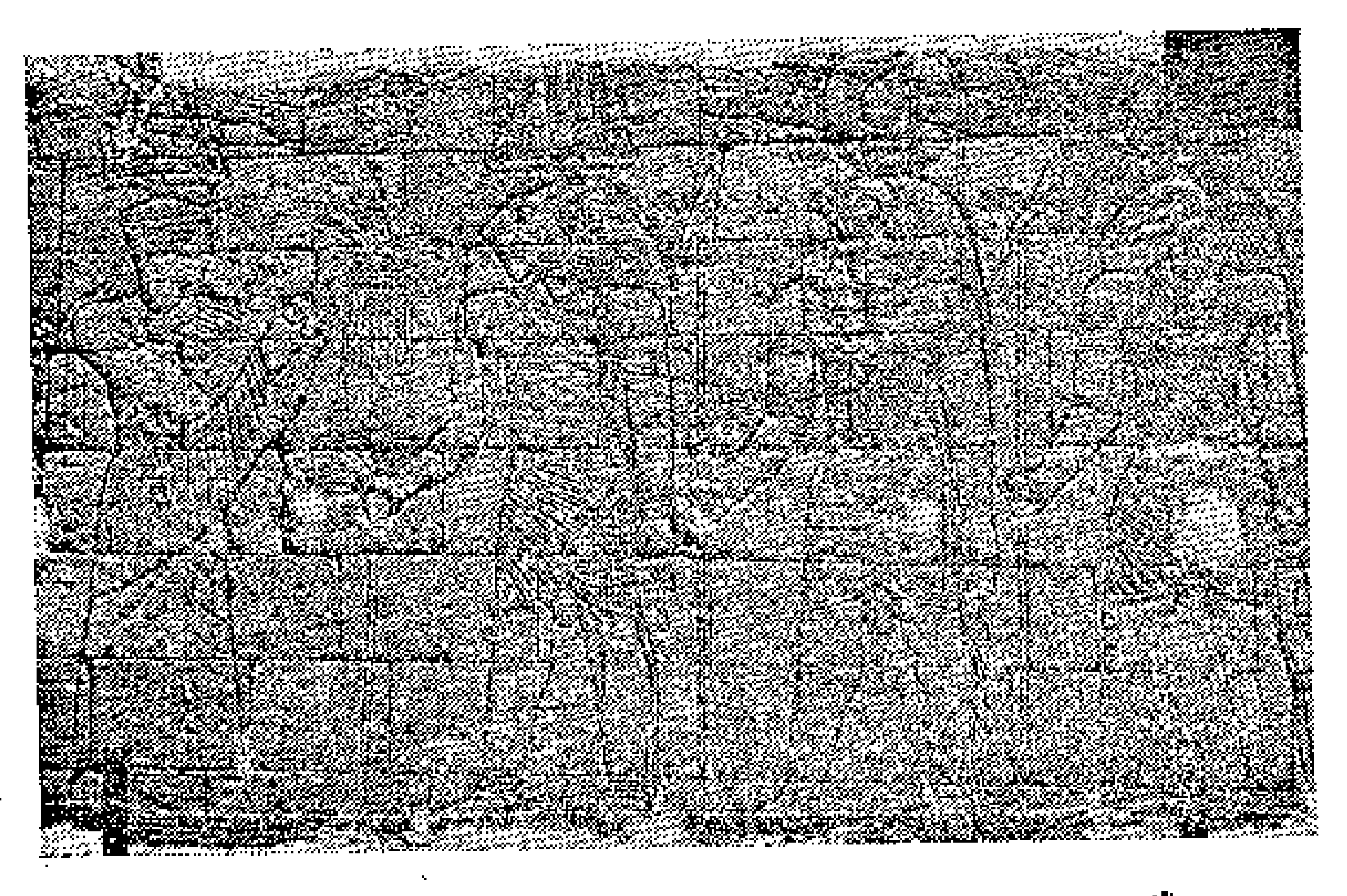
وقد أغرى هذا الحال مملكة اثيوبيا للتقـــدم وإستيلاء طيبة حتى عاد الصانيون مرة أخرى لاسترداد طيبة من الاثيوبيين .

الاسرة الرابعة والعشرون الصاوية (٧٢١ - ٧١٥)

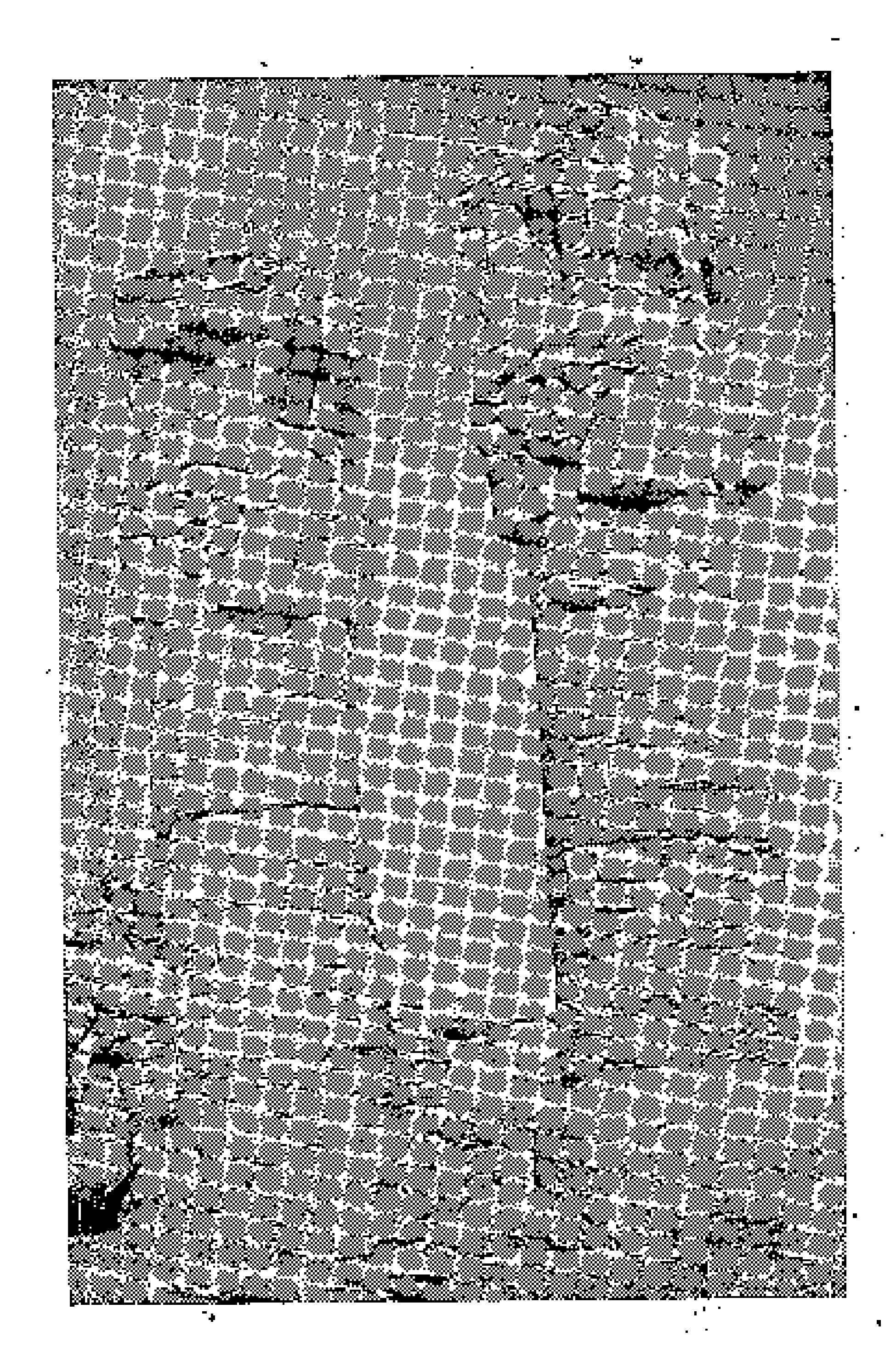
ساءت الظروف فى مصر وأصبح الملك أمنية كل قادر وأصبحت الاسر القديمة التى ورثت الحكم كل منها تحيك المؤامرات للاخرى حتى خضعت طيبة مرة أخرى لتعود للاثيوبيين وذلك لاختلاف ملوك الوجه البحرى ... فقد انتهز الاثيوبيين مساعدة الصاويين لاستعادة ملكهم واستولوا على أرض الوجه القبلى حتى ظهر تفنخت وطالب من الاثيوبيين فرض الشروط التى يطالبونها والاعتراف به ملكاً على الوجه البحرى وكان هذا مؤسس الاسرة الرابعة والعشرين ، وجاء بعده (بكوريس) القانونى الشهير الذى قضى سبع سنوات فى نزاع مع الاثيوبيين طمعاً فى طـــردهم من مصر ولاشك أنه كان يستعمل العرائض وتفسير القوانين بعدم شرعية حكم الاثيوبيين وبقائهم فى مصر ..



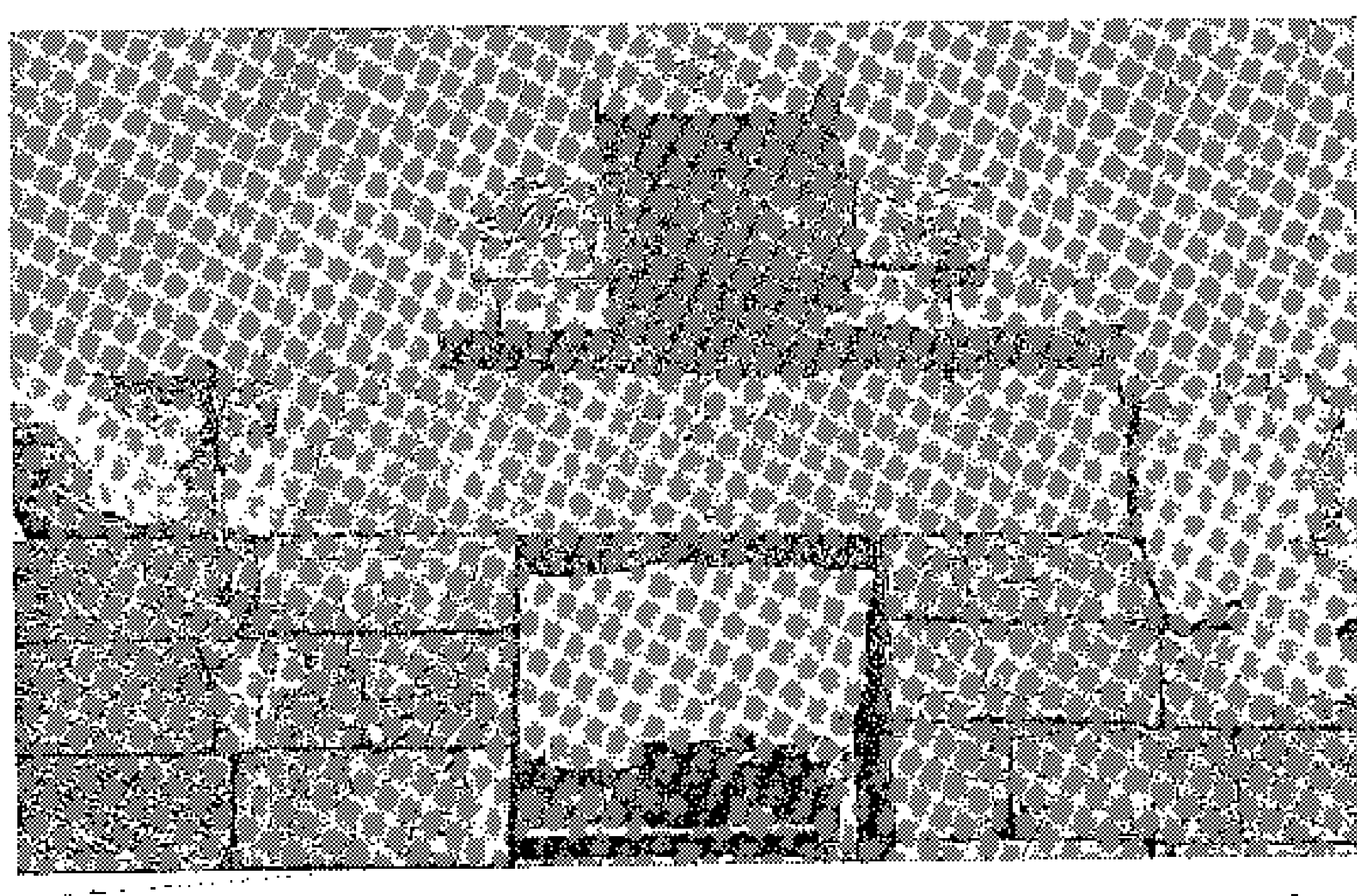
أهرامات مروى شرق معبد البركل حيث قامت مملكة نبتة فى القرن الثامن قبل الميلاد.



معبد الأسد بالنجمة .. بناه الملك ناتاكامين (١٥ ق.م. — ١٥ م.) تابع لمروى القديمة .



وجه الإله حاتور على وجهة أعمدة معبد جبل البركل من مخلفات
ملكة نبتة خلدها ملكها طهرقة العظيم .



آثار حضارة مروى القديمة جنوب نهر عطبرة حيث أمتدت الحضارة الفرعونية إلى الجنوب .
اللوحة عبارة عن واجهة معبد آمون بالنجمة المعبد المروى (٢٥٠ ق.م — ٣٥٠ م)

كما إستمر الاثيوبين فى محاولتهم لضم الوجه البحرى إليهم ولكن يبدو أن الدولة الاثيوبية بدأت تدخل مراحل التوسع الذى طرأ على الممالك الاولى وأصبح بعد حاكمهم (نباتا) على الوجه البحرى حائلا دون توسعهم حتى ظهر الملك (بكوريس) ملكا على الوجه البحرى فحاربه الاثيوبيين فى عهد ملك (نباتا) (الملك سبقاون) الذى خلع (بكوريس وأحرقه واستولى على ملك مصر جميعها وانتهى بذلك عهد ملوك الاسر المصرية لتدخل مصر فى حكم شعب الجنوب من القرن الثامن قبل الميلاد ...

الاسرة الخامسة والعشرون الاثيوبية) (٧١٥ — ٦٦٥)

أحب شعب وادى النيل ملكهم سباقون بعد أن قضى على الفتن والمؤمرات للملوك ومعاملته الطيبة الحسنة للرعية وخط سياسة رشيدة لدولته الجديدة حيث لم تختلف ديانات وعبادات دولة نباتا عن الوجه القبلى وعبادة أمون . . وأعاد الحياة والتجارة بين شمال النيل وجنوبه وتوسع فى مملكته وأشاد المبانى وأعاد بناء القديم وتوسع فى منشآته من المدن والمعابد والقصور ولأول مرة ينعم شعب وادى النيل بالاستقرار ويتفرغوا للعمل والحياة الطبيعية ولكن إطماع هذه الدولة الجديدة الشابة المنتصرة حاولت التوسع جنوبا حتى النيل الأزرق وسهول البطانة والحبشة وإخضعت إواسط السودان وضمته لهذه المملكة وفرضت عليه مظاهر الحضارة الفرعونية التى إنتقل مركزها من الدلتا إلى طيبة ثم النوبه حتى وصل إلى البركل ثم مروى القديمة ...

ومن فضائل (سباقون) انه ألغى حكم الاعدام . . . وبعد أن نظم حكم مصر وترك مصر تحت رعاية أمة الملكة (اميريتس) . . . . وذهب لنجدة ملك الشمال (هوشع) ملك إسرائيل (وحزقيا) ملك يهوذا وأمراء فلسطين

الذين استنجدوا به من ملك آشور الذى هزم هؤلاء جميعاً مما أضطر سباقون للعودة لمصر ووجد أمراء الوجه البحرى قد تكتلوا فى غيابة ولساعم بأنهزام جيشه أمام الاشوريين اعلنوا استقلال الوجه البحرى (الدلتا) وحاربوه حتى طيبة حيث أقام إلى أن توفى بها . .

وخلفه ابنه سبيخون ورأى نارالفتنة تدب من جديد بين أمراء الوجه البحرى فأغار عليهم محاولا إسترداد الدلتـــا إلى مملكته حتى تمكن من استرجاعها . . .

هنالك إختلاف حول إستلام ترهاقا للسلطة فبعض المصادر تفيد أنه قتل شبكتو بعد أن استولى على عرش نباتا والبعض تفيد أن شباكو أوصى به له .

ثم إستلم السلطة ترهاقاً بعد أن اقصى سبيخون (شبكتو) وفى عهده فاض النيل واستبشر الناس بعهده . . وكانت الدلتا وأرض فلسطين والعراق تضج بالحركة وتطلع ملوك أشور لامتداد سلطانه إلى النيل ، وتطلع ترهاقا لبسط نفوذه على ارض الشاميين والفلسطينيين التى كرهت سلطة الفرس وبطشهم . وكان ترهاقا ذكيا فطنا فلم يعمد إلى محاربة خصمه (أسرحدون) ملك أشور مباشرة بل عمد إلى دس الدسائس بين الولاة التابعين لاشور حتى يفكك جبهة القتال التى تقف بينه وبين (أسرحدون) وقد بلغ الاخير محاولات ترهاقا لبث التفرقة بين عماله على فلسطين والشام . . فاغضبه ذلك وتقابل الجيشان وانهزم ترهاقا وتابعته جيوش الاشوريين إلى ما وراء الشلال الاول . . . واستولى الاشوريين على منف ثم عاد ترهاقا واستعادها ثم استردها الاشوريين مرة أخرى وصار الصراع بين الاشوريين وترهاقا على مصر حتى تنازل الاشوريين وعقدوا صلحا مع ترهاقا .. ومن ثم قامت سلطة الاثيوبيين على الوجه البحرى

بظهور دولة الآشوريين القوية فى الشرق ودولة نباتا القوية فى الجنوب جعلتا مصر أرضاً للحرب وميداناً للقتال بين قوتين شابتين حين دب فيها الفساد فأمراءها لايستطيعون أن يقفوا صراحة مع أشور أو مع مملكة نباتا ولايستطيعون أن يعادوا هذه ولاتلك والحرب يوم نصر لهذا ومرة لعدوه مما أضعف الوضع فيها وأضعف أعداد حكام يساندون أحد القوتين لتحقيق نصر كامل حتى اقتنع الاثيوبيين بطيبة ثم جاء بسماتيك الاول الضاوى على الوجه البحرى واستعان باليونانيين على بناء دولته وعلومها وحفظ ود الاثيوبيين بزواجه بأميرة من بنات الاسرة المالكة الاثيوبية فاسترجع طيبة وضم مصر الجنوبية وعادت دولة اثيوبية إلى قواعدها الاولى حتى ظهر قمبيز ملك فارس وادخل مصر تحت حكمه عام ٥٢٧ ق . م وبذلك دخلت مصر عهداً جديداً فى خضوعها لمظاهر الحضارة الفارسية ثم بعد ذلك لمظاهر الحضارة اليونانية والرومانية . . .

اما دولة اثيوبيا فقد أصبحت بعيدة عن سهام الفرس كما إنها اقتنعت بحدودها ورمت نظرها لبسط نفوذها للجنوب حيث كانت تمتد جنوب النيل الازرق قبائل الشلك والعناصر السودانيين التى كانت تسكن أرض الجزيرة الغنية والنيل الأزرق .

دولة نبــــاتا

بعد إنتهاء حكم الأثيوبيين فى الوجة البحرى والقبلى وجلاء الآشوريين عنها اعتلى عرش الوجه البحرى الاسرة السادس والعشرين الصاوية . وفى عهد الملك بساتيك الاول الذى استعان باليونانيين على تنظيم البلاد وتكريمهم والاحتفاء بعلمائهم إستطاع بمعاونة اليونانيين من طرد الاثيوبيين من طيبة وجنوب مصر وبذلك إنتهى أثر السيطرة الاثيوبية على مصر وكان ذلك فى عام ٦٥٠ ق . م وبعد أن إستتب الامر لبساتيك ، بدأ إعادة الحياة لمصر وقرب اليونانيين وجندهم وجعل منهم قواده واكرمهم إلى حد جعل جنود المصريين يغضبون عليه ويقصدون إثيوبيا حيث رحب بهم ملك نباتا وكرمهم وإستفاد بهم فى تنظيم جيشه وفتوحاته لداخل السودان .

ورغم قلة المصادر حتى الآن عن دولة طيبه بعد القرن السادس الميلادى الا انناىمكن أن نتصور حال البلاد بعد أن إكتفت دولة نباتا بالانتصارات الداخليه وإمتداد فتوحاتها إلى الداخل وانتشار العمارة والفنون والاستفادة من الجنود المصريين الذى تركوا خدمة بساتيك الاول الذى بدأ فى ادخال . علوم اليونان وقوانيهم ايذانا بذلك لدخول الحضارة اليونانية محل الحضاره الفرعونية :

نرى السودان يتوسع فى نشر هذه الحضاره الفرعونية جنوبا وتخضع له كل الممالك التابعة على النيل الازرق حتى سنار وتظهر عاصمة ثانية عند مروى القديمة ناحية كبوشية لتتولى اداره البلاد وتتولى نباتا العاصمة ادارة الجزء الشمالى .

كان هذا فى هذا العصر الذى بلغت فيه الحضارة الفرعونية عظمتها ورقيها

فى السودان وامتلأ النيل بالمعابد والقصور والفنون الفرعونية من حلفا حتى أرض الجزيرة ...

وبمرور الزمن دخلت الحضارة الفرعونية فى عصر الركود والخمول من جراء دخول الحضارة اليونانية ثم بخضوع مصر لحكم قمبيز ملك فارس عام ٥١٧ ق. م وتأسيسه الاسرة السابعة والعشرين الفارسية التى نكلت بالمصريين وبعباداتهم وحرمت عليهم عبادة العجل آبيس ، وأبطال الشعائر الدينية الفرعونية ، وكان السودان فى ذلك الوقت ملجأ للهاربين من بطش الفرس والراغبين فى نهضة السودان لإنقاذ مصر من وحشيـــة الفرس . ويبدو ان حكام نباتا لم يفكروا فى هذا العمل مرة أخرى بعد هزيمة ملوكهم العظام بعانخى وترهاقا بجانب قوة الدولة الفارسية التى ارهبت العالم ونكلت باعدائها أشد التنكيل هذا كله جعل حكام نباتا لايتقدمون لانقاذ مصر خوفاً من ادخال أنفسهم وممالكهم فى حروب مع هذه الدولة القوية المرشة التى ربما زحفت عليهم ودمرت حضارتهم بعدما دمرت حضارة مصر واذاقة شعبها مر العذاب وحرمت عليهم شعائرهم الدينية وعباداتهم . . وبذلك انفصل تاريخ السودان من ذلك التاريخ عن مصر ولم يحاول ان يدخل نفسه فى شئونها وذلك للضعف الذى بدأ على دوله نبتة وتوسعها وانقسامها الى أمارتين وخضـــوع مصر لسيطرة دولة قوية تختلف دياناتها عن دياناته وحضارة السودان الفرعونية . وربما حفاظا على هذا التراث من المؤثرات التى طرأت على مصر وازدهرت فيها واعادت اليها الحياة من جديد

اقتنع السودان بأثار الحضارة الفرعونية التى لم يأتى ملك عظيم ليرفع من شأنها أو يقودها ولم يستتب الامر مع ذلك للفرس فى مصر فاعمالهم الوحشية ومساعده اليونانيين المصريين الذين كثر عددهم فى مصر وبنوغ دولتهم حرض المصريين للثورة على الفارسيين حتى أقصوهم ولكن ذلك لم يعطها استقلالها نهائيا

وانما كان تمهيدا لإخضاع مصر مرة أخرى للحضارة اليونانية بدخول الإسكندر المقدونى عام ٣٣١ ق. م . مصر وضمها للامبراطورية الرومانيه بعد إن فتح بلاد آسيا الصغرى وصيدا وصور ... واستمر حكم اليونان فى مصر حتى إعتلى احد قواد الاسكندر بطليموس بن لاغوس عرش مصر ودخلت مصر في عهد البطالسة حتي آخر ملوكها كليوباترة سنة ٣٠ ق م .

وفى هذا الأثناء تطورت حياة مصر العلميه والفنية بانشاء جامعة الاسكندرية وبدخول العلوم اليونانيه كالفلسفة والفلك والعلوم العقلية وازدهرت حياة مصر العلمية والفنية خلال ال ٣٠٠ سنة التى خضعت فيها للحضارة الرومانية .. ويبدو أن هذه الحضارة بمباركها وفنونها وعاداتها قد وصلت للسودان وخاصة الفنون .. لان حسن الجوار بين المملكتين كان قائما فلم تحدث أى غارات أو هجوم بين الدولتين خلال تلك الفتره ولم تفكر احـــدى الدولتين فى بسط نفوذها أو مظاهر حضارتها بالقوة على الاخرى واستمرت الحياة التجارية والتبادل الثقافى والفنون الرومانيه تفد للسودان عن طريق المحاربين والتجار والعمال ولكن هذا الاشتراك كان بسيطا لتعارض هذه الحضارة وتعاليمها مع الديانات المصرية بالسودان فلو سمح بدخول العلوم اليونانية يعنى ذلك الاعتراف بديانة أخرى غير ديانة الفراعنة والحضارة الفرعونية التى استوطنت السودان .

ويبدو أن السودان دخل فى مرحلة من مراحل الضعف والتفكك فى هذه الفتره فلم يحاول أن يستفيد من العلوم والفنون الاغريقية أو الرومانية على غرار جامعة الاسكندرية أو ارسال المبعوثين أو إقامة الاروقة وذلك لانعدام الصله بين حكام مصر من الرومانيين وبين حكام « نباتا » الذين كانت لهم علاقات طيبة مع حكام مصر من الوطنيين وصلت حد المصاهرة والمعاملات والمساعدات العسكرية .

وظل تاريخ الممالك السودانية الفرعونية خلال تلك الفترة يقبع تحت الاتربة وبقيت بقايا الآثار مبعثرة لم تكشف عن نفسها شيئاً يذكر حتى دخول السودان فى العهد المسيحى ، ولم تحاول الدولة أثيوبية مرة أخرى أن تعاود الهجوم على مصر الا فى عهد أغسطس والى مصر الذى خرج لاحتلال شبه الجزيرة العربية وانتهز حكام « نباتا » هزيمته وبعــــده عن صعيد مصر لاحتلال مدينة اسوان وضواحيها ، وكان ذلك قبل ميلاد المسيح ببضع سنين ، ولكن أغسطس عاد وحارب الأثيوبيين حتى عاصمتهم « نباتا » وأجلاهم عن مصر مرة أخرى وهذا يدلنا على قوة مملكة « نباتا » حتى ظهور المسيح ودخول مصر فى ملك الدولة الرومانية ..

المسيحية فى مصر والسودان :

ولد المسيح بأرض فلسطين بقرية بيت لحم ولما بلغ من العمر سنتين أتت به أمه إلى مصر مع يوسف النجار حيث عاش فيها أربع سنوات ..

ظلت مصر تحت حكم متقلب بين قسوة القياصرة الرومان وعمتها الفتن وعاش الشعب فى ظلم شديد فى آخر عهد القياصرة . وفى هذا الاثناء عمت الديانة المسيحية الشرق ولقى روادها الأوائل الكثير من صور العذاب والاضطهاد وقد لقى رواد المسيحية بمصر النصيب الأكبر من هذا العذاب ، من القياصرة الرومان . وقد ظهر بمصر رجالا حملوا عبء هذه الرسالة . وقد كانت الاسكندرية هى المقام الأول لهذه الرسالة ، ولكن قسوة قياصرة مصر لم يسمحوا للمسيحين بأعلان إيمانهم بل طاردوهم وجندوا الجند للقبض على كل من يثبت عليه ايمانه بالمسيحية حتى قادت هذه المطاردة وهذا التعذيب لظهور مذاهب وسلوك رجال الكنيسة فيما بعد .

اضطر الاضطهاد الدينى فى مصر المؤمنين بالمسيح بعد البطش والتنكيل ، أن هجر المؤمنين بالمسيحية المدن القرى وإعتصموا بالجبال والوديان وقد عبر وادى النطرون مجموعة من الهاربين من هؤلاء المؤمنين . كما كان صعيد مصر ملاذا لهؤلاء النساك ، فوجدوا فى ودیانه وشعاب جباله وبعده عن أعين الجند وأعداء الدين أمانا لحياتهم وللعبادة والهروب إلى حيـــاة النسك وقد كانت الواحات والصحارى أحسن الأماكن لإقامة هؤلاء النساك ومنهم الأنبا باخوم الذى تولى الاشراف على النساك فى الصعيد عام ٣٢٧م) وخط فى حياة الكنيسة القبطية مبدأ الرهبنة والعمل الجماعى . . لأن الكنيسة حتى القرن الرابع الميلادى لم تولد وحياة الرهبنة لم تبدأ بعد بالصورة التى تراها اليوم . فقد عاش رجالها يناضلون ضد الظلم والتعذيب حتى خطوا لسالفهم هذا السلوك .

حمل المسيحيون من الأقباط رسالة المسيحيـــة والاحتماء . . . بالواحات والوديان وأوجدوا فكرة الدير .

عاشت المسيحية فى مصر حتى القرن الخامس والسادس الميلادى فى صراع مرير بين الاعتراف بهـــا من الحكام وبين التفسيرات الدينية بين كنيسة الإسكندرية ورهبان وادى النطرون وكنيسة القسطنطينية وكنيسة الامبراطورية الرومانية الغربية . . . وحركة الهرطقة التى ظهرت ووقفت فيها كنيسة الاسكندرية ورهبان وادى النطرون موقفاً مشرفاً فى بث الديانة المسيحية .

نبذة عن ملوك السودان العظام

(كشتا – سباكون)

لم يترك لنا ملوك مملكة نباتا أو الدولة الأثيوبية أى كتابات حتى يمكن عن طريقها كشف التاريخ القديم أو حياة هذه الممالك ونحن لا نستطيع أن نقول أنه لا توجد كتابات أو أنهم لم يخلفوا لنا أى آثار . ولكننا لم نستطيع حتى الآن أن نعثر على آثار قديمة تكشف لنا عن تاريخ ملوك عظام رغم قدم الدولة الاثيوبية وصداقتها لدولة طيبة وتوسع هذه المملكة جنوباً حتى سنار والحبشة والنيل الأزرق .

من أخبار مملكة نباتا نعلم إن كشتا ليس هو مؤسس هذه المملكة ولكن بما خلفه من الآثار نعلم أنه من أول الملوك العظام الذين وصلتنا أخبارهم ، إذ أنقذ مصر من سيطرة الليبيين ومؤمرات الأسر المتعددة للحكم وتطلع الأشور بين للسيطرة عليها . فقد وصلت مصر فى القرن الثامن قبل الميلاد إلى حالة من التفكك والمؤمرات مما جعل استتباب السلطة لبيت أو لملك أمراً مستحيلاً وقد رأينا أسر كثيرة متعددة الأسماء تتطلع إلى حكم مصر حتى تقسمت مصر فى عهد الأسرة الثالثة والعشرين الصاوية (٨١٠ - ٧٢١ ق م) إلى أكثر من عشرين امارة مما سهل غزو مصر الدولة العظيمة التى انتهت الي أمارات صغيرة من جراء النفوذ والصراع على السلطة كما أن تدخل الأثيوبيين المستمر فى طيبة والمصاهرة التى قامت بينهم وبين الأسرات المختلفة جعلتهم على علم ببواطن الامور فى مصر كما أن اشتراكهم واتحادهم مع أكثر من أسرة جعل لهم نفوذاً عظيماً فى مصر تقيدهم بالديانات المصرية جعلهم يحافظون علي مصير هذه الديانات حتى وصلت

مصر فى عهد الاسرة الثالثة والعشرين الصافية لتلك الحالة من التفكك وكثرة المؤامرات فيها وتدخل الليبيين وتطلع الاشوريين للزحف عليها الامر الذى جعل مملكة نبتة القوية المنيعة حافظة ديانة أمون التحرك لتنقذ مصر وتوحدها وكان ذلك فى عهد الملك العظيم بعنخى .

وأول ملك أثيوبى (سودانى) أعتلى عرش مصر وكون الاسرة الخامسة والعشرين الاثيوبية (سباقون أو كشتا) الذى ثار على بكوريس ملك الوجه البحرى وأحرقه وأخضع جميع مصر تحت سلطته ودانت له دولة تمتد من الدلتا إلى النيل الازرق وشرقاً . ..

ولنصف هذا الملك يجب علينا أن نرى الظروف العصيبة التى كانت تعيش فيها مصر والفتن الداخلية وتآمر الامارات على بعضهـــا وطمع كل ذى سلطة قديمة فى الملك حتى أضحى الوصول إلى الملك أو الامارة مغامرة من مغامرات القرون الوسطى التى حدثت فى أوروبا وانجلترا . جاء كشتا الى أرض طيبة والوجه البحرى وشعب مصر يقف معه ويحبه لما أبداه من حسن ونظام وعدل وطرد الليبيين من مصر .

وفى الداخل مازالت أطماع الأمراء السابقين تراودهم ولا يمكن أن . . . يصمت مثل هذا العدد من الطامعين فى الحكم بالهزيمة . هذا فى الداخل أما خارج مصر فقد استنجد به هو شع ملك اسرائيل وحذقيا ملك يهوذا وكذلك امراء فلسطين من خطر ملك أشور الذى كان يستعد لضم هذه الممالك الى مملكة آشور .

فما كان من كشتا الا أن جهز جيشه وقاده بنفسه وسار تتبعه جيوش هذه

الممالك الا أن ملك أشور هزم بجيشه العظيم هذه الجيوش المتحدة وفرقها مما اضطر كشتا للعودة الى مصر لاستجماع قواته واعادة النظر في خططه لهذا العدو.

وفي هذه الاثناء انتهز أمراء الوجه البحري هزيمة جيوش كاشتا ضد جيوش آشور فاعلنوا تمردهم وانفصالهم عن سلطة كاشتا وتصدوا للجيش المهزوم وردوه الى طيبة حيث أستقر وأعاد النظام الى عاصمته الواسعة حتى توفي بها .

• • •

شبكتو : (٦٩٨ — ٦٨٣ ق . م .)

خلف شبكتو عمه سباكوا على عرش نباتا وقد أعتلى العرش وما زالت أحلام ملوك مصر هى توحيد مصر ، وطرد خطر الأشوريين منهـــا تراود حكامهم ولكن المنيه لم تسمح لهذا الملك أن يستمر فى الحكم الا أنه بحسب درايته عرف من يستطيع من أسرته القيام بهـذه المهمه الخطيره بتوحيد البـلاد وتأديب الأشوريين غير أخيه الاصغر ترهاقا :

ترهاقا : ٦٨٨١ — ٦٦٣ ق . م .)

ظهر ترهاقا وهو يدرك المسئولية العظيمه التى ولاها له أخيه « شبكتو » بالحفاظ على وحدة وادى النيل وطرد الاعداء منها والمحاوله لنجدة شعوب فلسطين والشام التى أخضعها الأشوريين قسرا . . فما كان من ترهاقا إلى أن يعيد الأمل إلى أمراء هذه المناطق ومحاولته إرسال المناديب وتأليبهم على الأشوريين حتى أنكشفت خطته قبل أن تأتى ثمارها مما جعل (أسرحدون) ملك أشور يختار له جيشاً لمحاربته . والتقى الجيشان على الحدود وأنهزم جيش ترهاقا وفشلت خطته فى أزالة خطر الأشوريين . ولم يترك الأشوريين جيش ترهاقا المنهزم فقط ، بل تابعته حتى الشلال الأول ، ولكن الملك الفتى لم يقتنع بالهزيمه فعاود الكره على جيوش الأشوريين حتى إقتنعوا بنفس وأستمر القتال بين الأشوريين وترهاقا زمنا طويلا مرة ينتصر عليهم ومرة ينتصرون عليه حتى تركه الأشوريين مقابل أتاوة سنوية . . وقد أحيت هذه الحروب أطماع أمراء الوجه البحرى من جديد .

وكان الوجه البحرى مصدر قلق وتمرد للدوله الأثيوبيه . خلال محاولة بسط سيطرتها عليه .

تانوت آمون :

إستلم السلطة بعد وفاة خاله ترهاقا وكان تانوت كخاله شجاعا ذا أطماع وطموح فى إعادة توحيد مصر وطرد الآشوريين والليبيين عنها فجرد جيشا لطرد الآشوريين وقوبل جيشه عند طيبة استقبالا حسنا من شعب مصر ثم سار إلى الدلتا حتى دانت له ولكن الآشوريين لم يتركوه يهنم أمراء الوجه البحرى حتى عادوا مرة أخرى بجيوش عظيمة لطرد الاثيوبيين من مصر حتى إقتنع تانوت أمون بالهزيمة وعاد لعاصمة نباتا وبعده لم يتطلع ملك بعده لاعادة توحيد مصر بعد أن قويت دولة الفرس وأصبح خطرها يهدد دولة نباتا فاقتنعت بالسلام معها وتوسعت مملكتها داخل حدود السودان .

(دولة نباتا ومروى القديمة)

بعد أن تعزز على ملوك دولة نباتا الاحتفاظ بالسلطة على مصر حاولت أصلاح أمورهم الداخلية والرقى بعباداتهم ومنشآتهم فأنشأوا المعابد والقصور وأصبحوا حافظى حضارة الفراعنة بعد أن دخل الفرس مصر وأساءوا معاملة سكانها ودياناتها ومعابدها حتى قضوا على معظم معالم الحضارة الفرعونية .

أصبح السودان بعد عودة تانوت أمون ملجأ للحضارة والفنون الفرعونية وبذلك أنشغل الحكام فى ازدهار هذه الحضارة على أرض النيل جنوبا وأقاموا مراكز لهم فى جنوب نباتا وفى هذه المراكز الهامة مروى القديمة التى اقتسمت الحكم مع نباتا وأصبحت هى المشرفة على المنطقة جنوب شندى حتى منطقة الجزيرة والنيل الأزرق .

دولة أكسوم المسيحية فى الجانب الشرقى من السودان

تحدثنا عن علاقة السودان القوية بمصر ، وقيام الحضارة العظيمة على النيل فى الشمال وقيام دولة (نباتا) العظيمة لتزحف فى القرن السابع قبل الميلاد لتحرر مصر من الاضطرابات وتبعد عنهما خطر الآشوريين والليبيين وتمسك بزمام مملكة طيبة ثم تستولى على الوجه البحرى . . .

وتابعنا قصة الحضارات والإمبراطوريات العظيمة التى ظهرت فى الشرق ودخلت مصر وأبعدت عنها السودانيين . وذلك من قراءة الوثائق والآثار التى خلفتها لنا تلك الحقبة ولكننا لم نتطرق إلى شرق السودان والبحر الاحمر خلال تلك الفترة حتى ليظن أن هذا الجانب من القارة الافريقية . كان ميتاً معدوم الحياة والسبب راجع لا لرغبة المؤرخين فى تجاهل هذا الجانب ، ولكن لفقدان أى دليل يلفت النظر إلى ذلك الجزء من القارة الذى شد إنتباهنا اليه فى القرن السادس الميلادى وإفصاح الوثائق والروايات التاريخية عن حضارة عريقة فى هذا الجزء من افريقيا والبحر الأحمر وعلاقته بالجزيرة العربية وخاصة اليمن .

تحدثت الوثائق التاريخية والآيات القرآنية عن دولة عظيمة لها من القوة والمناعة ما يجعل تصور نشأتها وتطورها إلى عدة قرون قبل الميلاد .

ظهرت دولة اكسوم وملكها ملك الملوك « غالب » الذى كشف تاريخه عن حضارة الحبشة وقدمها وسيطرتها على هذا الجزء من إفريقيا وفرض سيطرة شعبها عن الامارات العربية فى اليمن .

وتحكى لنا قصة إكسوم وملكها «غالب» ان الاثيوبيين كانوا يقومون بأعداد

كبيرة فى اليمن وأن المسيحية دخلتها فى القرن الرابع الميلادى وهى فى أوج مجدها وقوتها وأصبحت هذه الامبراطورية العظيمة على الهضبة الحبشية قائدة للتبشير المسيحى فى أفريقيا . وجنوب الجزيرة العربية وبل وفى السودان .

واذا كانت الوثائق لم تكشف لنا حقيقة قيام دولة اكسوم بالهجوم على دولة مروى القديمة وتخريبها ولكن غيرة هذه الدولة على المسيحية ومحاولة بسط نفوذها وفرضتها عبر البحر الأحمر على العرب تبين لنا إن الباعث الأول كان لتحطيم الملك الحضارة الدينية التى أقامت على الجزيره العربية والنيل الأعلى الذى قاد لتحطيم تلك الحضارة الوثنيه فى السودان وعاصمتها وظهور مملكة علوة المسيحية بعد هذا الدمار الذى الحقته دولة اكسوم بمملكة مروى القديمة .

وتروى قصة ملك الملوك « غالب » ملك الحبشة بعد أن تعرض بعد الأحباش المسيحيين للقتل باليمن ، أن أرسل قواته لليمن وقتل منها أعداداً هائلة من عباد اليهوديه وبناء الكنائس فى محاولته الجريئه التى ذكرها القرآن بقيادة قائد جيشه ابراها وعبوره للبحر الأحمر ودخوله الجزيرة العربية ومكة لتحطيم الكعبة وفرض المسيحيين على العرب وقصة الفيل والطير الأبابيل التى جاءت فى القرآن والامكانيات البحريه العظيمة التى كانت لدى هذا الملك للتحرك فى هذه الحقبة لليمن أو الى مكة تكشف لنا عن مدى تقدمها وقوتها كما تكشف لنا وسائل النقل عبر البحر الاحمر كانت كبيرة والسفن تعرف عبر هذا المضيق ولم يكن هناك مانعاً أمام الاولين بل كانت الملاحة أمراً عادياً .

فشلت حملة ابراها قائد جيش غالب ملك أكسوم عام ٥٧٠ م . وعادت المملكة إلى حالتها الاولى بعد هذه الخسائر ومحاولتها لمحاربة اليهودية فى الجزيرة العربية تكشف لنا عن العلاقات العريقة بين القارة الافريقية والجزيرة العربية

وخاصة اليمن ووجود أعداد هائلة من الأحباش باليمن وكذلك وجود أعداد هائلة من العرب بالحبشة .

هذه الممالك القوية كان لها أثرها على الحياة السودانية فى فرض المسيحية ديناً عليه بقوتها وبطشها ، وربما لولا محاولة مملكة أكسوم وتحطيمها لمملكة مروى لما تقدمت المسيحية كثيراً فى السودان كما يكشف لنا أهمية شاطىء البحر الاحمر وحيويته ونشاطه من قديم الزمن وقيام ممالك قديمة بالقرب منه .

وقد حاول العرب الاتصال بالقسطنطينية لتمدها بالجيوش لتردع جنود أبراها وتنتقم منه بتهديم مملكته فى الحبشة إلا أن القسطنطينية لم تلبي طلب العرب واعتذروا بأن الملك غالب أخ لها فى الديانة المسيحية ولا يصح أن تحاربه وتعاون من يحاول أن يحاربه ولم يقتنع العرب بهذا المنطق بل حاولوا الفرس ولكن محاولاتهم لم تنجح .

وأرسل إمبراطور الفرس لينقذ الهود العرب بجيشه تعداد أربعة ألف جندى واستطاعوا القضاء على كل الحبشة المسيحيين الذين كانوا بالجزيرة العربية وخلعوا الملك الحبشى الذى كان على عرش اليمن وبذلك انتهت المسيحية فى الاراضى العربية لتفتح المجال لظهور الإسلام بتعاليمه الجديدة .

وبظهور الإسلام فى الجزيرة العربية وإسلام اليمن وسيطرتهم على البحر الاحمر ضعفت قوة دولة أكسوم الحربية بعد أن ساءت علاقتها مع جيرانها من العرب : حتى كان القرن العاشر (٩٦٠ م) وقد وصلت حالة من الوهن والتدهور والتطاحن على التاج الأمر الذى قادها إلى الخلافات الداخلية الكثيرة وشغلها ضعفها هذا عن محاولة الامتداد أو التدخل فى شئون السودان .

وظهر هذا الشقاق بمحاولة الأسر والمتعددة للوصول للسلطة كما سادت حالة الكنيسة وخضوعها للملك وذلك بفرض رئيس عليها من أقاربه دون إعتبار للمكانة العلمية . الأمر الذى جعل علاقة هذه الكنيسة مع كنيسة الاسكندرية ضعيفة وجعل مكانة رؤسائها مشكوك فيه وسرى عليها النظام الذى كان ساريا فى وسط أوربا .

محاولة ملوك أكسوم لإخضاع الكنيسة لسيطرتهم واحتفاظهم بسلطتهم الآلهية القديمة على الشعب جعلتهم يدخلون فى شئون الكنيسة ويسلكون نفس الاسلوب الذى اتبعته الكنيسة الإقطاعية فى أوربا الأمر الذى أقل من هيبة الكنيسة وأحط فى شأنها الدينى والعلمى حتى ضعفت وأصبحت غير قادرة على حماية المسيحية وذلك كان واضحاً فى البعث التى أرسلتها كنيسة علوة من البشريين لطلب العون العلمى من كنيسة الحبشة فعجزت عن تقديم العون العملى لرهبان كنائس سوبة وحاولت الاستنارة بكنيسة الاسكندرية كما جاء فى الروايات التاريخية وإنما هو تبرير للرفض . . . وأقرت عدم تقديم العون لهذا التبرير بعدم موافقة كنيسة الاسكندرية حتى اليوم .

السودان بين الركود والعزلة بعد القرن الثالث الميلادي :

آخر الأخبار التي وصلتنا عن السودان هو دخول بعثة التبشير المسيحية الأرثوذكسية وتعميدها ملك علوة وأفراد أسرته وحاشيته ودخولهم في الديانة المسيحية في القرن السادس الميلادي وإنتقال ثقل المملكة السودانية من جوار مصر إلى داخل السودان إلى سوبة وبذلك إبتعدت عن أخبار الحياة والنشاط السياسي الذي كان يربطها مع مصر . وتركت مصر التي تنفصل عنها في أمورها السياسية إلا أن وهنت قواها وكثرت فيها الجيوش الأجنبية وتغيرت الملامح الحضارية في مصر بدخول الفرس والإغريق والرومان من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد . ثلاثة عشر قرنا وهي خاضعة لتأثير حضارات هـــذه الشعوب حتى بعدت الشقة بينهما وبين السودان وأصبحت العادات والعبادات تختلف . وذهبت المملكة السودانية بهذه الحضارة الفرعونية بعيداً عن هذا التأثير الفارسي والإغريقي والروماني والمسيحي . وإنعدمت الصلة الحضارية وانحصرت حضارة النيل القديمة داخل السودان وانمحت آثارها ومظاهرها من مصر ، إلا من هذه الآثار الباقية التي لم تعد تشد إليها روح المواطن المصري بعد أن فرضت عليه العبادات الرومانية والمسيحية إلا غيرة ملوك السودان التي لم تقف سلبية عن مصير هذه الحضارة الأم . وقد رأينا في أوائل القرن الأول المسيحي محاولة النوبيين لاسترداد طيبة والصعيد مرة أخرى إلا أنهم نالوا ما يستحقون من العقاب والهزيمة في تلك الدولة الرومانية التي يستتب نفوذها وحضارتها على البحر الأبيض المتوسط مما جعل ملوك السودان يونقون التفكير مرة أخرى في العودة لمثل هذه المحاولة مع الامبراطورية الرومانية .

ثم ظهرت المسيحية والسودان يتابع الأحداث في مصر ويشارك في إيواء المصريين المسيحيين ، ثم قبل المسيحية دينا له في القرن السادس الميلادي وبدأت

الصلاة تقوى من جديد بربط ملوك الممالك السودان بكنيسة الاسكندرية وملوك مصر ، إلا أن هذه البداية لم يكتب لها الاستمرار إذ ظهر عمرو بن العاص فى القرن السابع الميلادى وفتح مصر ونشر الدين الإسلامى بين ربوعها وانتشر الجند العرب يحرسون المدينة الإسلامية . . . وصمت السودان إلا من محاولة النوبة وملك دنقلة للوقوف ضد هذا الدين الجديد الذى جاء ليغير ديانة مصر المسيحية بعد أن اعتنق السودانيين المسيحية ولم تمر أكثر من قرن يأتى هذا الدين ليفرض عليهم ديانة جديدة بعد أن عدلوا من عباداتهم الوثنية بالديانة المسيحية مجاراة للتأثير العام الذى حدث فى وادى النيل وأصبحت الديانات الفرعونية غير قادرة على مقاومة تأثير هذه الديانات السماوية .

ووجد العرب السودان الشمالى غير مغرى لبقاءهم لضيف النيل فى تلك المنطقة وشراسة أهله غير ملائم لبقاءهم ولحياتهم البدوية القديمة فغادروا بعد أن ضمنوا سلامة إقامة الشعائر الاسلامية وعادوا وتركوا السودان المسيحى عن مصر المسلمة المسيحية الوثنية . . . فالديانات الوثنية القديمة لم تفرط كلية فى حياة المسيحية حتى ظهور الاسلام ثم عمت المسيحية أراضى واسعة ولم تتمكن من القضاء نهائياً على الوثنية وإذا بالاسلام يظهر على أرض الدلتا والوجه البحرى ، فانقطعت العلاقات بين السودان وبين مصر التى باتت تحت أيدى المسلمين العرب وانزوى حكام دنقلة بعد الهزيمة التى منوا بها فى عهد عبد الله ابن السرح فى حين عاشت الممالك الجنوبية فى خوف من وصول جنود هذه الدولة الاسلامية التى نشرت نفوذها على كثير من الشعوب ولم تحاول الممالك المسيحية فى نباتا أومروى محاربة هذه الدولة العظيمة بل قاد ظهور هذه الدولة فى تغيير عواصم الممالك المسيحية السودانية فانتقلت إلى الجنوب وأصبحت سوبة عاصمة الجنوب وسيطرت على أملاك الدولة القديمة على النيل الازرق والجزيرة لخصوبة تلك المنطقة من شمال السودان . الأمر الذى قاد لكافة سكان منطقة

النيل الأزرق والجزيرة دون غيره من مناطق النيل التي كانت فقيرة في السكان بعيدة عن بعضها ، تعداد سكانها بسيط ومبانيها قليلة وتعيش على ضرائب التجارة أما عطبرة فلم تكن موجودة غير خيام بعض الأعراب في أوائل القرن التاسع عشر يعيشون على الرعي وفي حالة من الفقر والاعتماد على خدمة القوافل التجارية ثم الدامر مدينة المجاذيب وعيشة سكان هذه المناطق .

يقول جون لويس بوكهارت الذي زار هذه المنطقة سنة ١٨١٤ م ويمكن من وصفه تتصور حالة هذه المنطقة القليلة السكان إلا على ضفاف النيل قبل ظهور العرب المسلمين ونزولهم في الشمال وتعمير سهول البطانة واستيطان النيل يقول « مقرن (نهر عطبرة) وهو الحد بين إقليم رأس الوادي والدامر . ورأينا السواقي على ضفافه الجنوبية ترفع الماء من البرك ودلنا ترتيب الحقول هنا ونظامها ، فوجود المساقي الصغيرة على أن الزراعة تلقى من العناية قسطاً لا تلقاه في الأقاليم التي جزناها من قبل » .

« الدامر قرية أول بلدة كبيرة قوامها خمسمائة بيت من السكان وهي نظيفة تفضل في شكلها بربر لما فيها من مباني جديدة وخلوها من الخرائب وفي بيوتها شيء من التنسيق وشوارعها منتظمة وتنمو في كثير من أرجائها الأشجار الوارفة الظلال ويسكنها عرب من عشيرة آل المجذوب ويردون أصلهم إلى جزيرة العرب وجاهم من رجال الدين أو الفقراء وليس لهم شيخ يتزعمهم بل فقيه يسمونه « الفقيه الكبير » وهو الرئيس الفعلي والقاضي الذي يفصل في خصوماتهم » وليس في البلد سوقاً يومية ولكن فيها سوقاً أسبوعية يعرض فيها كل تاجر بضاعته . وذكروا إن المبيع في الماشية فيها كثير وأن الحصر الدامرية المصنوعة من خوص الدوم تلقى رواجاً كبيراً في البلاد المجاورة كلها » .

أما شندي فيقول عنها بوكهارت (أكبر بلد في شرق السودان بعد سنار

وكوبى بدارفور ويقول التجار إنها أكبر من عاصمتى دنقلة وكردفان وتتألف من عدد من الأحياء تفصلها عن بعضها البعض الميادين العامة أو الأسواق ، وقوامها ثمانمائة بيت إلى ألف وهى مبنية فوق السهل الرملى على نحو نصف ساعة من الساحل الرملى وتشبه بيوتها بيوت بربر ولكنها أعمر منها بالمبانى الكبيرة وأقل منها ضرائب .

هذا جزء من صورة المدينة والجماعة التى سكنت الشاطىء وسنعود لذلك فى فصل منفصل ولكننا لو أردنا أن نتصور حالة هذه المنطقة والمناطق الأخرى من العمران قبل ألف سنة قبل دخول العرب عليها والتأثير فيها ويظهر لنا إعتماد هذه المنطقة النيلية على الزراعة والتجارة فشندى تتاجر مع بربر ودنقلة وسنار وهى أكبر مركز تجارى وسط السودان وكذلك مع شعوب دارفور ووقوع شندى فى وسط السودان وعلى أرض نيلية خصبة وأراضى زراعية أكثر من الشمال جعل لها أهميتها من قديم الزمان . . . وهذا مايبدوا مارشح مدينة مروى القديمة المجاورة لها أن تحتل هذه المنطقة الغنية بالأراضى الزراعية والصالحة للمرعى المسيطرة على طرق التجارة .

ونعود مرة أخرى إلى حالة الركود والعزلة التى عاشتها السودان فى القرن السابع الميلادى إلى القرن الثامن عشر الميلادى وقد رأينا تأثير الأحداث فى مصر فى العصور الأولى كان له تأثير مباشر على السودان وكانت الممالك السودانية القديمة تحاول أن تكون عاصمتها قريبة من حدود المملكة المصرية ولكن بعد إنفصال مصر ودخول العرب الإسلام فيها ، أن قنعت الممالك السودانية بالزحف لداخل السودان وبذلك بعدت عن أخبار مصر ومشاكلها . . . وقاد هذا الركود والعزلة الداخلة لضعف الممالك المسيحية القديمة وإنقسامها إلى دويلات عديدة داخل السودان الأدر الذى فكك وحدة الدولة القديمة التى كانت تقود الفتوحات . وهذا التفكك آتى لاشك نتيجة لتوسع أفراد الأسر المالكة خلال

الفترة المسيحية ، مما ساعد على ضعف سيطرة الملوك على سكان السودان نتيجة للخلافات الداخلية بينهم . فقد كانت الديانات الوثنية الفرعونية حتى القرن السادس الميلادى تجبر الأفراد على عبادة الملك وتجعله أبن الآلهة آمون وكانت للملوك سلطة روحية على هذه الشعوب فجاءت المسيحية تحرر العقول من هذه السلطة الوثنية وعادت للناس حرية العبادة الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى تفكيك الدولة الوثنية بفقدانها سلطانا روحيا قوياً على الناس وبذلك قل ولاء الناس المطلق للملك والعبادات الوثنية ، كما تدخلت الكنيسة فى كشف جانب كبير من الحياة الروحية والعقلية لهذه الشعوب منها حياة الدير والرهبنة وسماعهم لأول مرة مثل هذه الآيات المسيحية :

(١) بالحقيقة نؤمن بالرب . . .

(٢) الله الرب ضابط الكل . . .

(٣) خالق السماء والأرض ما يرى وما لا يرى . . .

(٤) نؤمن برب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور . . .

(٥) الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا . . .

(٦) الذى ليس لملكه إنقضاء . . .

(٧) نؤمن بالروح القدس الرب المحى . . .

(٨) وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى .

(٩) ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا .

مثل هذه الآيات الكريمة من الانجيل كان لها ولاشك تأثير بليغ على التفكير العام عند الناس . فقد كانوا يؤمنون بالاسطوره وألوهية الاصنام والبشر وإذا بهذه الايات تفتح لهم آفاقا جديدة فى التفكير للحياة والآخرة وتعيد لهم إنسانيتهم وفرديتهم وحريتهم من التبعية لأى فرد . مثل هذه الأفكار الواردة فى تلك الايات الكريمة . لاشك خلقت نوعا من الانفصال والتمرد وعدم الطاعة وفصلتهم من حياة مسخرة لأن طاعة الملك كانت عندهم طاعة الالهة وأرضاءه هو ارضاء الالهة وإذا بهذا الدين الجديد يفتح إذهانهم لعالم الحق وعبادة صحيحة تذهب إلى اله واحد خالق لكل هذا الكون . . . .

كان تأثير هذه الايات ليس وقفا على عامة الشعب ولكن على الملوك الذين أول من آمن بالمسيحية وأنفتح عقلهم لحقيقة الحياة وإنكشف لهم نور الحق ولاشك إنهم تأثروا حتى إنهمرت ادمعهم للتكفير عن خطاياهم السابقة وتسخيرهم للبشر وإقتنعوا بالايمان بمعاملة الناس بالحسنة واللين ومايرضى الله وقلة مطامعهم فى الدنيا وأنشغلوا بالعبادة ومعرفة أسرار هذه الآيات التى فتحت أذهانهم للحقيقة الكاملة مثل هذه الايات (الذى به كان كل شىء) وأيضاً يأتى من مجده ليدين الأحياء والأموات ، وكذلك مثل هذه الصلاة : « حيا البشر الصالح ، سيدى يسوع ، إطلب إليك لاتطرحنى عن شمالك مع الخطاة . ولاتقل ايضا أنى لست أعرفك ، إذهب عنى يامستعد للنار الأبدية لا لأنى أعلم بالحقيقة إنى خاطىء . . : أمنحنى يارب توبة كى أتوب قبل أن يغلق الموت فاى فى أبواب الجحيم . . . . وهذه من الصلوات الخاصة بالرهبان التى كثيرا ما كان يسمعها أهل الحاشية ولامكانية البيت المالك دخلت المسيحيه عليهم واثرت فيهم قبل غيرهم فى قلوبهم وتفكيرهم حتى شغلته بخطاياهم وآثامهم والتكفير عنها .

دخلت المسيحية وفتحت العقول نحو الحياة الأبدية والخطايا والغفران

وشغلتهم عن مكاسب الدنيا والفتوحات وقل بذلك نشاط الحياة اليومية لانشغال الناس بالعبادة والخوف من العذاب فى الحياة الآخرى مما شجع لصرف الأموال فى سرعة فائقة لبناء الكنائس والاديرة واحترام الرهبان والمتعبدين وشاركت الخزينة العامة بنصيب وافر فى هذا العمل المفيد فى الاخرة .

ملأ الايمان بالله قلوب الناس والملوك وأصبحوا يتسامحون حسب وصايا الرب فى كل شىء حتى مع العرب النازحين من الشمال بيشائر دينهم الجديد . وترك لبقية الناس حرية العبادة ولم تفرض عليه الديانة الجديدة وماجاء نقلا عن « جكسن » فى عهد السلطان عبد القادر الذى خلفه السلطان عمارة حوالى ١٥١٧ م أن أهالى جبال موبا وشندى ظلوا يقدمون فتاة كل عام قرباناً للآلهة كى لاتمنع عنهم المطر وذلك نتيجة للتسامح الدينى الذى جاءت به المسيحيه .

هذا يكشف لنا الوضع العام للحياة الاجتماعية والحرية التى تمتع بهما الفرد بعد دخول المسيحية ورغم إن السودان كدولة موحدة لم يظهر ويهتم بالاحداث الخارجية إلا أن الحركة التى خلقها العرب والاسلام فى الأراضى المجاورة قادت لشل هذه الحركة رغم تعرض السودان لكثير من المناوشات من الشمال والشرق مما قاد لتدهور الممالك السودانية من ظهور ممالك إسلامية جديدة لم تستطيع إخراج السودان من عزلته وتفاعله مع الأحداث نتيجة للاضطراب التى عمت الشرق وأفريقيا وسنحاول أن نتتبع الحياة قرنا بقرن حتى يستطيع نملأ هذا الفراغ الذى أوجدته الكتابات التاريخية .

دخلت المسيحية السودان وفن الحضارة الفرعونية فى السودان يتدهور بتدهور الدولة وضعفها ، وإنقسامها وانفصالها عن أرض طيبة وأصبحت الحضارة الفرعونية معزولة عن أرضهـــا الأولى وذهبت تجوب أرض

السودان حتى وهنت قواها ووقفت حركة البناء والتشييد التى هى عماد العبادات الفرعونية وحضارتها .

كانت العبادات الوثنية الفرعونية هى الحافز الأول لازدهار النيل بهذه الحضارة الفنية وهذه التماثيل الجميلة وهذه المعابد العديدة . عرف الإنسان الأول الفن كأجمل شيء يمكن أن يؤثر ويريح الفرد فطور هذا الفن بعد أن أصبحت الآلهة قطعة فنية . فكان لزاما على الفنان الابداع فى خلق هذه الالهة فى أبدع صورة فنية . وكان تسابق الفنانين لأرضاء الالهة والفراعنة والكهنة هو الدافع الأساسى لهذا التطور الفنى الذى ملأ النيل وفاق حد التصور فى تلك العصور البعيدة حتى تطور وفاق كل الأعمال الانسانية الاخرى .

نشطت حركة الفن فى تلك العصور من جانب مواهب الإنسان الأخرى ولكن الالهة كانت هى اسمى مايتمناه إنسان النيل . أن ترضى عنه الالهة . . وكانت منية الفنان أن ترضى عنه الالهة ليخدمها ويصنع لها تمثالا أو يرضى عنه الملك أو الكهنة باعتبارهما يمثلان الآلهة ورضاهما جزء من رضاء الآلهة . . . وكان الإبداع ضرورة أوجدها هذا الحافز وهذا الحب فانتشر الفن فى كل أرجاء النيل وأصبح عمل التماثيل الكبيرة والصغيرة هواية وأمنية لكل فرد . . . وهذا تكشفه لنا الأعداد الهائلة من التماثيل الصغيرة للآلهة التى خلفتها لنا تلك الحقبة من الحضارة . . . وقد قال المؤرخ الإغريقى هيردوت الذى زار مصر فى القرن الرابع قبل الميلاد أن المصريين يتمسكون بدينهم وعاداتهم لدرجة بالغة ويتلون المراسيم أكثر من أى شعب .

هذا ما قاله هيردوت الذى رأى المصريين وحبهم لعباداتهم وهو تصور بسيط للحالة التى كان فيها الإنسان على النيل . . . فقد كانت العبادات بما فيها

عبادة الآلهة والملك والكهنة هى القوى المسيطرة على طاقة سكان النيل وكان سكان النيل عجينة طيبة فى يد الفراعنة والكهنة لتسخيرهم هذا التسخير وتقديم آلاف الضحايا للقيام بنقل الأحجار الهائلة فى ذلك الوقت الذى لاتوجد فيه الرافعات الحديثة والإمكانيات التى لدى الإنسان الآن .

ظلت الآلهة هى القوى المحركة والمسلطة على طاقة الإنسان وكان الفن هو طلب الآلهة فأبدع إنسان النيل ليرضى هذه الآلهة وقامت المعابد فى سمنة وبوهين والبركل . . . وبقايا آثار البركل تكشف لنا روعة فن النحت والبناء الذى يكاد لايوجد عند إنسان عصرنا بل يكاد فن النحت لايوجد عندنا الآن لا بتلك الروعة ولا بأقل منها لانحطاط هذا الفن من عصور ساحقة قديمة منذ ظهور المسيحية التى وجدت الحضارة الفرعونية قد وقف نموها فى مصر وغلبت عليها الحضارة الرومانية وحلت محلها إلا من المجاورين للمعابد القديمة والذين حافظوا على عباداتهم الوثنية ولكن رعاية الملك لها وتسخير إمكانيات الدولة المادية للرقى بها قد وقف . وكذلك الحال فى السودان بعد أن سقطت حضارة الفرعونية فى مصر تحت إقدام الحضارة الفارسية والإغريقية والرومانية التى تقلبت عليها . ووقفت عندها حركة التقدم الفنى ، وأصبحت المعابد القديمة كافية لقضاء العبادات وقلت حمية الناس للعبادات بعد أن سقطت مدائن آلهة عباداتهم تحت تأثير عبادات أخرى كما قلت نزعة الملوك لتسخير الناس للبناء والتعمير حتى قلت الأيدى الماهرة ، وضعفت عند الناس الرغبة فى صنع الآلهة بنفس الحماس القديم حتى جاءت المسيحية لتنهى عبادة الأوثان ، وهى تعلن بمذهبها الجديد إيقاف صناعة التماثيل والمعابد ومات فن النحت فى السودان ، وانتشرت الأيدى على طول النيل وانتشرت تعاليم المسيحية تحرم عبادة الأوثان وبذلك وقف فن النحت فى السودان ويمكن أن نؤرخ لبداية وقوف هذا الفن من القرن السادس الميلادى بإيمان ملك علوة بالمسيحية . وبإيمان المسيحية فقدت

العبادات الوثنية مثلها وهو الملك والذى كان يجبر الناس على إنشاء التماثيل وقيام المعابد . . .

وربما ظل بعض الأفراد على عباداتهم الوثنية يصنعون تماثيلهم الصغيرة ولكن هـــذه الحالة لم تكن كافية للاحتفاظ بالفنون التى نشأت فى حضن العبادات الوثنية .

جاءت المسيحية ولم تؤثر فى الحياة العامة كثيراً مثل تأثيرها على إيقاف تطور الفن جاءت المسيحية وعادات أهل السودان القديمة ما زال منها بقية حتى الآن ولو نحن تابعنا ما قاله هيردوت الذى وصل إلى جنوب مصر فى القرن الرابع الميلادى وما سجله عن عادات وأخلاق أهلها التى لا تختلف فى كثير من عاداتها عن عادات أهل السودان على أرض النيل .

عادات أهل مصر فى العصر الفرعونى

إن معظم اخلاقهم وعاداتهم مناقض تماما لاخلاق وعادات غيرهم من البشر فتعمر نساءهم الاسواق ويتاجرون ، بينما يمكث الرجال فى البيوت أمام الأنوال وبينما يتبع بقية العالم فى النسيج أن تكون اللحمة فوق السـداه فأن المصريين يجعلونها أسفلها . كما إن النساء يحملن الاثقال فوق اكتافهن بينما يحملها الرجال على رؤوسهم . ويتناول المصريون طعامهم فى الطرقات خارج بيوتهم ويأوون الى بيوتهم للاغراض الخاصة وحجتهم فى ذلك أن العمل غير اللائق والضرورى فى وقت واحد يجب أن يتمم فى سرا أما الأمور الخالية من أى شىء غير لائق والضرورى فيجب أن تحدث فى الطرقات علنا ومحظور على المرأة الاشتغال باعمال الكهنة سواء للآلهة أو للربات فى حين يقوم الرجال بوظيفة الكهنة لكليهما، ولا يلزم الابناء بكفالة والديهم الا باختيارهم — أما البنات فلزمات بذلك سواء كان هذا برضاهن أو على كره منهن .

يطيل كهنة الدول الاخرى رؤوسهم أما كهنة المصريين فيحلقون رؤوسهم ومن العادة فى جميع بلاد العالم أن يحلق الناس شعورهم حدادا على الاقارب اما المصريون الذين من عاداتهم أن يحلقوا رؤوسهم فى الحالات العادية فيتركون لحاهم وشعورهم ورؤوسهم تطول عندما يموت قريب لهم ويعيش الناس فى البلاد الآخرى بمعزل عن الحيوانات ولكن المصريين يعيشون دائما مع الحيوانات وتتغذى الشعوب الاخرى بالشعير والقمح بينما يعتبر المصريون ذلك عارا أى عار ويتغذون بالذرة الهندية التى يطلق عليها البعض إسم زيا ويعجنون الدقيق بأرجلهم أما الطين فيخلطونه بايديهم كما يحملون القاذورات والتراب بأيديهم ايضا وهم الشعب الوحيد فى العالم الذى يعرف الختان ومن يعرفه من الشعوب الاخرى

فقد تعلمه من المصريين ويلبس رجالهم ثوبا من قطعتين إما ثوب النساء فمن قطعة واحدة كما يلبسون الخواتم ويربطون حبال الاشرعة من داخلها إما غيرهم فيربطها خارج الشراع . ولا يكتبون كالاغريق من اليسار إلى اليمين بل من اليمين الى اليسار ورغماعن هذا يصرون على أنهم يتجهون نحو اليسار ويتخذون نوعين من الكتابة ويطلقون على أحدهما اسم « المقدس » وعلى الثانى اسم « العادى » .

ويتمسك المصريون بدينهم الى درجة بالغة ويتلون المراسيم اكثر من أى شعب آخر ويتبعون هذه المراسيم ـ يشربون فى أقداح نحاسية .

ويجلونها كل يوم ولا يشذ عن هذه العادة أحد قط فيلبسون ثيابا من التيل يحافظون دائما على أن تكون منسوجة حديثا ويزاولون الختان بقصد النظافة مفضلين اياها على حسن المظهر . ويحلق الكهنة جميع جسمهم كل يومين حتى لا يعلق به القمل والاقذار الاخرى . وهم يقومون بخدمة الالهة . وثيابهم كلها من التيل وأحذيتهم من نبات البردى ولا يصلح لهم أن يرتدوا ثيابا أو أحذية من مادة أخرى غير هاتين ويستحمون مرتين يوميا بالماء البارد ومرتين فى كل ليلة وعلاوة على هذا العادات لهم الاف من العادات الأخرى .

وقد استرعى هيرودوت عدم تعفف الفلاح المصرى فى السكن مع أغنامه . وجمع روثها بأيديه والاستفادة منه . وخلط الطين بأيديهم . كما قال أنهم الشعب الوحيد الذى يعرف الختان وهذه العادات التى مرت عليها آلاف السنين تكاد نجدها عند الفلاح المصرى . وعند معظم سكان السودان إن كان خاصاً بالختان الفرعونى الذى ما زلنا نحتفظ به فى الاقاليم أو غيره . وهى لا تدرى ما هو تاريخه أو ماضيه .

بقاء معظم هذه التقاليد القديمة والتى لا تساير التطور ولا تعاليم الأديان . تكشف لنا عن حقيقة هامة وهى أن إنهزام الحضارة الفرعونية لم يكن إنهزاما لكل عاداتها وأخلاقها . . كما يكشف لنا أن تعاليم الكنيسة التى دخلت قبل الإسلام لم تكن بالتوسع والانتشار حتى تطور تلك العادات والتقاليد . وكان يجب أن يحدث هذا . أن تضيف الأديان إلى حضارة الشعوب ثقافة وفكرا وبعثا ، والذنب ليس ذنب المسيحية أو دعاتها أو رسلها الذين دخلوا السودان ولكن ظروف هذه الدعوة فى السودان والأحداث الخارجية فبعد قرن من دخول قبابها للسودان وظهر الإسلام ناسخا لكل الديانات ، وأصبحت مصر دولة إسلامية ، وانعزل السودان عن حركة المسيحية فى العالم حيث كان لها سند عالمى لنشرها والدعوة لها بعد أن استقرت فى شرق البحر الأبيض واعترفت بها قياصرة الروم .

جاء الإسلام إلى أرض النيل والمسيحية ما زالت فى مهدها فى السودان تمارس تعاليمها بصعوبة فائقة ، فكتبها باللاتينية والقبطية بخلاف لغة أهل السودان وكتبهم المروية القديمة . وتخريج رهبان من أهل السودان كان يتطلب زمنا ليس بالهين ودخول الدعوة المسيحية عليهم ليس بالأمر اليسير ، ولكن رغم ذلك لإيمان ملوك دنقلة وعلوة بالمسيحية ، توسعوا فى إنشاء الكنائس وقامت الأديرة بجوار الكنائس . لكن الدير فى السودان حسب ظروف دخول المسيحيين لم يجذب الناس اليه كما كان فى مصر . فقد اضطهد المسيحيون فى مصر حيث دفعهم الاضطهاد لاخذ اسلوب خاص فى العبادة . . اما فى السودان فقد دعى ملوك علوة ودنقلة لهذه الديانة . فكان أمرهم اصعب لنشر الدعوة ثم ترغيب الأفراد فى أخذ حياة الدير كنوع من السمو فى العبادة .

عملت الديانة المسيحية على تحرير العقل السودانى من تسلط المملوك

والكهنة والعبادات الوثنية وفتحت له الحياة من جديد ليأخذها بمفهوم جديد بخلاف ما توارثت عليه الأجيال . ولكنها عجزت أن تقف بجانبه وتسد له هذا الفراغ الكبير الذى حدث فى عقله بعد عبوديته لتلك الأوثان والتفكير فيها لم تكن إمكانيات المسيحية بالقدر الذى يتيح لها أن تعلم الناس جميعها تعاليمها أو اللغة الجديدة التى جاءت بها الديانة .

* * *



أحد أفراد قبيلة الشكل التي أمتد نفوذها في العصور القديمة إلى أرض الجزيرة . .

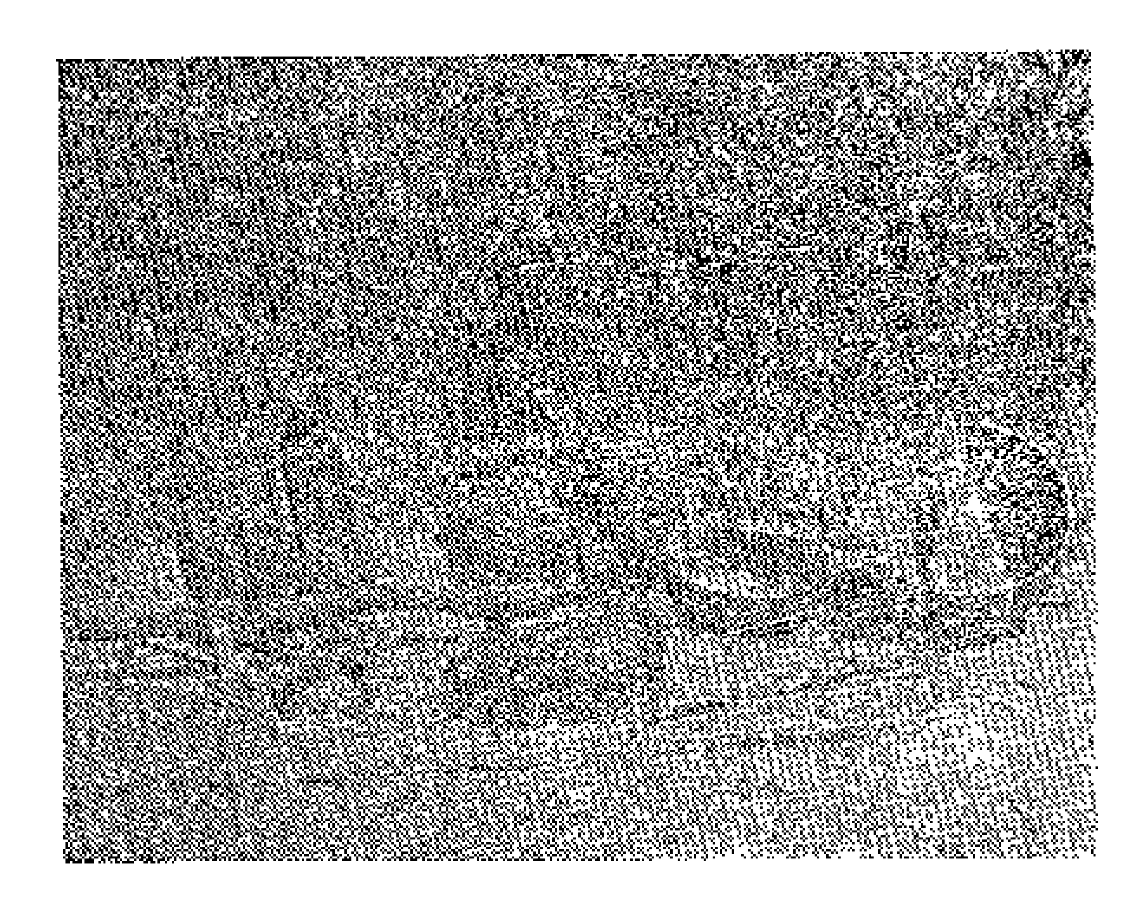
الزينة كانت من أجل الأشياء المحببة إليه . تكشف عن طبع رقيق رغم الصرامة البادية عليه .



التقاليد الافريقية عريقة قديمة لها قداستها واحترامها . . أفراد من قبيلة الشلك في زيارة لاحد القرى . . يجلسون خارج القرية قبل دخولها.



استخدام الألوان والحركات الرياضية استعداداً للحرب والرياضة.



يد الانسان كلما لمست شيئاً جعلته جميلا . والإنسان بطبعه لا يترك الطبيعة كما هي . . أنظر إلى أدواته المنزلية ومحاولة الشنك خلق شيء مقبول الشكل .

الكنيسة وماقدمته للحضارة فى السودان

وقبل الاجابة على هذا السؤال يجدر بنا العودة إلى نشأة الكنيسة فى الاسكندرية ووادى النطرون ومملكة نوباديا ونشأة الأديرة والنظم الكنسيه فى مصر والعالم الذى استنار بخبرتهم وتعاليمهم :

بعد الاضطهاد الذى وجده المسيحيون بمصر ومحاربة أباطرة الاسكندرية وقياصرة الروم للمسيحيه وقتل كل مايعتنق هذه الرسالة التى تخالف تعاليم أباءهم وآلهتهم لجأ معظم المسيحيون إلى الجبال والوديان والكهوف للعبادة والتقشف سالكين فى ذلك مسالك المسيح وحياة الوحده والصوم والصلاة جعلتهم مثلا يحتذى به بين الافراد المسيحيين وأوضح ذلك فى رسالة بولس الرسول إلى الكورنثيين حيث تضمنت رسالته إليهم تفضيله لهذا النوع من الحياة وإن لم يكن أمرا لهم ولكنهم كان دعوه لافضل الطرق للحياة المسيحية كما تصورها حين قال (إنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا (أى اعزب) ولكن لكل واحد موهبته الخاصة من الله الواحد ، هكذا والاخر هكذا ولكنى أقول لغير المتزوجين وللارامل أنه حسن لهم اذ لبثوا كما انا - اذن من تزوج حسنا يفعل ومن لايتزوج يفعل أحسن .)

وبهذا المفهوم للعبادة خرج المضطهدون فى المسيحية من المدن المصرية إلى الصحارى والجبال ولم يكن فى خلدهم إنهم بهروبهم هذا والتجاءهم للوحدة من الظلم والبطش والعيش على الكفاف سيخطون المبادىء العامه للحياة المسيحية ورجال الكنائس فى المستقبل .

وقد كثر عدد الرجال المحتمين بالجبال يؤدون صلاتهم وصومهم وشعائرهم

الدينية كل فى ادى منفرد بعيداً عن الآخر .

وقاد الضغط والارهاب إلى إزدحام هذه الاودية ومنها وادى النطرون وجبل نتريا ومليا وبرية شيهيت والصحراء الشرقية وسينا والصعيد حتى وجد هؤلاء النساك الزاهدون فى الحياة فى وقت ما أنهم قد ملأوا الاودية والصحاري بعضهم فى النسك والعبادة أن دفعت بالكثيرين الذهاب إليهم لتعليمهم حياة النسك والوحدة والعباده . وكانت هذه أول خطوة لميلاد تعاليم النسك والرهبنة فى العالم وأزداد عدد المسيحيين الهاربين كما راجت سيرة هؤلاء النساك من الذين بذوا الآخرين فى هذا السلوك وجعلوهم مثلا أعلا الراغبين الذين إلتفوا حواليهم طلباً للتضحية والارشاد لترويض الجسد على تحمل الجوع والتقشف ونكران الذات والشهوات الجسدية .

وكان وادى النطرون هو أول مدرسة يجتمع فيها هؤلاء التلاميذ حول المشائخ من النساك ليخطوا تعاليم المسيحية ومستقبلها .

ومما يذكر إن القديس أنطونيوس (٢٥١ — ٣٥٦ م) هو المنشىء الحقيقى للنظام الرهبانى بعد أن مهد له ما سبقه من النساك .

فقد ذهب الشاب أنطونيوس إلى الكنيسة فسمع الكاهن يتلو من الانجيل ، ولكن آية واحدة وقعت فى نفسه وملكت عليه فكره وهى (إن أردت أن تكون كاملا فأذهب وبع كل مالك وأعط الفقراء وتعال أتبعنى فيكون لك كنزا فى السماء) فما كان منه إلا أن عمل بما جاء فى الآية وباع ممتلكاته وقسمها للفقراء وخرج إلى مكان قريب من قريته وبنا له كوخاً إلى جوار الشاطىء يدرب نفسه

على حياة النسك والعزلة . . ولكنه لم يقم بهذه المنطقة طويلا لوجود كثير من النساء بالقرب منها . فرحل إلى المقابر ثم فى حصن بهور فى منطقة بسبير على الضفة الشرقية على النيل . . وكان يمده بعض الناس بالخبز الجاف ثلاث مرات فى العام دون الاتصال به وجذبت شهرة القديس انطونيوس كثير من التلاميذ اليه ولكنه لم يقم فى هذا المكان طويلا فقد أشترك فى تشجيع المستشهدين والمسجونين الذين لقوا حتفهم حين هدمت الكنيسة ولقى المسيحيون أكبر مجازر القتل والاستشهاد ثم ارتحل القديس انطونيوس إلى الصحراء الشرقية — وهنالك بجانب الصحراء والوحدة شغل نفسه بالزراعة . . ووجد القديس أنطونيوس بعد زمن وجيز أن المنطقة قد امتلأت بالعشش والأكواخ من تلامذته الذين لم يروا أن يبعدوا عنه . . فاضطر إلى الرضوخ لرغبتهم ليزودهم من تجاربه فى حياة النسك والوحدة وهكذا كانت المسيحية فى مرحلتها الاولى هو إكتشاف الأسلوب المناسب لترويض الجسد والروح للعبادة ، فرضته ظروف الظلم والاضطهاد الرومانى للمؤمنين ثم طور هذا النظام الراهب بباخوميوس الذى إشترك فى الحملة التى جردها الامبراطور قسطنطين لإخضاع والى الحبشة المتمرد . ولما عاد بباخوميوس من الحملة ذهب إلى قرية تابنيس قرب قرية قنا وما لبث أن أجتمع الرهبان حوله وبدأت لأول مرة حياة الشركة الجماعية للرهبان وحاول بباخوميوس إلى خط تعاليم ونظام لجماعته . وسمى المكان الذى أجتمع فيه جماعته من الرهبان باسم الدير . وفى داخل الدار وضع لهم بباخوميوس نظاماً دقيقاً لحياة الرهبان وأول هذه الواجبات الطاعة العمياء للرئيس . ووسع هذا الدير حتى وصل عدد الرهبان به إلى الفين وخمسمائة عاشوا حياة جماعية لأول مرة فى حياة المسيحية وبدأ التوسع فى الاديرة على نظام هذا الدير الأول .

ونظم الانباء بباخوميوس الخدمة فى داخل الدير بين جماعته كل حسب قدرته الجسدية منهم الخبازين والطباخين والسفرجية والخادمين والمرابين من الشيوخ

الورعين وبيت للضيافة يشرف عليه راهباً ورعاً يستقبل الراغبين فى حياة الدير وحتى يمتحنون ويثبت صلاحيتهم لهذه الحياة فى فترة أختبار لمدة ثلاث سنوات وجعل لكل دير راهباً مشرفاً مالياً عليه

ودخلت الدير اللغتين القبطية والاغريقية حتى تيسر للمجتهدين الاطلاع والدراسة حتى تؤهلهم لمراكز قيادية فى حياتهم الدينية والعلمية وظهر كذلك دير النساء وقد تكون من اخوات هؤلاء الرهبان الذين حاولوا أن تشارك المرأة فى هذه الحياة الديرية حتى تسمو بتركها لملذات هذه الدنيا من أجل الحياة الاخرى ...

أما الحياة الداخلية للراهب فكان معناها الفقر والتقشف حيث تقول الآية (انظروا إلى طيور السماء فأنها لاتزرع ولاتحصد ولاتخزن فى الاهراء وأبوكم السماوى يقوتها)

وقول السيد المسيح فى الاغنياء الحابسين أموالهم عن فعل الخير .. (دخول جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات) وكتبه بولس الرسول ينصح العبرانيين و لتكن سيرتكم خالية من محبة المال وكونوا مكتفين بما عندكم .. لانه قال لاأمملك ولا أتركك) ولكن هذا الكراهية للمال وتكديسه لم تحافظ عليه الكنيسة فى العصور التى تدخل فيها التاج فى أوربا فى ترشيح رؤساء الكنائس ودخلت الكنيسة مرحلة الإقطاعيين فى العصور الوسطى كما كان فى اوربا وكنيسة الحبشة أما فى السودان فلم تتطور الكنيسة لهذا الوضع الاقتصادى رغم أنها يبدو كانت فى حالة مالية حسنة بالنسبة لعدد الكنائس التى قامت فى شمال السودان ومدينة سوبه التى وصلت فيها إلى عدد هائل ومبانى جميلة ورائعة .

وتقتضى الحياة اليومية عند الرهبان وهى الأساس لتطوير الفكر الدينى وتأثيره على المجتمع بالقواعد الاتية :- ومن أول هذه الواجبات الصمت والانفراد والصلوات ويقول النظام الذى وضعه القديس مكاريوس الكبير (إذا بلغت الساعة الثالثة (حوالى الساعة التاسعة صباحا) فقف قدام الصليب وأجمع افكارك فى فهم القراءة التى قرات واسجد بتخشع لربنا بوجع ودموع ، ليعطيك فهم مزمور داود وإذا أبتدأت بالقراءة فلا تستعجل بل أفحص المعرفة الخفية فى المزامير وإذا إكملت صلاة الساعة السادسة كالعاده والقانون الموضوع عن الاباء أقرأ كتاب الاباء إلى الساعة السادسة (منتصف الليل) وأفهم ماتقرأه ثم ضع الكتاب وقدم التسبيح وأسجد قدام الصليب وأنظر بعقلك إلى يسوع المسيح ومن السادسة إلى التاسعة (الثالثة بعد الظهر) إن كان لك عمل يدوى فأصنع ماتريد ولا تترك قانون المطانيه (السجود ، من أجل عمل يديك لان الاباء عملوا فى الفلاية بمخافة الله من غير شره)

ومن هذا يتضح لنا إن الصلاة والصمت والتفكير والتأمل والانفراد كانت من أهم واجبات الراهب وعدم شغله بالحياة العامة ... إنما التفكير فى الخطية الكبرى ومحاولة نبع حياة تأملية شغلت الرهبان عن مجريات الامور خارج عالمهم والمشاركة فيه وعدوا تقسيم أفضل العباد بهذا السلوك وما يعنينا فى هذا السلوك هو التوسع فى التفكير الدينى الفلسفى أما عدا ذلك فقد كانت الصلوات والمزامير أفضل منه .. والكتب الدينية كانت أفضل منه دونها من الكتب ولذلك كانت مكتبات الإديرة فقيرة من الثقافة العامة وأمتلأت بالكتب الدينيه وهذا لاينفى وجود الكتب التاريخية والادبية ولكنها لم تكن تجذب الرهبان مثل الصلوات والمزامير الا للذين أرادوا أن يتزودوا من معارف الدنيا وأشتغلوا بأمور علمية داخل الاديرة وشغفوا فى حبهم للعلم للاستقطاع من وقت صلواتهم للاطلاع والقراءة . الأمر الذى أخرج من الكنيسة الاوربية فى

العصور الوسطى رجالا منها ذو فكر ثاقب ثاروا على جمـــود تعاليمها وخضوعها للملوك أوربا وثورتهم على موقف الكنيسة من مشاكل العصر حين تعرضت الشعوب الأوربية لظلم وبطش الأمراء والملوك والاقطاعيين فى أوربا ورأت الكنيسة أن عذاب الجماهير نوع من الرياضة والتكفير عن الخطايا وأنه مفيد للحياة الانسانية المليئة بالخطية ولم ترى فى جرم الاقطاعيين غير تركهم لعقاب الاخرة ولم تحاول أن تقف موقفاً إيجابيا لايقاف هذا الظلم الأمر الذى قاد لظهور موجة الالحاد فى القرن الثامن والتاسع عشر باتخاذ . . الكنيسة الخاضعة لسلطان الملوك الاقطاعيين هذا الاسلوب السلبى من الجياع والمشردين والمعذبين من بنى الانسان فى حين نعيش هى التى تدعو للتقشف حياة اقطاعية ونسيت الآية التى تقول : (لاتحبوا العالم ولاشيئا مما فى العالم فمن أحب العالم فليست فيه محبة الله) وأسكتوا الجياع والعبيد بهذا المفهوم ولم يحاولوا هم أن يتجردوا من اقطاعيتهم ولم يحاولوا أن يجردوا الاقطاعيين من املاكهم ويقنعونهم ببطلان الحياة .

المسيحية فى السودان

كان لرهبان وادى النطرون أثر كبير في حياة المسيحيين

كانت الفترة من القرن الاول لظهور المسيح إلى القرن الخامس والسادس فترة خصبة فى حياة مصر بين صراع المسيحية وعداوة القياصرة الرومان وبين اصرار رواد المسيحية الاوائل وتحملهم العذاب والصمود أمام التعذيب والتشرد وضرب أروع الأمثلة فى الإيمان والتقشف والتواضع وسلوك روادها الاوائل الهادى المتواضع جعل لهذه الديانة قوه سحرية بين عامة النـاس وبين التضحيات التى قدمها أبناء الاغنياء من الاسراره الكبيره ولبسهم الوبر والخيش والصيام عن الأكل وتحمل العذاب كل تلك الصور كانت تسبق المسيحية إلى الاراضى التى لم تظهر فيها وقدم الاقباط فى مصر لهذه الديانة أروع الامثلة وخرج منهم نفر كان له الأثر الكبير فى الدفاع وبقاء هذه الدعوة على أرض النيل .

ظهرت المسيحية فى مصر وهى ترزخ تحت بطش قياصرة الروم وانتشار دياناتهم وحضاراتهم وسلطهم تملاء أرجاء مصر . ظهرت هذه الديانة والرومان معتزون بمجهدهم وحضاراتهم وفنونهم وآلهتهم قد أثرت هذه الديانة التى جاء بها رجل بسيط . بسيط فى كل شيء فى ثيابه ومساره وحديثه وأفكاره وأمثلته جاء هذا الذى يشبه الراعى لحطم آلهـة هؤلاء المغـرورين بدياناتهم وآلهتهم . . . هؤلاء الذين كانوا يظنون أنهم أسياداً على كل الدنيا وأنهم أفضل المجموعات . . . يتجرأ راعى بسيط ويقيم ديانة جديدة تدعوا إلى آلهة غـير الههم ويجرؤ إلى تحطيم الهتهم وعدم الاعتراف بها . وبهذا المنطق صب قياصرة الرومان جام غضبهم وبطشهم على كل من يجرؤ للاقتراب من هذه الديانة الجديدة . ولكن

بالرسالة كانت أقوى من بطش القياصرة والايمان بها كان يسعد بالتعذيب . . .
كانت مثل هذه القوة المقابله تصل للمسيحيين من البسطاء الارقياء كافيا لخلق أروع أمثله الاستشهاد في الصبر على الاذى ورفع المؤمنين درجة عاليه من الايمان والاعجاب بين عامه الشعب .

أحتلت مصر وكنيسة الاسكندرية ورهبان وادى النطرون مكانة سامية فى تاريخ المسيحية . وكان لهم فضل كبير فى حفظ المسيحية بعيداً عن بطش قياصرة الروم فى أقصى الظروف حتى وضعوا لها من التقاليد ما بات منهجاً حتى اليوم وجزءاً من تعاليم المسيحية كما اضاف رهبان وادى النطرون فكرة الدير فى حياه الكنيسة وادخلوا دير الراهبات وكذلك لعبوا دوراً كبيراً فى الصراع الكنيسى الذى قام بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة القسطنطينية وكنيسة روما حتى كان هذا الصراع سبباً كافياً لجذب الانتباه المسيحية والتفكير فى هذا الصراع الذى دار بين كنيسة القسطنطينية التى أدعت أن المسيح على لسان نسطوريوس أسقف القسطنطينية فى تلقيبه للسيدة العذراء بوالدة الالهة وأن المسيح شخصان متباينان يعمل كل منها مستقل عن الاخر أحدهما آلهى وثانيها إنسانى فتصدى لانسطوريوس الانبا كيرلس الاول بابا الاسكندرية الرابع والعشرين وأعلن فى توكيد أن المسيح شخصية متكاملة جمع فيها بين اللاهوت والناسوت جمعا لاإختلاط فيه ولا إمتزاج ولاتغيير ووقف بجانب الانبا كيرلس رهبان وادى النطرون

وخرج الرهبان من المعتصبين بالجبال والأوديه للدفاع عن عقيدتهم وارتفع شأن مصر وعلى أسم رهبانها بين كنائس العالم وأصبحت مزاراً لرهبان البلدان المختلفة وخرج منها رهبان إلى كل الشعوب أثروا فى منهج المسيحية وسلوك روادها وابتدعوا لهم المثل الأعلى لعبادة الدير وأعطوهم من تجاربهم الكثير .

وقد كان صعيد مصر وواحاتها ملجأ للرهبان من أيدي البطش والتنكيل وظهر الرجال البسطاء العزل المتقشفين بين السفوح والوديان بين القبائل النائية . . فكان منظر هؤلاء الرهبان حافزاً كبيراً لجلب كثير من الانصار للمسيحية . . وكسب عطف الناس على هؤلاء المساكين ...

لقد كانوا في حاجة لكل عون إنساني وقد أحيوا الله في أجمل صورة . . . ولذلك لم يجدوا أي معاملة قاسية من الجماعات التي ينزلون عندها أو يقابلونها ووصل منهم البعض لشمال السودان فقد كانت مملكة نوباديا شمال دنقله مركزاً هاما من مدارس الرهبان .

لقي المسيحيون الكثير على أيادي قياصرة الاسكندرية وابيد المسيحيون بمجموعات كبيرة وكأن الهروب هو الوسيلة الوحيدة لهم ولما كان شعب السودان له ذا علاقة طيبة بهم لم يضطهد الفارين من مجازر القياصرة وما فعله الملك دوقيوس قيصر عام ٣٤٩ م من مجازر ومطاردة للمسيحين والرهبان كفيل بأن يضطر هؤلاء العزل للهروب إلى الوديان والجبال والكهوف حتى اراحهم الله من هذا العذاب باعتناق قسطنطين الأكبر ٢٩٥ م للمسيحيه وجعلها دين الحكومة بعد بطش الامبراطور دقلديانوس ٢٨٤ م بأهل مصر لتمرد واليها عليه فقفل الكنائس وأحرق الاسكندرية واجبر الناس على عبادة الاصنام وعرف عامه بتاريخ الشهداء وهو تاريخ السنة القبطية .

وأثر رهبان مصر في نشر المسيحيه وخرجوا إلى كثير من بقاع العالم بعد أن عمت المسيحية مصر وأصبحت دين الدولة ومن هؤلاء الرواد الرهبان الذين تتلمذوا على رهبان وادي النطرون القديس أوغسطين الذي ترك روما عام ٣٨٨م قاصداً شمال أفريقيا ونشر المسيحية في الحبشة والشاطىء الأفريقي .

وأول ما أسسها بمدينة هيبو حيث عين قساً لها عام ٣٩٦ م فخط الحياة الرهبانية وبعث المسيحية بين شعب شمال أفريقيا ونقل اليهم نظام الدير للرهبان والراهبات حتى كان زمن بسيط عمت المسيحية شرق أفريقيا والحبشة .

وقد ظل السودان بعيدا عن هذه الدعوة إلا من التجأ اليه من المسيحيين حتى ظهرت المسيحية بين سكان النوبة وشمال السودان .

وأخذ الصراع المسيحى يقل بعد أن أصبحت المسيحيه دين الدولة بين مذهب كنيسة الاسكندرية الارثوذكسية ومذهب كنيسة روما ... وكان من مظاهر هذا الصراع تنافس الامبراطور جستنيان (٥١٧ – ٥٦٥م) وبين زوجته ثيودورا التى كانت تتبع للكنيسة القبطية . فقط سمعت أن زوجها قد كلف البطريك ثيودوسيوس لنشر مذهب كنيسة روما فى أرض النوبا والسودان وحيث كانت الكنيسة القبطية هى صاحبة الشأن فى مصر .. علمت ثيودورا بنوايا زوجها واتصلت بالاسقف لونجينيوس ليكون أسقفاً على بلاد النوبة ونشر المذهب الارثوذكسى قبل وصول البطريك (ثيودوسيوس) فى عام ٥٦٩ م .

وقد نجح رسول الملكة ثيودورا فى الوصول إلى النوبة قبل صاحبه حيث قفل الطريق أمامه للتقدم فى أرض النوبة .. وقد وجد هذا المذهب الارض ممهدة لقبول هذه الدعوة فقد كان رواد الكنيسة الاوائل يجوبون هذه المناطق وكانوا يلجأون اليها للاحتماء بها بجانب اخبارهم التى وصلت إلى هذه المناطق واستعد الناس لقبول هذه الديانة الجديدة وهم يرون دياناتهم الفرعونية قد طمستها الديانات الرومانية ثم جاءت هذه الديانة الجديدة بصورة غير التى ألفوها وسمعوا بانتشارها بين سكان مصر . . . فقلت عصبيتهم لدياناتهم القديمة وباتوا فى انتظار هذه الدعوة الجديدة ... وقد كانت شخصيات هؤلاء الرهبان هى الدعاية

الطيبه لهذه الديانة بين هؤلاء القوم الوثنيين عباد آلهة الفراعنة ، وكما نجح أوغسطين فى (يبو) ، وانتشار المسيحيين فى الحبشة نجح هؤلاء فى شمال السودان وقد اعترض حكام المقرة لونجينوس مبعوث المذهب الأرثوذكسي حتى أضطر إلى الابتعاد عن النيل وسلك طريق القبائل البجاوية فى الشرق حتى وصل إلى مملكة علوة وعمد ملكها وأفراد أسرته وحاشيته عبادا للمسيحيه .

أنتشرت المسيحيه فى مصر على أكتاف عامة الناس وقد إشترك الاقباط فى نشرها وظهور المذهب الارثوذكسي .. وحيث كانت اللغة الاغريقية لغة الانجيل فقد كان تعلم هذه اللغة ليس متيسراً للكثيرين ولكن إنتشار هذا الدين المسيحى دفع لتعلم هذه اللغة فى حين حلت اللغة القبطية فى نشر هذه الرسالة .. وبهذه اللغة أدخلت المسيحية السودان وأصبح تعلم هذه الديانة والتعمق فيها يتطلب تعلم هذه اللغة واللغة الإغريقية الأمر الذى كان شاقاً على السودانيين ...

وكانت مهمة تعليم الرهبان من الافراد السودانيين فيه ، كثير من المشقة ويبدو أن هذه الدعوة لم تقف امامها هذه الصعاب فانشأت الكنائس بعد إيمان ملك علوة والمقرة وحكام الاقاليم فى شمال المقرة وجنوبها حتى حدود مملكة علوة وأرض الجزيرة وقامت الأديرة التى كانت المدرسة الأولى للحياة المسيحية وتخريج رواد صنديدين ذاع شأنهم فى الفيافى والسهول وظلت المسيحية تتقدم فى السودان وتجد المساعدة من تنافس كنيسة الاسكندرية وكنيسة روما وأرسال المبعوثين من الرهبان وتعميد بطارقتها حتى دخلت مصر فى الفتح الاسلامى بدخول عمر بن العاص إلى الفسطاط عام ٦٤١م ودخل الاسلام منافساً جديداً للديانة المسيحية . فآمن معظم الناس بالرسالة الجديدة التى كفلت حرية الديانة المسيحية وأعطى عمر بن العاص الضمان لبطريق الاسكندرية وعدم التعرض لكنائسه ورعاياها وقدم لهم المساعدات ... ولكن هذا الدين المنافس الجديد الذى ظهر فى الجزيرة العربية ووصلت أخباره إلى شعب مصر والروايات التى وصلت عن النبي عليه الصلاة والسلام جعلت عدداً كبيرا من الذين لم يؤمنوا بالمسيحية يميلون إلى هذا النبي الجديد الذين لم يفقهوا الإنجيل يميلون إلى هذا الدين السهل البليغ .

كان دخول الاسلام مصر يعنى الحد من تقدم المسيحية والاحتفاظ بمواقعها كما يقولون وزحفت القبائل العربيـــة وخرج الرومان من مصر وابتعد شبح الامبراطورية وقلة سيطرة الدولة فى نشر الديانة المسيحية واقام عمر بن العاص جامع عمرو واقيمت الجوامع فى المدن الكبرى ودخلت مظاهر الاسلام على ضفاف النيل وزهد الرهبان فى هذه الأرض المقفولة وفضلوا العمل فى أديرة غرب أوروبا وآسيا حيث فقدت المسيحية مساندة الدولة وتعضيدها رغم إنهـا لم تلق معارضة منها .

وبذلك دخل السودان فى المسيحية فى القرن الثالث والرابع والخامس فى شكل رهبان هاربين او افراد لاجئين حتى كان القرن السادس فقبلها حاكم علوة والمقرة .

ولم يمض قرن حتى دخل الاسلام مصر واقفاً أمام توسع هذه الديانة بالدعوة للاسلام والايمان بسيدنا محمد عليه السلام بخاتم المرسلين . .

وبدخول الاسلام إلى مصر زحف العرب على النيل وأرسل عمر ابن العاص قائده عقبة بن نافع عام ٦٤١ م لاخضاع النوبة وقد قابلته النوبة بالقوة ولم يستسلموا له حتى عقد الصلح بينهما ولكن عادت النوبة المسيحية مرة أخرى للتمرد على عهد عبد الله بن السرح فزحف جيش المسلمين عليها ولم يكتفى هذه المرة بتهديد المسيحيين من النوبة المجاورين لحدوده الجنوبية بل وصل إلى عاصمة النوبة المسيحية دنقله وحاصرها وضربها بالمنجنيق عام ٦٥٢ م حتى أستسلم ملكها قليدوروث وعقد صلحاً بين الطرفين لم يمس عبادة النوبيين ، كما أنه ضمن سلامة حياة المسلمين الذين يعتنقون الاسلام فى أقامة شعائرهم .

. . . بعد الانتقال إلى تتبع حياة العرب في السودان بعد ظهورهم في مصر وأفريقيا يحق لنا أن نلتمس أوجه النشاط الثقافي والحضاري في هذه الفترة وما تركته الحضارة الفرعونية والمسيحية . كما رأينا دخلت المسيحية السودان دون حرب أو فرض عليها وكان دخولها تصاحبه بعض العقبات منها اللغة القبطية واللاتينية لغة الاديرة التي جاورت الكنائس التي قامت بكثرة وبسرعة على طول النيل في صادقا ودنقله والدبة ومروى وكورتي وشمال كريمة عند الشلال الرابع وانتشرت المسيحية حتى وصلت عاصمة نوبا التي قامت فيها أعداداً هائلة من الكنائس الجميلة الرائعة .

دخلت الاديرة السودان واحتلت ابنية المعابد الفرعونية القديمة وكذلك قامت بعض الكنائس على بقايا هذه الاعمده والمباني القديمة التي لم تعد صالحة للعبادة الفرعونية . .

وباشرت المسيحية رسالتها في نشر الدعوة وتعليم الناس رسالة المسيحي في الحياة إلا أن الزمن لم يمهل هذه الكنائس أكثر من قرن حتى دخلت مصر بجيوش العرب المسلمين وبذلك ضاعت عليها فرصة تطورها وازدهارها كما كان في الحبشة بل إنكمش رهبانها داخل اديرتهم ووقف تطورهم العلمي وانشغل الناس منها بالدخول في الدين الجديد الذي بات ينافسها في أرضها وفقدت الكثير من العطف والمساعدات التي كانت تلقاها من المواطنين وربما فقدت بعض أراضيها التي إقتطعتها لنفسها لعبادة الرهبان وعمالهم وكأملاك للكنيسة كما كان شائعاً في ذلك العصر بأن تمتلك الكنيسة اراضيها الشاسعة وتستغل دخلها للصرف على الرهبان وأوجه تقدمها وشئونها المالية .

بعض الآثار من المخطوطات التي وجدت قريباً من المساجد التي كانت كنائس

اكتشف أنها مخطوطات من الأنجيل باللغة القبطية كما أن الرسومات التى وجدت على صدارة الكنائس تكشف ان الروح القبطية كانت هى الغالبة على الكنائس وأن لم يمنع ذلك فى إنتشار اللغة اللاتينية داخل الاديرة والكنائس ولتعرض هذه الاثار بعد الإسلام لكثير من التخريب أضاع الكثير من آثار هذه الفترة إلا ان عمران منوبه وكثرة كنائسها وأستمرارها فى اداء رسالتها حتى القرن الرابع عشر الميلادى يكشف لنا أن رهبان شمال السودان بعد أن قل عدد المسيحيين بالشمال نزحوا للجنوب كما إن خريجى تلك الأديرة وجدوا فى حياة سوبة الوادعه وحاجة السكان هنالك اليهم وبعدهم عن الغارات دفع الرهبان للذهاب للجنوب وأستقرت المسيحيه فى كنائس وأديرة سوبة فى القرن السادس والسابع حتى قيام دولة الفونج التى وجدت هذه الدولة المسيحية فقيرة من المعلمين والرهبان .

توغلت المسيحية فى الجنوب فى حين زاد بمرور السنين دخول الدين الاسلامى فى الشمال وبعدت كنيسة علوة الارثوذكسية عن كنيسة الاقباط فى الاسكندرية التى كانت مركزاً هاماً فى الشرق لأرساء المسيحية وتعاليمها ، وتطوير هذه التعاليم والدفاع عنها .. وانقطع خط الصلة بين سوبة والكنيسة الام فى الاسكندرية .

وكانت هنالك فى الشرق كنيسة الحبشة الارثوذكسية أيضاً التى كانت تابعة لكنيسة الاسكندرية التى بدأت تفقد الكثير من الرواد الجدد كما أن بعض الحكام من المسلمين لم يتركوا لها الحرية فى حياة الانقطاع التى كانت تعيشها الكنيسة فى أوربا التى وصلت من القوة عن طريق الإقطاع ، بركزاً مالياً عظيماً حتى باتت هى السائدة داخل ذلك النظام .

أضافت الكنيسة للفنون وحضارة الفراعنة الفن القبطى واللغة القبطية والفن الاغريق واللغة اللاتينية التى لم تخرج عن الاديرة بعيدة وتطور الفن داخل الكنائس والاديرة ووقف نمو الفن والحضارة الفرعونية إلا ان التقاليد الفرعونية لم تزول فى مياه الناس وذلك لضعف رسالة المسيحية التى لم تجد المعلمين والاكفاء بالقيام برسالتهم بين المواطنين ومحاربة تلك العادات الوثنية .

ونحن إذا أردنا أن نتتبع تطور المجتمع السودانى فى القرن السادس الميلادى حتى القرن الثامن عشر فلن نجد أى مخطوطات غير آثار لم تنطق بعد ولم تكشف تاريخ هذه المرحلة غير أننا يمكن الاستعانة بما خلفه بعض الرحالة — بعض المواطنين من مخطوطات بمعرفة الحياة الاجتماعية وسبل كسب العيش وتكوين المدن ونجد ذلك فى مخطوطة ودضيف الله وهى تكشف لنا حالة الصوفية والنشاط الاسلامى الذى قام على اكتاف الرجال الصالحين والصور الغريبة والروايات المبالغ فيها عن الخوارق التى كان يأتى بها الأفراد . وهى تكشف بصوره عامه عن تدهور العلم حتى استطاع العقل السودانى من جراء الجهل فى قبول تلك الأفكار الغريبة وتفسير بعض الحركات المرضية على أنها علامات صلاح كما يضيف لنا بوكهارت عن الحالة المستقرة للمجتمع على النيل وحالة القبائل وسط حالة التجارة وجشع حكام المدن على النيل فى بربر وعطبرة والدامر وشندى وأعماد دخل ورؤساء الجماعات على ضرائب التجارة . . .

إلا ان التجارة كانت هى الحياة فى بعث حركة العمل فى نقل حاصلات أهل النيل وروافده وسنار عن طريق شندى سنار ودارفور مثلاً.. إلى سواكن أو الدر وعن طريق الاربعين بجانب هجمات قطاع الطريق مثل التمم الذى كان يعيش فى أرض الرباطات فى القرن التاسع عشر وهجومه المتواصل على القوافل وتقسيم أموالها على الساكنين وبيوت الطرق الدينية وتكشف لنا رحلة بوكهارت

والتونسى أن تعاليم الدين تكاد تكون معدومة أو مجهولة وأنتشار السكر والدعارة حتى فى مدينة مثل الدامر حيث نشأت بيوت العلم والصوفية وبيت المجاذيب وما لاقاه بوكهارت فى تلك المدينة يكشف عن رهبة رجال الصوفية على جميع المنطقة التى حواليهم واحترام الناس لحقوق رجال الصوفية إلا أن رجال الصوفية لم يحاولوا أن يتدخلوا فى حياة الناس العامة أو تقويمها وانتشار بيوت الخمر والدعارة حواليهم كان يكشف عن حالة المجتمع وتفككه .

كما تكشف لنا رحلات التونسي لدارفور فى أوائل القرن التاسع عشر أيضا عن حالة المجتمع القبلى والمعرفى فى غرب السودان وانتشار الجهل والخصومات القبلية والصراع الذى كان يلاقيه العلم حتى من رجال الحاشية والخاصة بالملك .

القرن السابع الميلادي

قبل الحديث عن الأحداث الداخلية فى السودان يجب علينـا أن نطل على الاحداث الخارجية خارج السودان التى كان لها أثر على تطور السودان وسنحاول فى هذا القرن تتبع النشاط الانسانى والتوسع العربى عما كان له اثر مباشر والحياة السودانية فقد اعتمدت معظم الدراسات التاريخية بتتبع الحركة العربية فى السودان وأستخدام الحوادث اليومية لدخول العرب السودان وأبعدوا هذه الاحداث اليومية عن مجرى السياسة العربية والاسلامية فى تاريخ الدوله الاموية والعباسية والفاطمية وربط هذه الاحداث وإنعكاسها على الحركة الإسلاميـة والتوسع العربى . لانه بدون تتبع الوضع السياسى للدولة الاسلامية فى القـــرن السابع الميلادى حتى القرن الخامس عشر الميلادى لانستطيع أن ندرك سبب إنتشار العرب والدوافع السياسية والعقائد والمذاهب الدينة التى كانوا يعتنقونها وأثر هذه المذاهب فى تاريخ الدولة الاسلامية ودخول العرب إلى أفريقيا الوسطى .

كان القرن السابع الميلادى هو عصر الفتوحات الاسلامية وأنتشار الدين الأسلامى فى الجزيرة العربية حتى شرق إفريقيا . وحين دخول الاسلام إلى مصر فى هذا القرن كان السودان ينعم بميلاد المسيحية وهى فى طور شبابها وأزدهارها وبدأت المحاولات العربية لاخضاع مملكة دنقلة المسيحية إلا إنهـا إكتفت بعقد صلح مع ملك دنقلة قيلدوروث عام ٦٥٢ م . جاء فيه إنه لايحارب المسلمون النوبة وبالعكس وأن يدخل المسلمين بلاد المسيحيين مجتازين غير مقيمين فيها وعلى النوبة حفظ من نزل بلادهم من المسلمين حتى يخرج منها ، وعليهم رد كل آبق دخل بلادهم من عبيد المسلمين وعليهم حفظ المسجد الذى إبتناه المسلمون بدنقلة وكنسه وإسراجه وتكرمته ، وإلا يمنعوا عنه مصليا وإن يدفعوا فى كل سنة ثلثمائة وستين رأسا من إوسط رقيقهم غير المعيب يكون ذكراً :

هذا الحادث كان من أهم الحوادث التي حدثت في حياة السودان السياسية والاجتماعية إذ تعرض لأول مرة لغزو من القبائل العربية وهم لم يعرفوها من قبل وخاصة سكان هذه المنطقة إذ لم تستطع مصر من قبل تحت سيطرة العرب إلا في عهد العرب العابقة .

وإن لم يأتي هذا الحادث بنتائج سياسية في حدود الدولة السودانية إلا أنه كان علاقة تاريخية وممراً مأمونا لدخول العرب في هذه المنطقة ووقوف الجامع بين الكنائس وإقامة الشعائر الاسلامية من صلاة وآذان وأدخل على حياة الناس في تلك المنطقة الشمالية أسلوبا جديدا في العبادة لم يألفوه ودينا جديدا مباركا جاء ينسيهم دينهم القديم

إما ماعدا ذلك فقد استمرت الحياة السياسية والاجتماعية في السودان كما هي ولم تحدث حوادث خارجية تؤثر في حياة السودان في المستقبل غير الهجرات العربية التي كثرت نحو شرق إفريقيا والتي إضطرت أخيرا للهجرة لداخل أفريقيا واواسطها والتأثير في منطقة النيل وكانم ووداي والسنغال وتمبكتو .

هذا في الشمال أما في غرب السودان فيصعب تحديد الحالة الاجتماعية في تلك المنطقة لعدم وجود أي وثائق أو معلومات عنها ولكن يبدو من العمران والحياة الاجتماعية الملكية التي كانت سائدة في دارفور ومنطقة جبل مرة حتى القرن الخامس عشر الميلادي . ان هذه المجموعات عرفت الحياة الاجتماعية ونظم الحكم في فترات بعيدة من ديانة وعبادات شعوب تلك المنطقة كانت تختلف عن سائر البلاد مما يدل أنها قديمة وعريقة في هذه المنطقة الغنية بالخيرات الطبيعية والانهار والوديان التي هي المصادر الأولى لخلق التجمع والمجتمعات المختلفة الاولى .

سيخون :

بعد وفاة (سباقون) إعتلى عرش طيبة إبنه سيخون ، وخلف له والده عدواة أمراء الوجه البحرى ومرارة هزيمة الاشوريين ، فحاول أن يمهد هذا الملك إلى سياسة فرق تسد بين أمراء الوجه البحرى إلا أن المنية عاجلته قبل أن يتمكن من اعادة وحدة البلاد كما كانت عليها حتى أعطى فرصة لليبيين للظهور مرة أخرى وتدخلهم لمساعدة أمراء الوجه البحرى لطرد الاثيوبيين

بعنخى :

ومن ملوك الدولة الأثيوبية بعنخى العظيم الذى خلف لنا آثاراً كثيرة تتحدث عن مجده وعظمته وشهرته فقد سمع هذا الملك بمحاولة الليبيين لتجميع أمراء الوجه البحرى وطرد الاثيوبين من مصر فجرد بعانخى جيشا عظيما وأرسله لمصر وخلص طيبة من سيطرتهم و لحقهم بعانخى بجيش آخر وطارت فلول المنهزمين حتى تمت له السيطرة على الوجه القبلى كله وإستعد لمحاربة بقايا أمراء الوجه البحرى وإحتفل بنصره فى معبد آمون بالكرنك . . ثم واصل زحفه على أمراء الوجه البحرى حتى وقف عند حصون منف القوية وقاد الحملة بنفسه حتى كسر شوكة حصون منف وعامل أسراءه أحسن معاملة .

* * *

أما فى أواسط السودان فقد كانت منطقة الجزيرة أكثر كثافة بالسكان وخاصة منطقة النيل الازرق وجنوبها قبائل الشلك الوثنيه وقد أعتنقت شعوب تلك المنطقة العبادات الوثنية وبعضها أخذ المسيحية بظهور مملكة علوه (سوبه) فى تلك المنطقة وانتقال الحكم اليها بعد هجوم الحبشة عليها فى القرن الرابع الميلادى وتدمير مروى القديمة .

* * * *

* * *

نشاط الحركة الثقافية في العصور الأولى للاسلام

دون أن نضيف للتاريخ بعض العبارات غير العلمية ودون أن نتصور من أشياء صغيرة حقائق كبيرة تعطينا صورة بعيدة عن الحقيقة وتجعل التاريخ الحقيقي صورة بعيدة عن الواقع بفعل حبنا أو محاولة اعطاء ماضينا شيئا من المجد بأسلوب فيه كثير من العطف والحب . . ولكن الاجدر بنا حتى نقف على الصوره الحقيقية للتاريخ أن نقف منه موقف العالم الذى يفسر الأشياء كما هى دون اعتبار للنتائج ان كانت ترضينا أولا ترضينا .

لو تتبعنا حركة البعث الاسلامى المصاحب لنهضة الفكر العربى نجد أنه إبتدأ فى جنوب الجزيرة مع مولد الرسول (صلعم) ثم انتشرت الدعوة للشمال ثم عرجت على شمال افريقيا ثم غرب أوربا المطل على البحر والمحيط .

بدأت الدعوة الاسلامية بحماس دينى شديد ثم انحرفت بحماس للدولة الجديدة التى قسمت المسلمين إلى أقسام كثيرة منهم من تبع حكم معاوية بن سفيان وعائلته ومن عارضة من أسرة على بن أبى طالب الشيعة ثم كان الخوارج عارضوا الجهتين المتنازعتين على زعامة المسلمين .

فى بداية هذا الخلاف داخل الجزيرة العربية وانقسام العرب إلى ثلاث جبهات كل فئة تترصد بالأخرى وتعمل للاساءة والإطاحة إليها دفعت بالدولة الاسلامية إلى اتجاه جديد . وهو التركيز على تقوية الدولة الاموية ان كانت أو العباسية عسكريا ، وتنظيم حال الدولة حتى تستطيع أن تطارد وتقضى على الفئات الأخرى التى تحاول أن تسىء أو تتمكون للاطاحة بالدولة الاسلامية القائمة

هذا الصراع الداخلي داخل الدولة الاسلامية حد من نشاطها الاسلامي والثقافي بل دفع بكل امكانياتها بل بعضها إلى محاربة الخارجين على القانون ، والمعارضين من العرب بجانب المشاكل الخارجية . . . وهذا هو السبب الذي دفع بالدعوة الإسلامية أن تفقد وحدتها وقوتها التي خرجت بها من جزيرة العرب في زمن الخلفاء الراشدين .

بدأ الحكم الأموي عام ٢١ هـ — ٦٤١ م واستمر صراع داخلي مرير كلفه كل امكانياته لمحاربة الشيعة والخوارج ، ولا ستتباب الأمن في الأراضي الجديدة التي فتحها العرب الإسلام ، الأمر الذي جعل الدولة الأمويه تتعاون مع الشعوب الأخرى خائفة من أنصار الشيعة والخوارج ، حتى انتهى الحكم الأموي عام ١٣٣ هـ ، ٧٥٠ م وكان سبب انتهائه هو هذا الصراع الداخلي الذي واجهه من الشيعة والخوارج مع اتساع رقعة الامبراطورية الاسلامية .

لاشك أن خروج العرب من الجزيرة العربية واتصالهم بحضارة كبيرة كحضارة الاغريق والرومان والفراعنة واخضاعهم لمعظم شعوب هذه الحضارات كان لابد للعرب أن يكونوا في مستوى أقوى من هذه الحضارات . . وقد كان لهذه الحضارات بقاياها الخالدة التي كان لابد للعرب أن يطلعوا عليها وحتى يستطيعوا أن يفرضوا منطقتهم وفكرهم وثقافتهم على هذه المناطق . . . فوجه هذه الدولة الاسلامية سيطرتهم على فكر وحضارة هذه الأمم وملاءمة الفكر العربي مع هذا التراث كان لابد للعرب من أن يطلعوا على هذا التراث بعد هذه الفتوحات التي أخضعوا بها هذه الحضارات عسكريا فلابد إذن من اخضاعها فكريا . . . وقد كان لهذه الحضارات سيمتها في هذا المضمار ولا شك الحضارة الاغريقية والرومانية ، وما تركته الحضارة الفرعونية من آثار وما أخرجته جامعة الاسكندرية من علم وفكر .

سقط الحكم الأموى ليبدأ الحكم العباسى عام ٧٥٠م - ١٣٢ هـ . ويبدأ الصراع العربى من جديد أكثر وحشية داخل العرب المسلمين أهل الدعوى فى عصبية الحكم أينسيهم عظمة الرسالة وهدف الرسالة أنما شهوة الحكم دفعته بالقوى لكرسى الدولة الاسلامية الامر الذى مزق وحدة الامة العربية منذ ذلك التاريخ إلى طوائف وأحزاب .

فى ظل هذا الصراع اتسعت الدولة الإسلامية فى العهد الاموى والعباسى ولكنه اتساع على حساب قوة ومركزيه الدولة الإسلامية وزيادة مسئولياتها وعبء للدولة بجانب هذا التصدع الداخلى المريع الذى ظل يخلف الدولة المركزية والحاكم باسم العرب والمسلمين حتى فتح هذا الباب لكثير من الاجناس الاخرى أن تتقدم إلى كراسى العرب المسلمين بغرض المساعدة ضد الطوائف الاخرى - أفاد الثقافة العربية والفكر العربى لاشتراك تلك العناصر غير العربية فى مجال الثقافة والفكر والإدارة فى مرحلته الاولى قاد فى النهاية لانقسام الدولة الاسلامية على عدة دول فى حلب وبغداد والقاهره والمغرب .

اتسعت الدولة الاسلامية ولكن ما قيمة ما صرفته فى نشر الثقافة والفكر العربى فى الاراضى الجديده والاسس التى قامت عليها هذه الدعوة فى عالم جديد عن حضارتها ، وأرضها . . . وسنرى القواعد التى قام عليها الفكر الاسلامى لنشر الثقافة العربية فى مصر ثم السودان .

تخطيط العرب لنشر الثقافة والفكر العربى

بعد حكم رومانى قام بعد مقتل كيلوباتره فى عام ٥٤ ق . م . إلى ٦٤١ م .
بدخول عمر بن العاص لينهى سيطرة المسيحية على أرض النيل والرومان عنها
وليبدأ عهداً جديداً فى حياة مصر العربية وحياة افريقيا والنيل .

أنشئت الدولة الإسلامية على أرض النيل وامتدت حتى حدود المملكة
السودانية وأرسل عمر بن العاص فى نفس العام قائده عبد الله بن سعد إلى
مملكة دنقلة المسيحية لينهى هجومه على العاصمة دنقلة بالصلح واتفاقية تتيح
للمسلمين اقامة شعائرهم ومساجدهم وضمان حرية مرور العرب .

كان لابد للدولة الإسلامية لتركيز الدولة سلطانها فى أرض النيل أو فى أى
بقعة جديدة من اقامة الدولة القوية ثم نشر الدعوة والعلوم الإسلامية بما فيها
من شريعة وفقه وحديث وكتاب الله وتفسيره .

كان الجيش هو قوام الدولة الإسلامية وكان الجامع هو المدرسة الأولى لنشر
الثقافة الإسلامية .

قامت مدينة الفسطاس بعد فتح عمر بن العاص فى عام ٦٤١ م بعد أن
بسط نفوذ الدولة الإسلامية على مصر ومد هذا النفوذ إلى عاصمة الدولة
المسيحية السودانية دنقلة .

إنشاء عمرو بن العاص المسجد الجامع أو جامع عمر أو كما كان يسمى المسجد العتيق أو جامع مصر أو مسجد أهل الرايه .

وإذا انطلقنا من هذا الجامع الأول وهذه المدرسة الأولى لنشر العلوم الإسلامية والثقافة العربية على أرض النيل وتتبع نشاط هذه الجوامع وازدهار هذا الجانب العلمي من الدعوة الإسلامية حتى نتمكن من رصد هذا التطور على الثقافة العلمية في السودان بجانب العوامل الأخرى والمصادر الأخرى .

واستمرت مصر في خلافة الأمويين ثم العباسيين ولم يجد في حياتها العلمية أى اضافة لجامع عمرو الذى كان منبرا لوالى مصر . . . وقد كان المسجد هو المنبر الرسمي في المقام الأول ليجتمع الوالى برعيته بعد صلاة الجمعة لالقاء الموعظة والأوامر والتشريعات الجديدة . . . . كان الجامع هو المنبر لنشر سياسة الدولة الإسلامية أيام الجمعة . . وكان يقوم بجانب هذا الدور بعقد الندوات والمناظرات وحلقات الدراسة منذ إنشاءه ولكن هذا الدور لم يأخذ شكله الواضح . . . بل كان نشاطه ضئيلا بالنسبة لموقع الدولة الجديدة التى عاشت في اضطرابات الحكم وصراع الشيعة والأمويين والخوارج لم يتح لها أن تخطط للدراسات والعلوم العقلية لتنمو بجانب الدولة الجديدة ، الأمر الذى جعل من هذه الجوامع كمنبر عام للخطابة الرسمية .

وقبل أن نحكم على هذه الظاهرة يجدر بنا أن نلقى نظرة على المجتمع المصرى قبل الفتح وبعد الفتح ثم نلقى نظرة عملية وعلمية لإنشاء جامعة إسلامية تقوم بتدريس العلماء والفقهاء والمفسرين ولتخرج كافة رجال المعرفة تحتاج اليهم هذه الدولة الجديدة .

قبل دخول العرب مصر كانت الاسكندرية هى جامعة مصر تنقل اليها علوم الاغريق وترسل الوفود وتستقبل الوفود ، ونحن نعرف أن بعض العلماء الافذاذ فى العلوم قد تخرجوا ونبغوا من جامعة الاسكندرية وقد انشأت جامعة الإسكندرية ومكتبتها فى عهد البطالسة أو البطالمة ، وقد عرف أهل اثينا العالم « تكريس » فى مفهوم الدولة والقوانين ثم ذاتاوس ، الذى أنشأ مدينة اوغوس فى قسم المورة » وافلاطون » فيلسوف الحضارة الاغريقية العريقة تتلمذ على كهنة من كهنة عين شمس أخذ عنهم علم مصر القديمة .

ثم « بطليموس » ابن الاسكندرية وأبو علم الفلك والجغرافيا » وفيثاغورس » صاحب النظرية ومطور علم الهندسة والذى رفعه علمه فى نظر تلاميذه حتى أدعوا أنه إبن الآلهة (أبولون) ثم « بلوتينوس » مؤسسة الفلسفة التى تعرف باسمه والتى تدعو لحرية الإرادة والإيمان بالله والترفع عن المادة وترويض الجسد من الشهوات .

هذه الجامعة التى نقلت حضارة الإغريق والرومان وبعثت الحياة العقلية والفنية من جديد فى مصر — بعد أن سكنت الحضارة الفرعونية التى أعطت أقصى إمكانياتها ثم بدأت تذبل لتفسح المجال لشعوب أخرى لتأخذ دورها فى التطور .

كان المجتمع المصرى يعيش تحت ظل الدولة الرومانية بفنها وفلسفتها بعد أن ظهر المسيح ليفتح أفاقاً جديدة للعقل البشرى ليفكر فى الله والوجود ويخرج الإنسان من عالم الغيبيات والهة الأغاريق والفراعنة إلى دنيا جديدة مليئة بالحق والتضحيات . . . وقد وصلت آثار هذه الحضارة إلى جنوب النيل وعرف

سكان السودان الفن الإغريقى وآلهة الإغريق ولكنهم لم يبدلوا آلهتهم بآلهة الإغريق حيث لم تكن هناك سيطرة لهم على السودان إنما المعاملات التجارية التى كانت قائمة بين المملكة المصرية الرومانية والمملكة السودانية الفرعونية التى عاشت حتى بعد القرن الثالث الميلادى فى حين وقف نمو الحضارة الفرعونية فى مصر من القرن السادس قبل الميلاد .

كان المجتمع المصرى هو مجتمع البلاط الملكى وجنده وحاشيته ومجتمع الفلاحين الذين يخدمون هذا البلاط . . . الفن والفكر للذين يدورون حول القصر أو الذين يسكنون فيه أما بقية الشعب فلهم عبادة الآلهة وزراعة الحقول . . ليأكل السادة ويجبون الضرائب ويعيشوا فى عالم آخر قائم على عرق هؤلاء الأشقياء الذين رأوا فيه جنة بالنسبة لحكم الفرس الذين حكموا البلاد بالبطش والإرهاب .

فى ظل هذه الحضارة التى امتدت من شمال البحر الأبيض المتوسط إلى جنوبه حتى منبع النيل ظهر المسيح منافس جديد لآلهة هذه الحضارة ... ومعه الإنجيل الذى حير الفلاسفة وأهل الفلسفة فى معتقداتهم وآرائهم .

إن ظهور المسيح لا يمكن أن يكون حدثاً سهلاً بالنسبة لرجال الفكر والفلسفة فى ذلك العهد . . فقد جاء رسول بعقيدة تخالف كل فلسفاتهم وأفكارهم . . كما أنهم وجدوا أنفسهم فى مكان إمتحان قاس بالنسبة لبقية الشعب الذين يستفتونهم فى آراء هذا الرسول كما أن موقف الكهنة من هذه

الديانة السماوية الجديدة أمر ليس بالسهل . وأخذ الصراع الطبيعى بين المعتقدات القديمة والديانة الحديثة زمنا ليس بالقليل حتى سادت المسيحية وأصبحت ديانة الدولة وفرضت نفسها على بقية الشعب وامتدت إلى المملكة السودانية الفرعونية التى أثرت فيها وبدلت ديانتها فى القرن الرابع الميلادى حتى وصل هذا الأثر إلى داخل السودان . إلى مملكة علوه قرب مدينة الخرطوم .

دخول العرب والإسلام السودان

سنبحث بعد الآن فى نوعين من المؤثرات على حياة المواطن السودانى أولا دخول القبائل العربية - كقبائل لها عاداتها واخلاقها وفكرها الذى يختلف عن فكر وعادات وتقاليد المناطق الجديدة التى ارتادها العرب مكرهين أو راغبين وسنحاول أن نتتبع المؤثرات التى خلفوها على الجماعات السودانية فى شمال وشرق وغرب السودان كما سندرس أثر الدين الإسلامى كدعوة جديدة جاءت إلى قرى مسيحية وقبائل وثنية . .

دعوة جديدة تدعو لوحدانية الله وعبادته .. وسنرى إلى أى حد كان دعاة هذه الدعوة أورسل هذه الرسالة توفقوا إلى توصيلها إلى هؤلاء الاغراب عنها، وكيف إستطاعت أن تحل مكان الوثنية ومكان المسيحية فى الشمال وفى وسط السودان.

عرفنا أن زحف القبائل العربية بدأ بظهور الاسلام فى أفريقيا وأوربا من أجل نشر الدعوة الاسلامية ثم هروباً من العصبيات السياسية من إنصار لدعوه الامويه والعباسيه والفاطميه .

وقد كانت مصر هى نظر أمير المسلمين عمر بن الخطاب حين دخل عمر بن العاص ناشراً الدعوة الاسلامية فى أقوى دولة فى أفريقيا فى ذلك الوقت وفتح الطريق للقبائل العربية لتنتشر خارج حدود الجزيرة العربية .

دخل عمر بن العاص مصر عام ٦٤١ ميلادية ولم يكن دخوله إلى مصر دخول

عابر أو احلال دين مكان آخر وعملية التحويل نفسها لا تأتى بالقوة أو بين يوم وليلة أنه تغير فى معتقدات الناس وفى معاملاتهم .

وإذا كان دخول عمر بن العاص إلى أفريقيا عن طريق مصر يعنى أولا - عزل أفريقيا عن حضارة شمال البحر الأحمر المتوسط التى سيطرت عليها منذ عام ٣٣٢ قبل الميلاد بفتح الاسكندر المقدونى لمصر ودخول الحضارة الاغريقية لمصر وافريقيا ثم أعقبه الرومان من عام ٥٤ قم إلى ٦٤١ ميلادية .

إذا وضعنا فى إعتبارنا أن المنطقة النيلية التى قامت عليها الحضارة والمبانى الفرعونية تمتد من الاسكندرية إلى النيل الازرق بالسودان لأدركنا أن سيطرة الحكم على الاسكندرية أو الفسطاط يعنى بالتالى أما أخضاع كل هذه المملكة ذات الحضارة القديمة لحكم الشمال أو ترقب الجنوب لهذا الحكم الجديد الذى استولى على مقاليد الحكم فى الشمال . . . وستظل الممالك الجنوبية فى ذعر وخوف وترقب تنتظر زحف هذا الحاكم الجديد على مصر أن يغزوها . . وإذا لم يحدث الغزو يحدث التفاهم والتعاون ، وهذا ما حدث كان جنوب النيل ليس بموضوع هام للاغريق أو للرومان رغم أن رحلة هيرودويت فى القرن الرابع قبل الميلاد تكشف لنا رغبة للاغريق العارمه لمعرفة منابع هذا النيل ومحاولتهم للسؤال عنه أو استكشافه ... هذا يضيف إلى أن قدأسة هذا النيل واسطوريته عند الاغريق ، وما وصل إلى اسماعهم عنه وتسميتهم لنابعة بهضاب القمر البيضاء والتى رجح أخيراً انها تعنى هضبة جبال كلمنجارو وشلالاتها . . وهذا يكشف لنا الى أحد هؤلاء المكتشفين الاوائل قد قرب من هذه المنابع أو أن المعلومات قد وصلت اليهم ... أو أن تصورهم قد بلغ هذا الحد الرائع لمنابع النيل .

هذه الحضارة المزدهرة التي كانت قائمة على شمال النيل وكان لها أثر مباشر على جنوب النيل كما جاء سابقاً يمكن أن يكون زوالها بهبوب عاصفة تغطي على القديم وتترك المكان مسطحاً للجديد لينبت بل العكس إنما عملية صراع رغم التغلب الظاهري الذي امتاز به العرب والاسلام على شمال أفريقيا .

ولكن فرض الثقافة العربية والاسلام والحضارة العربية مكان المسيحية وحضارة شرق البحر الابيض المتوسط وشعوبه ليس أمراً هيناً ويسيراً يتم في عام أو أعوام بسيطة . أن الجيش الاسلامي ربما يدخل ويفرض الحكم الاسلامي وربما ينتشر الجند في كل بقاع المملكة ... ولكن الحياة العربية لن تظهر إلا بعد أن يتغلب هؤلاء العرب عددياً وعسكرياً وفكرياً على الواقع الموجود ... وهذا مايكشف لنا دخول العرب السودان في جماعات كبيرة ظاهرة بعد سبعة قرون من دخولهم مصر رغم أن عمر بن العاص (عام ٦٤١) أرسل عبد الله بن السرح لتأمين الحدود الجنوبية من المملكة المسيحية والقبائل الجنوبية لضمان سلامة مملكته من الجنوب ولمحاولة بعث هذه الدعوة للجنوب . . ولكن لقلة امكانياته التوسع جنوباً اكتفى رسوله عبد بن السرح بعد أن ضرب دنقلة بالمنجنيق بعقد معاهدة صلح مع حاكمها بأن يعترف بالدين الاسلامي ولا يعاديه ... وأن لا يقف ضد من يؤمن به .. وهو بذلك ضمن حرية العبادة للمسلمين في تلك البلاد المسيحية . . كان هذا أهم حادث في تاريخ السودان الاسلامي .. وأن يفرض الحاكم الجديد على مصر على حاكم شمال السودان المسيحي بأن يحترم الدين الاسلامي .. وأن يحترم المسلمين ويتركهم لأداء شعائرهم ... وقد كان من حسن حظه أن هذه المملكة المسيحية لا تملك من المنعة أو المقاومة لهذا الفاتح الجديد الذي أذهلت فتوحاته كل ممالك العالم وأصبح يرعب كل ملك ينتظر قدومه .

كانت معاهدة بن السرح هى وضع الراية الاسلامية بين قباب الكنائس فى أرض السودان فى النصف الاول من القرن السابع الميلادى .. .. وعاد راجعا بعد أن ضمن حرية العباده المسلمين .. .. ولكن فى الحقيقة لم يكن هنا لك مسلمون فهى دعوة جديدة دخلت عليهم بالقوة .. .. ولكن ظاهرة التسامح والعقد الذى أعطاه بن السرح لحاكم دنقلة فتح الباب لهذه الدعوة أن تدخل قلوب المواطنين فى أرض مسيحية متعصبة لمسيحتها وربما غاضبة لانهزام مصر المسيحية أيضا .. .. وسد الطريق أمام هذه الممالك إلى الاسكندرية والامر الذى قاد لخنق هذه المسيحية فى حدودها وربما عزلها عن العالم المسيحى النشط الذى كان يعمل فى شروق البحر الابيض المتوسط لتنشيط رسالة المسيح وتدعيم الكنيسة المسيحية وزعامة أورو بالنشر الدعوة المسيحية .

بعد القرن السابع الميلادى خضعت مصر وشمال أفريقيا للاسلام واسيطرة الحكام العرب والقبائل العربية والتكاثر عدد النازحين العرب فى شكل جيوش أو متأجرين يذهبون حيث امتدت دولتهم الاسلامية .. .. فالحكم العربى على هذه البلاد فتح لهم باب الهجرة والتجوال بين هذه الامم حتى سيطروا عليها وفرضوا لغتهم وأغلب عاداتهم .

أما فى السودان فلم يحدث غزوا لوضع دولة اسلامية عربيه كما حدث فى بقية البلدان التى خضعت للاسلام والحضارة العربية بكل مقوماتها .. .. فقـــد ظل السودان فى شبة سلام من هـــذا الغزو الاسلامى والحضارى مكتفيا بعزلته المسيحية .

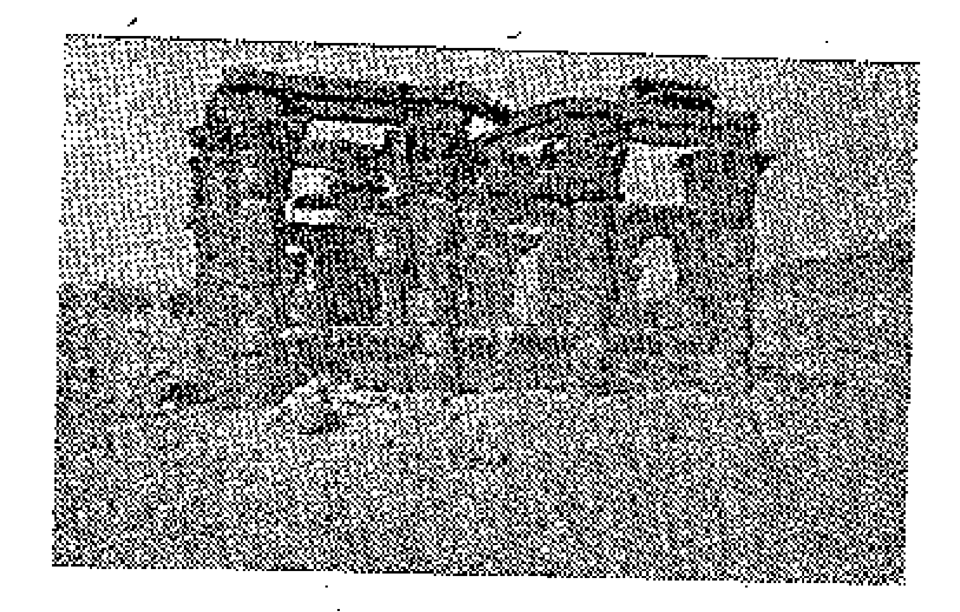
ولكن هل يقف الاسلام والعرب عند شمال مصر ، بالطبع لا .. . فقد إمتدت

الهجرات العربية لتأمين الحدود الجنوبية لهذه الممالك الاسلامية التى لها وضع إستراتيجى بالنسبة لعاصمة الامبراطوريه الاسلامية المصرية وبالنسبة لشمال افريقية واسبانيا .. وكانت مصر ملتقى مركز هام لهذه الدعوة ولهذا الانتشار العربى .

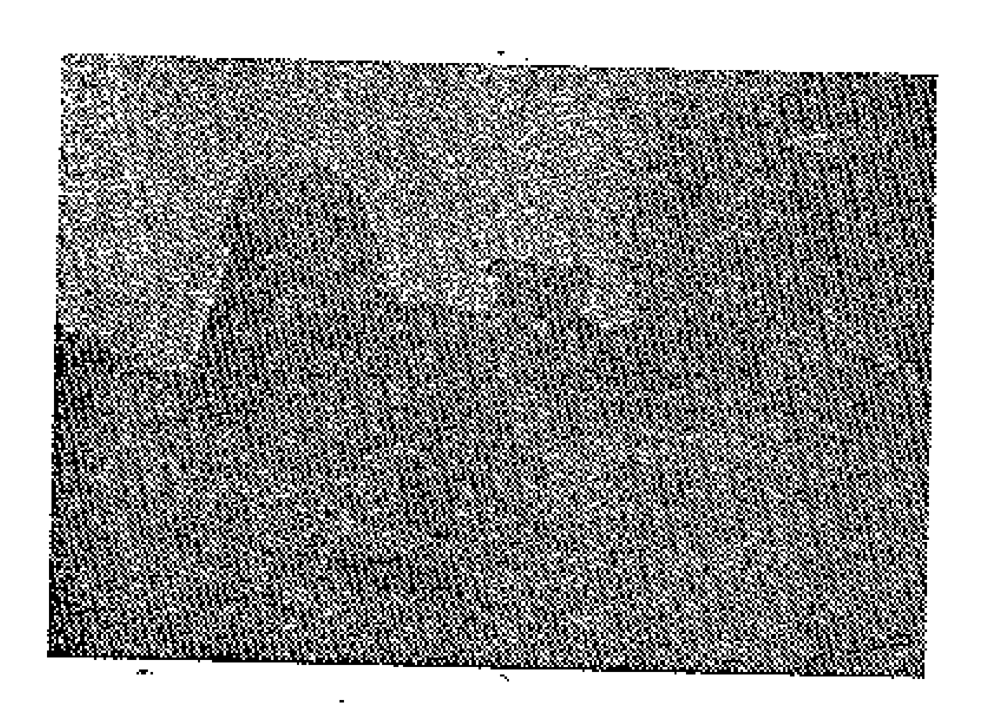
أن ظهور العرب فى أى مكان أو بين اى مجموعات لا يحدث فى لحظة . . . وإذا أردنا أن نتصور أو ندرس التاريخ كما هو ، علينا أن نسأل أنفسنا بعض الأسئلة كيف كان يعيش هؤلاء العرب مع هذه المجموعات . . . أى حرفة كانوا يتكسبون منها قوتهم . . ما نظرتهم للقوم الذين بينهم وما نظرة القوم اليهم .. وما صناعة هؤلاء القوم . . . ما هى العلاقات الاجتماعيه بين هؤلاء السكان وما معتقداتهم .. هل وجدوا هنا لك تنافراً بين طباعهم وطباع العرب — هل وجد العرب منهم طباعاً تجعلهم يتعزلون عنهم أم وجدوا تقاربا بينهم فى المعاملات والاخلاق حتى سهلت عليهم عملية التعايش والتعامل ... اللغة التى كان يتكلمها هؤلاء القوم قبل قدوم العرب هل كان يعرفها العرب — هذه كلها أسئلة يجب أن نتصورها حتى يمكن أن نتصور حركة التاريخ أما إذا حاولنا ان نبدأ بعد غلبة العرب والاسلام عليهم . . . فستضيع علينا ملامح المجتمع الجديد الذى جاء نتيجه هذا التزاوج والامتزاج .

ولنضرب مثلا أن جماعة العرب التى حكمت أسوان كيف تيسر لها أن تحكم أسوان .. وحتى تظهر لنا فى القرن الحادى عشر الميلادى مملكة عربيه كنزية تسيطر على جنوب مصر . . . هل حدث هذا الحكم فى لمحة البصر وأصبح حقيقه واقعه أم هناك تدرجا حدث حتى حدث هذا التغلب .

والصورة يحدث كما يلى . . وهو تغلب العرب المسلمين على مصر دفع أفرض



مبانى رومانية أمتدت إلى جنوب وادى النيل بصحراء النجمة تضيف إلى تاريخ حضارة النيل إمكانيات حضارة شمال البحر الأبيض المتوسط .

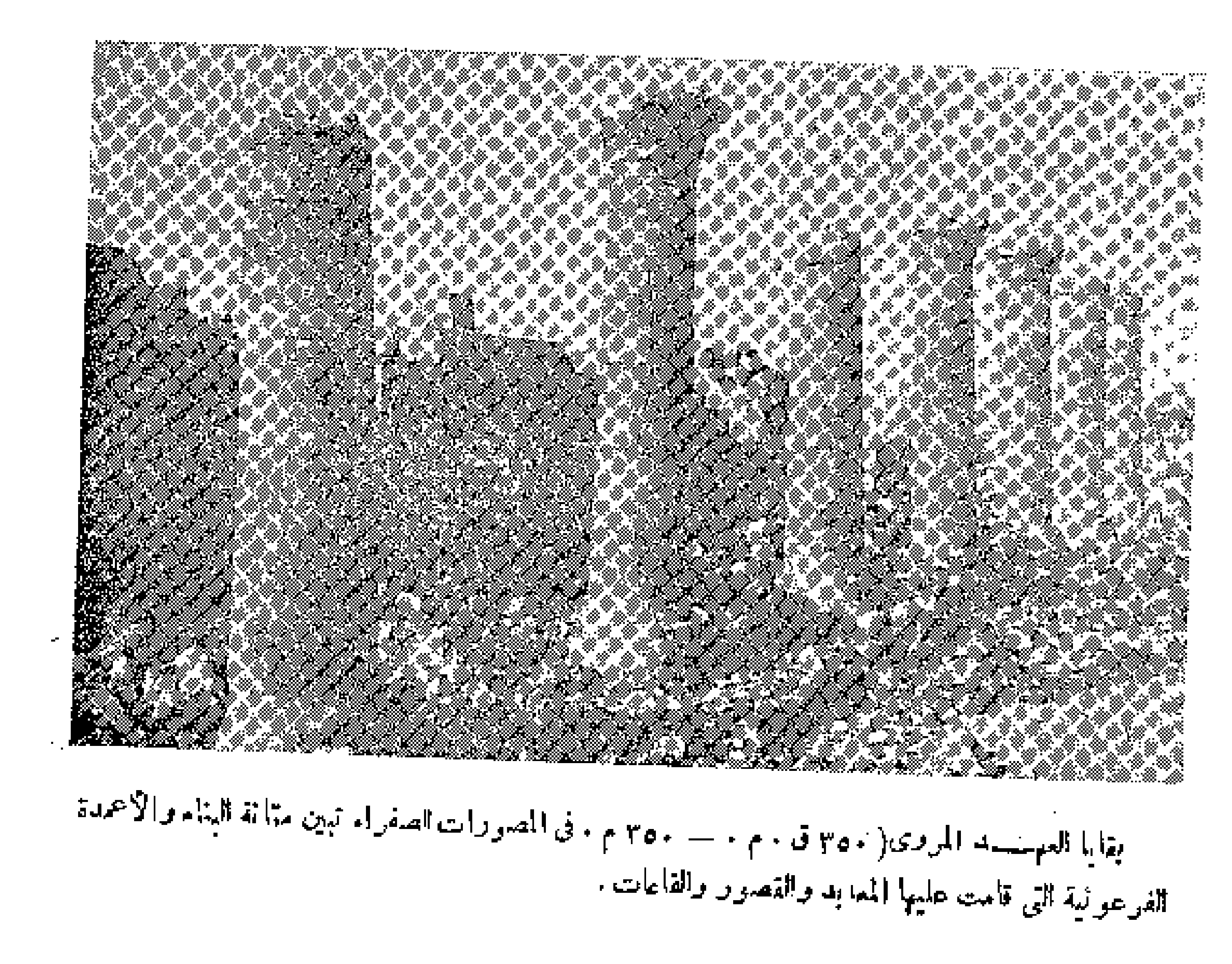


الحيوان من الخلوقات المقدسة . . بقايا آثار النجمة

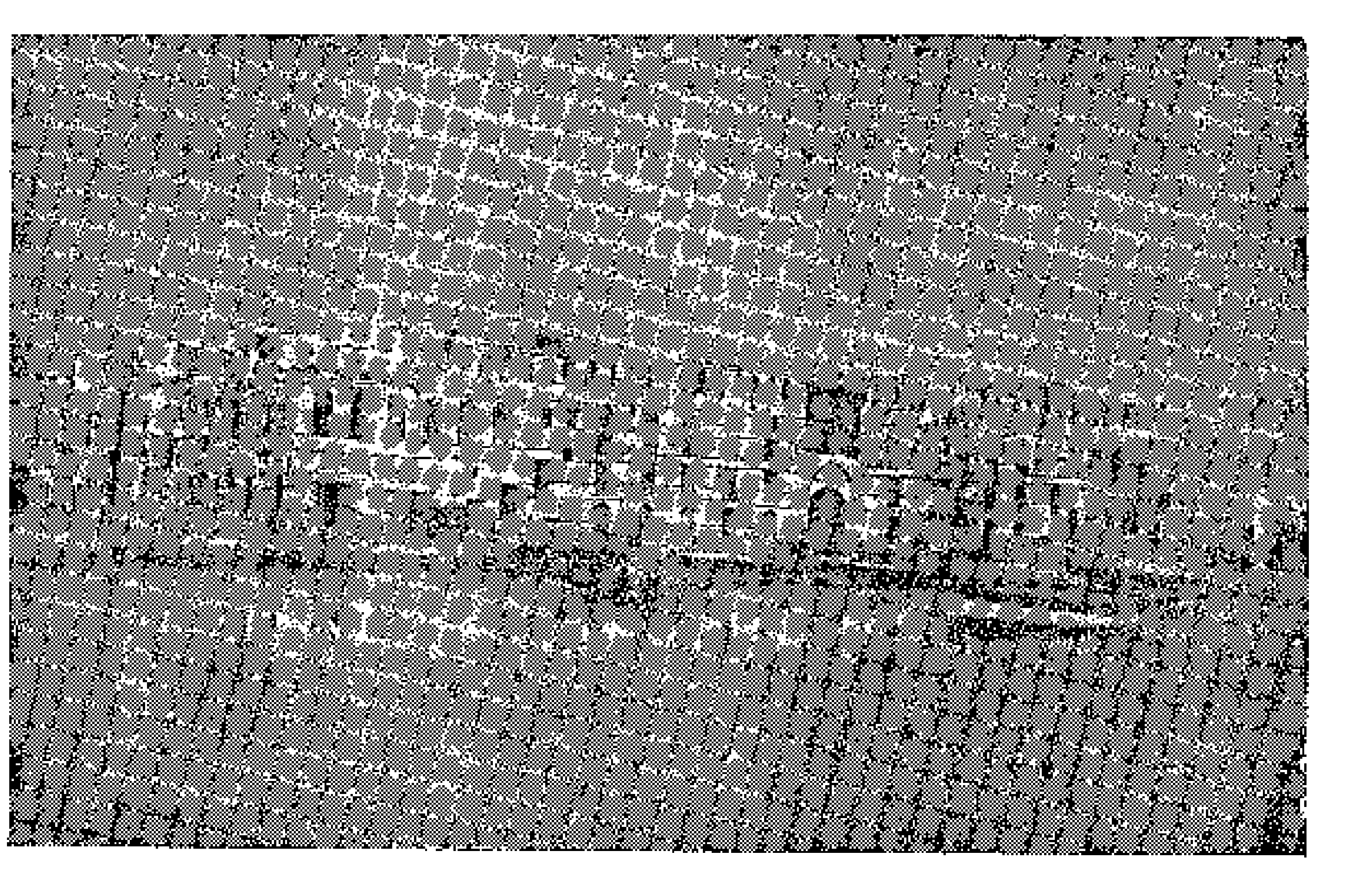


لوحة العذراء والسيد المسيح وجدت بكنسية فرص . من بقايا الفن المسيحى والقبطى بالمديرية الشمالية . .

اللوحة بها إمكانيات فنية لاحد لها . . منها الجديد . . والقديم الممثل فى حضارة انسان النيل.



بقايا المعبـــد المروى (٣٥٠ ق٠م٠ — ٣٥٠ م٠) فى المصورات الصفراء تبين متانة البناء والأعمدة الفرعونية التى قامت عليها المعابد والقصور والقاعات٠



أطلال مدينة سواكن ميناء البحر الأحمر في شرق السودان واجهة الحضارة العربية في الشاطئ الآخر من البحر الأحمر.



لوحة العذراء والسيد المسيح وجدت بكنيسه فرص . من بقايا الفن المسيحى والقبطى بالمديريه الشمالية . .

اللوحة بها إمكانيات فنية لاحد لها . . منها الجديد . . والقديم الممثل فى حضارة انسان النيل.

حكام على المراكز الكبيرة ولما كانت أسوان من المراكز التجارية الهامة بين حدود مملكة مصر . . . وممالك النوبة المسيحية والصلات التجارية عن طريق القوافل لبيع حاجيات أهل السودان لمصر وحاجيات أهل مصر للسودان . . وبمرور الزمن وقوة هذه الحامية الجنوبية كثر عدد العرب بها . . . وحينما كثر عدد العرب بها . .. نزح اليها بعض مجموعات القبائل العربية التي كانت تجد في ظل الحكم العربي ضمانا وحماية لها من أي منطقة أخرى .

وحينما كانت علاقات أسوان بممالك النوبة دائما في تحرش بسبب الدين والقوافل التجاريه ... ولهجوم النوبة على حدود هذه المملكة المسلمة ... إنتهى الامر بأن تغلبت المملكة الجنوبية الاسلامية على ردع المملكة النوبية المسيحية وفرض دية عليها .

اذا اعتبرنا الفتوحات الاسلامية هي البداية العظيمة للهجرة العربية خارج الجزيرة في مجموعات كبيرة ولو اعتبرنا أن العرب وصلوا إلى حدود المملكة المسيحية السودانية دنقلة في النصف الاول من القرن السابع الميلادي . .. بعد اصطدامات هدمت قباب كنائس دنقلة رجع العرب لحراسة الحدود المصرية وأقاموا في أسوان قاعدة جديدة للحرب.

وفي القرن السابع الميلادي كثرت الروايات عن بلاد النوبة والبجة وبمناسبة والسودان في كتب العرب في كتابات قائمة على الرواية والنقل وهو أمر لم يكن معروفا من قبل وظهر اسم القبائل السودانية في روايات كثيرة واشتباكات مع العرب بعد القرن الثالث الهجري الامر الذي يجعلنا نقف عند اسوان كقاعدة انطلاق للعرب والمسلمين داخل السودان .

شيد العرب بأسوان حصناً قوياً ضد غارات النوبة والبجه وسكنت القبائل العربية فى المناطق المجاورة لاسوان وذلك بعد حكم عثمان بن عفان الذى فى عهده عقد الصلح بين النوبة والعرب على أن يدفعوا جزية سنوية قدرها أربعمائة رأس فى السنة

النوبة :

عرف العرب السودان بأرض النوبة جنوب أسوان إلى جنوب ملتقى النيلين الابيض والازرق كما أضافوا البجة إلى أرض النوبة . . . وبذلك كان سكان السودان عموما بالنسبة اليوم نوبة . وقد عاشروهم وعرفوا كرم طبعهم مما جعل النبي (صلعم) يقول من لم يكن له أخ فاليأخذ له أخاً من النوبة .

وعند ظهور الاسلام على حدود السودان كانت هنالك على الشمال مملكة النوبة المسيحية وعاصمتها دنقلة ... وفى الجنوب مملكة علوه المسيحية أيضـــاً وعاصمتها علوه (سوبه شرق الخرطوم) . . . وهذه المنطقة النيلية حتى جنوب النيلين كانت تخضع للمسيحية فى حين كانت قبائل البجة المنتشرة فى وديان البحر الأحمر وقرب النيل حتى حدود أسوان طلبا للمرعى وهى قبائل وثنية لا يجمعها ملك إنما لكل قبيلة رئيسها وهى قبائل كثيرة منتشرة .

وقد عرف عن قبائل البجة المتعددة إنها قبائل شرسه ميالة للقتال والنهب وقد كانت كثيرة الغارات على طرق القوافل التجارية ولعدم انضمامها ، وخضوعها لحاكم كبير كانت تتصرف هذه التصرفات الفردية التى لا ينفع معها عقد صلح أو خلافه ... انما كانت هذه القبائل تتبع طبيعتها الخلوية ... وهذا النهب يكفى حاجتها المادية لخيرات الأرض الطيبة مما تنتجه مصر أو أرض السودان .

أما النوبة فقد جاء فى معجم البلدان للامام شهاب الدين بن عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى المتوفى عام ٦٢٦ هـ . (أن النوبة بخلاف ديانتهم للمسيحية القبطية (يعاقبة) كانت حالتها الاجتماعية متيسرة وكانوا أصحاب ابل ونجائب وبقر وغنم ولملكهم خيل عتاق وللعامة براذين وفى بلدهم الحنطة والشعير والذرة ولهم نخل وكروم ومقل وأراكى) .. وهذا الوصف لا ينطبق على شمال النوبة انما ينطبق على أرض — النوبة عامة التى عرفها العرب وهذا يدل على أن النوبة كانت لهم ماشيتهم وكان لهم زرعهم .. فهم قوم مقيمون ... أهل حضارة ومدينة قديمة ودولة منظمة عريقة لها تقاليدها ودينها وحضارتها وليست دولة حديثة أو مجموعات متنافرة كما فى شرق السودان .. .. وهذه الحضارة أخذت لها مراكز داخل السودان حيث امتدت مروى القديمة قرب شندى ثم حين ظهرت المسيحية انتقلت الحضارة إلى الجنوب على ضفة النيل الأزرق عند ملتقى النيلين فى هذه المساحات الكبيرة لم تكن مجهولة أو منعزلة أو بدائية بل بالعكس لها قوتها وتنظيمها ودينها واتصالها الخارجى .

أما فى الشرق فقد كانت هذه القبائل المتعددة من البجة . . . قبائل بدوية وثنية لاتدين لحاكم أو ملك أنما لكل قبيلة زعيمها ، يحكمها قانون القبائل ، كل ما كانت هنالك قبيلة قوية كانت لها المكانة عند القبائل الأخرى وكان يخشى بأسها وقوتها . . . أما القبائل الصغيرة فهى لاتنفك تتعارك مع بعضها البعض أما من أجل الثأر أو من أجل المرعى أو من أجل الذهب وسرقة الماشية القليلة الحرامة الضالة .

هذا هو الخط العريض الذى واجه دخول الإسلام والعرب من الشمال . . مدنية مسيحية قديمة ذات حضارة فرعونية عريقة وديانة حديثة ودولة منظمة

قديمة عمرها أربعة عشر قرنا أقدم من حضارة العرب . وهى فى الشمال أقوى وأعرق . . . تضم قبائل قديمة أصيلة ذات تقاليد وشجاعة جعلتها تحتفظ بمالكها بعيدة عن السيطرات الخارجية التى خيمت على مصر فهزيمة هذه الشعوب ليس بالأمر الهين واخضاعها ليس أمراً سهلا لأنها قبائل قديمة عرفت المعارك والقتال فلم تستسلم يوما ما . . . . ولذا كان دخول العرب من النيل ليس أمراً سهلا أمام مجموعات لها دينها وبأسها واستعدادها ولها لغتها الخاصة . . . أربعة عناصر قوية تواجه تدخل العرب والاسلام من النيل . . . الحكومة القوية العريقة . . الشعوب المتمرسة على هذا الصدام والتى لاتخضع بسهولة ... واللغة المختلفة عن اللغة العربية .. ثم الديانة المسيحية التى بسطت نفوذها على طول النيل .

هذا مايخص جبهة النيل أما مايخص الجبهة الشرقية أى تلك القبائل البدوية المتعددة المشاكسة . . . فلو كان هنالك ملك يحكم هذه القبائل لأمكن إخضاع الملك بالقوة لما للمسلمين من قوة وبذلك يمكن إخضاع جميع القبائل .. ولكن الامر هنا أصعب ، فمهمة الدولة الإسلامية ليست سهلة . . . فعليها أن تخضع جميع هذه القبائل الوحدة تلو الاخرى .. .. هذه من ناحية السيطرة على هذه القبائل .. .. ويأتى عنصر آخر هو اللغة فهذه القبائل لا تتحدث اللغة العربية مما يجعل مهمة التفاهم معها أمراً صعباً ... وتعاليم الاسلام أصعب .. .. وهى اعقد المشاكل فكيف يكون التفاهم بين هذه القبائل وبين العرب المسلمين .. .. وكما أن ديانة هذه القبائل هى ديانة وثنية لا يسهل توصيل هذه الرسالة لهؤلاء القوم الوثنيين الذين لايعبدون إلاها .. .. فلو كانوا يؤمنون بالمسيح لا مكن اقناعهم بسهولة وبالجدل .. .. أما أن تخرجهم من الظلمات إلى النور بدون سابق معرفة .. .. أو تمهيد لهذا اللقاء وهذه القدوة فليس بالأمر الهين .

هـــذا هو الخط الشمالي الذى واجه تدخل العرب والاسلام والعناصر التى حدثت من انطلاق العرب والاسلام الى السودان بعد القرن السابع الميلادى كما حدث بسرعة فى بقية بلدان شرق أفريقيا . . . هذا ما جعل العرب يقنعون بأسوان ويقيمون بها لوقت طويل .. ويكتفون بالجزية على مملكة النوبة المسيحية ذات الخيرات والحضارة . والتنظيم وتركت القبائل البدوية فى شأنها . ولكن هل استمر الحال على هذا الخط الشمالى ضد تدفق العرب والاسلام أم أن الزمن كان له عنصر مساعد فى ذلك .

بعد القرن الثامن بدأت اعداد القبائل العربية تكثر على شمال المملكة السودانية . وأصبح العرب أصدقاء للنوبة وتخالطوا بهم . وتدفقت بعض القبائل بشكل كبير على هذا الجزء منها ربيعة وجهينة وعكرمة على هـــذا الخط الشمالى وبذلك قويت شوكة العرب العددية وأصبح لهم وزن وتخالطوا بسكان وادى النيل وانتشروا على السهول الشرقية وعرفوا القبائل البجاوية .. ولكثرة هذا العدد تسنده دولة قوية .. أرهب العرب سكان هذا الخط الشمالى وفسحوا لهم وجعلوهم يعيشون بينهم يشاركوهم فى التجارة وخالطوهم . وبمرور جيل يأتى جيل بعده لاشك تختفى النظرة الغريبة للجانب الآخر فالعرب الأوائل الذين سكنوا بأرض النوبة لاشك كانوا ينظرون نظرة غريبة للنوبيين .. فقد عرفوا عندهم عبيدا .. كما أن النوبى كان ينظر للعرب كعنصر دخيل عليهم يخافه لقوته ويخالفه ويتحاشاه ولكن أحفاد هذا الجيل الأول حينما يشبون مع بعض يجدون أنفسهم مع بعض تختفى حدة هذه النظرة وبمرور السنين تتقارب الاخلاق والعادات والنفوس وهذا ما حدث ، رضى النوبة أن يسكن العرب بينهم ويسيروا فى ديارهم ويقيموا شعائرهم خوفا فى البداية .. .. وصداقة بعد مرور السنين ولكسب هؤلاء المتوطنين كان لابد من أن يتزوجوا منهم .. .. ولكنهم لا يزوجونهم بناتهم للتوقف المسيحى والاعتزازهم بعنصرهم العربى .. ..

ولكن الأجيال الجديدة التي ولدت في الوطن الجديد ولم تعرف شيئا عن تقاليد وأخلاق الوطن العربي القديم فلم تتمسك بهذه المعرات إذا أسلم أحد النوبين .

وبتدفق هذه القبائل رويدا الى الجنوب كان اضعافاً للمملكة المسيحية والدين المسيحي .. .. وبداية لنهاية الدولة المسيحية ـــ ففي القرن الحادى عشر قامت دولة بنى كنز أمارة إلى كنز الدولة وإلى الحاكم بأمر الله على أمارة اسوان .. .. فقد أقام كنز الدولة دولته العربية عند اسوان وقويت شوكته في حين كانت موارد الدولة النوبية تقل ليدخل العرب في الحياة المعيشية ولكثرة عددهم في الدولة وعدم إمكان تحصيل جزية منهم ولمشاركتهم في التجارة ـــ لم يرسل حاكم دنقلة الجزيه لأمير أسوان الأمر الذى قاد لاعادة تأديب هذا العاصى ولاظهار قوة العرب المسلمين من جديد في القرن الحادى عشر .

وبقوة هذه الدولة الكنزيه كثرت القبائل العربية من ربيعة وجهينة كما ذكرنا وأصبحت درعا منيعا لهذه القبائل بأن تتجول وهى واثقة بأن خلفها أمارة لها وزن في الاراضى المجهولة وهذه القبائل المتعددة المشاكسة . . . . فهى رغم ذلك تخاف القوى الذى في استطاعته أن يبطش بها .

هذا يبين لنا كيف كان دخول العرب من جهة الشمال عند النوبة بعد أن أصبحت اسوان أمارة ومركزاً تجاريا هاما في هذه القوة جمع إليه كثافة السكان ، ففيه تجارة مصر . . . وبضائع السودان وبضائع العرب . . . .. فمن السودان كانت الماشية والعبيد وريش النعام والصمغ والتره والذهب والعاج والبلح .. .. ومن الشمال كانت المنسوجات وبضائع الهند والسكر والودع وما شابه ذلك مما كان ينقع الاهالى الجنوب والمناطق البعيدة التى يجلب منها من الفيل وريش النعام والصمغ لتبادل السلع عليه .. .. وكان الذهب من

أهم هذه المواد .. وكان السودان مركزا هاما لهذه التجارة .. .. ومما ساعد تكاثر العرب ظهور تبر الذهب فى أرض المعدن ووادى العلاقى شرق اسوان .. .. وكانت هذه المناجم التى يخرج منها تراب الذهب ملكا لرؤساء القبائل البجاوية .. ولكن حاجة الإنسان العيش وللكسب جعلت القبائل العربية تزحف نحو هذا الوادى .. .. وزحفت القبائل العربية أول زحفها الى الشرق ثم الى الجنوب وكان وادى العلاقى وأرض المعدن هو بداية هذا الزحف وكان ذلك فى القرن التاسع الميلادى .

وكثر عدد القبائل العربية بين هذه القبائل البجاوية .. .. ولاشك أنها فى البداية لم تستطلف القبائل البجاوية هذه الهجرة ... وهذا ما حدث أن شنت القبائل البجاوية الغارات على هذه القبائل وعلى شواطىء النيل الأمر الذى أزعج أمير أسوان فأرسل إلى المتوكل على الله فى بغداد يشكوا أمرهم فأرسل اليهم هذا محمد بن عبدالله القمى ، واشتبك معهم وهزمهم ، ثم عقد صلحا معهم ... بعد أن قتل زعيمهم ... وأنتدب ابن أخيه ليذهب لبغداد ليطأ بلاط المتوكل على الله :

وكان هذا العقد الذى وقع فى القرن التاسع الميلادى هو جواز مرور للقبائل العربية والسياح الاسلام أن يدخل السودان من الشرق وأن تقام شعائره ولا يؤذى المسلم -- كل هذه الضمانات التى أعطيت للعرب المسلمين كانت هى أشارة دخول للعرب وللاسلام وبذلك كثر تدفق العرب من هذا الجانب حتى وصلت بمرور السنين إلى أرض البطانه عن هذا الطريق .

كانت قبيلة الحداربه (عربية أصلا) وهى من القبائل الكبيرة فى هذا الخط هى أول من عقد للصلح وأسلم بالجوار ومن هذه العلاقة أقيمت

الشعائر الاسلامية وصاهر العرب زعماء هذه القبائل ليأمنوا شرهم . . . وبهذه الوسيلة دخل العرب فى حياة هذه القبائل وتغلبوا عليهم ... وانتشر العرب عن هذا الطريق طلبا للمرعى أو بحثا عن الوحده أو المرعى الجيد أو لخلق زعامة لكل قبيله عربية بعد أن أصبحت لهم السيطرة العددية والتزاوج مع هذه القبائل البجاوية التى تشاركهم فى نفس المناخ والحياة المعيشية .

وحينما أصبح للقبائل العربية السيطرة على هذه السهول الشرقية حتى عيذاب شجع هذا الهجرة العربية لكثير من القبائل العربية من جهينة وربيعة فمنهم من سار حتى النيل من جانب الضفة الشرقية حتى وصل العرب إلى ملتقى النيلين وساروا غرب النيل .

أما من ناحية غرب السودان فقد كان الأمر يختلف عن الشمال .. فقد انتشرت القبائل الزنجية جنوب الصحراء الافريقية قبل ظهور الاسلام . . . عاشت حياة بدائية فى الأول ثم تطورت هذه المجموعات بسرعة أكبر من مجموعات جنوب السودان التى وقفت الطبيعة دون استقرارها أو ربما خيرات الطبيعة للمجموعات الزنجية التى لا تكلف جهدا هى التى عطلت الخلق والابداع . . . وقد وفرت الطبيعة للمجموعات الزنجية التى تسكن جنوب السودان كل الخيرات من ثمر وأمكانيات طيبة وحيوان بأقل جهد . فالأرض خضراء كثيفة بها شتى النباتات والأشجار المثمرة التى ساعدت تلك المجموعات على الراحة . . فالطبيعة لم تطلب منها التعب لغرس الحبوب ورعاية الحقول . . . . وقد منحتم الطبيعة هذه الميزة ليوفر طاقته ووقته للدفاع عن نفسه من الوحوش المفترسة التى تعيش معه داخل الأشجار والحشائش والمستنقعات فلو فرضت عليه الطبيعة الواجب الطبيعى للبحث والتعب والاجتهاد فى لقمة العيش من غرس وحصاد .. الخ

الكانت مكنت الوحوش الضارية من صيده ولما وجد الوقت الكافى والطاقة لمحاربتها والهروب والاختباء منها .

أما فى غرب السودان فالاراضى سافنا تختلف اختلافا مناخيا ونباتيــا عن منطقة الجنوب وأرض الجزيرة التى كانت فيما مضى كثيرة الأعشاب والاشجار والمستنقعات . . . فالأرض فى غرب السودان رملية . . . وبها بعض الجبال والوديان مما يساعد على الزراعة والرعى وبهذه الحرفة تكون المجتمع الزنجى العربى الاول الذى أمتد جنوب الصحراء حتى النيجر والسنغال .

ولكن حال هذه القبائل لم يستمر كما تحب فقد حدث اضطراب سياسى عنيف فى الدولة الاسلامية . . . سقطت دولة الأمويين بعد أن انتشرت على طول شمال أفريقيا بأنصارها وقبائلها لتظهر دولة فتيه قوية هى الدولة العباسية .

ولم يكن سقوط الدولة الأموية هو سقوط حاكم واحد أو بيت أو قبيلة انما كان سقوط نظام تحميه عصبية واسعة حادة الامر الذى ملأ النفوس بالحقد والكراهية لكل أنصار الفريق الآخر الأمر الذى جعل تدفق القبائل العربية المناصرة لبنى أمية هاربة إلى خلف الصحراء الافريقية أمرا مقبولا ومعقولا حتى فرضت هذه الهجرة العربية شخصيتها وكثرتها على القبائل التى تجاور الصحراء مما قاد لانتشار العنصر العربى فى وسط أفريقيا ولانتشار الاسلام بين القبائل الزنجية واختلاط القبائل بالمواطنين مما قاد لقيام دويلات إسلامية فى وسط أفريقيا فى السنغال والنيجر وبرنو وكانم ووداى ودارفور .

ومن هنا تبين لنا صوره حدود السودان الغربية التى واجهت هذه الدويلات الاسلامية العربية الزنجية التى تمتد من نهر السنغال فالنيجر وتشاد وبرنو وكانم .

وإذا عرفنا أن سقوط دولة الامويين كان فى القرن الثامن الميلادى . . . . ويبدأ زحف هذه القبائل التى تطاردها العصبية القبيلة الحاكمة . . . والعداء المذهبى أن تتوغل فى أفريقيا وقد أخذت هذه القبائل وقتا طويلا لتتأقلم مع المجتمع الجديد الذى واجهته والظروف السياسية التى تحيط بها ولا شك أن موقفها السياسى فرض عليها السكون وطلب الملجأ أكثر من محاولة أثارة هذه القبائل والا أصبحوا محاصرين بعداوة الحكم العباسى من الشمال ثم الفاطمى فيما بعد وهذه القبائل الزنجية فى شمال ووسط أفريقيا . .

وحينما وصل العرب إلى هذه الأراضى لم يجدوها خرابا بل وجدوا فيها نظاما للادارة والحكم والتجارة رائجة . وطرقها سائرة بين الجنوب والشمال والشرق والغرب .

ومن هذه الدويلات القديمة قامت دولة وثنية فى غرب السودان هى دولة دار الفور أو سلطنة دارفور قبل وصول العرب من العنصر السودانى الذى استوطن وسط أفريقيا ثم مهد هذا التجمع إلى ظهور سلطنة الفور الاسلامية فيما بعد .

العرب فى السودان الشمالى بعد حكم الفاطميين :

كما جاء فى دخول العرب على غرب السودان بداية زوال حكم الامويين وقيام دولة العباسيين وإنشقاقها بقيام دولة الشيعة الفاطمية على شمال أفريقيا أى بقيام دولة الادارسة فى المغرب وانتقال عاصمتهم من المهديه إلى قاهرة المعز لدين الله عام ٩٧٠ م .

أستمر حكم الامويين على شمال أفريقيا ومصر حتى عام ٧٥٠ م حتى انتزعت مصر من يد الامويين الذين لم يهدوا لانصارهم من الاستيطان فى مصر بل كانت فتوحاتهم فى المغرب تتطلب أعدادا هائلة من العرب ولذلك كثر عدد العرب الامويين ولم يستقر فى مصر إلا عدد بسيط من الجند وصلوا حتى حدود المملكة عند إسوان ليحفظوا حدود المملكة ويجبوا الضرائب من سكان تلك المنطقة ويحافظوا على عدم غارات النوبيين عليهم

وبأنتهاء القرن العاشر الميلادى وبداية القرن الحادى عشر بدأت القبائل العربية التى كانت تقيم بجوار إسوان وتحرسها فى عهد الامويين بظهور دولة الشيعة الفاطمية من الهروب إلى الجنوب ودخول السودان بعد أن أصبح الطريق مقفولا أمامهم من الشمال زاد عليهم القبائل التى أتت إلى مصر لمناصرة العباسيين فى حكم مصر . وبذا نزحت إلى مصر بعد الاسلام قبائل عربية تناصر بنى أمية ثم هربت هذه القبائل للجنوب . . ثم جاء الشيعة إلى القاهرة إنتصارا للعلويين وانشقاقا على العباسيين الذين تنكروا لآل البيت الذين استغلوا الدعوة لهم فى جمع أعداء بنى أمية والاطاحة بهم .

وبظهور الفاطميين على مصر أصبحت مصر ولايه شيعية لا مكان للامويين والعباسيين بها . . . وبذا بدأ توقف هذه القبائل إلى داخل السودان الشمالى .. وحيث كانت القبائل النوبية المسيحية تسيطر على أرض النوبة فلا مجال لهذه القبائل الهاربة فى هذا الطريق وهى تتحاشا الاحتكاك بهذه القبائل خائفة من العدو الذى يسيطر على الشمال .

العرب على النيل

أختلف ماكمايكل ومحمد عوض محمد فى نسب الجعليين مجموعة القبائل النيلية الميرفاب - الرباطاب - المناصير - الشايقية - الجوابرة الركابية - أختلفوا فى نسبهم إلى ابراهيم جعل بن سعد بن فضل بن عبد الله بن عباس بن عم الرسول صلى الله عليه وسلم - اختلفوا فى هذا النسب وهذا الاسم وعدد الأجيال التى جاءت بعد الرسول (صلعم) وفى القرن الذى جاء فيه إبرهيم جعل هذا حتى كون هذه المجموعة الجعلية الكبيرة .

ومن نسب ابراهيم جعل هـذا يظهر انها نسبة إلى العباسيين . . . ويمكن أن نرجح صحة هذا النسب لحكم العباسيين لمصر فى القرن الثامن الميلادى وانسحاب العباسيين من مصر للشيعة وهروب اتباعهم للجنوب . . . ولا شك أن ابراهيم جعل هذا كانت له المكانة بالنسبة للقبائل العربية التى هاجرت إلى الجنوب وجعلت إبراهيم هذا كبيرها وزعيمها نسبة لانتمائه للبيت العباسى وخضوع القبائل العربيه المحبة لآل الرسول ولاسرته وبذلك جعلته زعيما لها فى مهجرها الجديد حتى بعد أن اختلفت معه فى الطريق بحثا عن مأوى وأرض للسكن . . وبذلك جعلت أسم هذا الزعيم حيث ذهبت وجعلته أبا روحيا لها رغم

أنها لا تنتمى إليه فى الدم بل بالطاعة والولاء والمذهب السياسى . . . .

وبذلك انتشر أسم إبراهيم جعل على كل القبائل التى هاجرت وسكنت ضفاف النيل وعبرت إلى كردفان كالجوعة والجمع والبديرية والجوامعة والغديات والبطاحين فى الجزء الشمالى من البطانة .

كل هذه المجموعات انتمت إلى ابراهيم جعل العباسى الذى هرب لا شك من دولة الشيعة الفاطمية التى قامت فى المغرب واستولت على مصر فى القرن العاشر الميلادى وبذلك يمكن أن نؤرخ بداية نزوح هذه القبائل للسودان بالقرن الحادى عشر الميلادى بعد قيام دولة الكنوز فى إسوان . . .

وبانسحاب كل القبائل التى كانت تناصر مذهب العباسيين بدأ فى القرن الثانى عشر الميلادى إستيطانها على النيل وزحفها إلى الغرب والبطانة حتى كان القرن الثالث عشر والرابع عشر حتى ملأت السهول والوديان وقوبلت بالرضا من قبائل النيل القليلة العدد التى لم تجد من هذه المجموعات مضايقة لها فى معيشتها فمساحات السودان الشاسعة ما زالت ترحب بالمزيد من كثافة السكان .

سكان غرب السودان ودخـــول العرب

كما أسلفنا بأن منطقتى كردفان ودارفور أذا قورنتا بمنطقة جنوب السودان تعدان أكثر ملائمة للاستقرار . فالطبيعة عنصرها المساعد للتطور والحضارة فطبيعة أرض الجنوب الاستوائية ونباتاتها وأدغالها ووحوشها كانت حائلا دون تفوق استقرار سكانها وبناء حضارة . أما فى هاتين المديريتين فالأمر يختلف فجنوب هاتين المديريتين توجد السافانا الغنية ثم سافانا متوسط من الشمال السافانا الفقيرة حيث تمتد الصحراء النوبية .

وهذا المناخ الطبيعى المتنوع الغنى بالوديان والهضاب والأعشاب المختلفة الصالحة للرعى والزراعة قادا لعمران هذه السهول والوديان .

سكنت هذه السهول والهضاب والوديان الرملية عناصر زنجية عرفت أكبر مجموعتين منهما بالداجو فى شرق منطقة جبل مرة و« الداجو » أو « التاجو » فى جنوب شرق مديرية دارفور « والباجرمى » فى الجنوب الغربى . ثم الفرديت فى جنوب دارفور والكنجارة فى جبل مرة ، هذا فيما يختص بالاجناس الاصلية التى كانت تعمر منطقة غرب السودان ، وهى الأجناس الاصلية التى كانت تعمر منطقة غرب السودان ، وهى الأجناس زنجية الاصل قبل أن تصل اليها الهجرات العربيـــة

وهذه الأجناس الزنجية التى عمرت أواسط افريقيا حتى نهر السنغال . ولا شك أن تناسل هذه القبائل ، امتلاء أراضى افريقيا وأوسطها ، جاء نتيجة لتناسل هذه القبائل التى سكنت خط الاستواء ، ونهر النيل وغرب أفريقيا ، ووجدت

نفسها بين الأدغال والحيوانات ، الأمر الذى هيأ للقبائل التى خرجت من خط الاستواء وأعالى النيل أن تتقدم فى عالم الحضارة والاستقرار وأن تخلف المدينيات وتنشىء الدولة بما مهد لهذه الدويلات الزنجية المتقدمة أن تتعامل مع القبائل العربية الهاربة من الاضطهاد السياسى وتمتزج بها وتستفيد من حضارتها ، وعلمها وتخرج تلك المدينيات الافريقية من عالمها الضيق لعالم أرحب والى رؤيا جديدة فتحها لهم العرب الرحل بأبلاغهم أن هنالك عالم آخر غير عالم هذه الدويلات المنعزلة المنحصره فى أواسط أفريقيا كأن اجتياز العالم الذى هرب منه العرب كان موضوع تعليق ودهشة سكان وسط أفريقيا إذ يسمعوا لأول مرة أن هنالك بلاداً عامرة غير بلادهم وأن هنالك ممالك وحكاماً وهنالك بشر بخلافهم وهنالك جنس آخر غير جنسهم وبشرة تختلف عن بشرتهم .

هذه الأشياء البسيطة لاشك كان لها آثرها فى تفتح ذهن سكان وسط أفريقيا إذا كانوا لا يظنون أن هنالك بشر بخلافهم وأن هنالك إنسان له بشرة غير بشرتهم وأن هنالك عالم فسيح يحتاج الوصول اليه إلى شهور وسنين من السفر بالجمال والقوافل .

سكن « التنجور » « والداجو » كأكبر قبيلتين أرض دارفور شاركهم كثير من القبائل الزنجيه الصغيرة كالفرديت والبرقد والأباديما والتمبوركة وفنجرو وورونجة والمساليط والاماوما والكنجارو والشلك فى الجنوب الشرقى . . . ولكننا إذا حاولنا أن نهتدى إلى القبائل الأولى التى سكنت هذه الاراضى فلا شك إننا لن نجد هذه الأسماء الكثيرة التى ظهرت بظهور سلطنة دارفور والتى وصلت الينا عن طريق الممالك التى قامت فى وسط أفريقيا . وعلى هذا علينا أن ننظر إلى سكان السهول قبل تكوين هذه المدينيات والحضارة حتى نصل إلى القرن الخامس عشر الميلادى .

إننا نرجح أن أصل هذه القبائل الزنجية زحف إلى هذه السهول من القبائل الزنجية التي تسكن الأنهار التي تملأ منطقة خط الاستواء وأعالي النيل ، وبخروج هذه القبائل للسهول والشمس وجدت الظروف الطبيعية ملائمة أكثر للاستقرار بل الإستقرار كان هو الحل الوحيد لحل مشكلة العيش قبل أن تعرف مهنة الرعى وتربية الحيوانات التي جاءت أخيراً وتعلمها الانسان بعد أن عرف كيف يميز الحيوانات المفترسة من غيرها .. حتى كثرت هذه المواشي وفرضت عليه من جديد حياة التجوال .. والبحث عن مرعى أو وادى .

كان جبل مرة مصدر حياة لكثير من القبائل المستقرة في غرب السودان وعرف جبل مرة بتنوع النباتات لارتفاعه وصلاحيته للزراعة في منحدراته مما ساعد على نمو نباتاته طول السنه وذلك لتنوع مناخه ووجود مياه الأمطار به والينابيع الكثيرة التي تسقى الزرع طول السنة .

وهـــذا الجبل وثروته كان يجب أن يكون مصدر قوت لسكانه ... وأن يستفيد المقيمين به لتطوير حياتهم وفرض شخصيتهم بما لهم من الإمكانيات والثروة على بقية القبائل التي تسكن تحت الجبل أو بالقرب من وديانه ولكن ما حدث أن القبائل التي تسكن هذا الجبل انزوت فيه وحرمته من هجمات القبائل الكثيرة الأخرى الطامعة في خيرات هذا الجبل . وأصبح موقف القبائل المستوطنة لهذه الجبل موقف المدافع على طول الزمن بدل موقف المهاجم يقوى ويبدو أن كثرة القبائل المحيطة بالجبل جعل فرض السيطرة عليهم أمراً صعباً إذ يستطيعون أن يفروا إلى السهول ثم يعودون وذلك يعني نزول سكان الجبل من جبلهم لمطاردة المغيرين وهذ يفتح باباً لقبائل أخرى لتهجم من جهات اخرى وبذلك فضل سكان هذا الجبل موقف المدافع عن ثروتهم الطبيعية دون أن يستغلوا منها وأن يستفيدوا من امكانيات القبائل التي حولهم او حضارة الشعوب الأخرى .

ولم يسمحوا بأستغلال هذا الجبل الأستغلال الطيب المثمر المفيد بل إستفادوا منه حسب حاجتهم المعيشية وليس حسب حاجتهم الحضارية التى تطلب منهم بناء دولة ومدنية .

غناء هذا الجبل ، وتدفق المياه منه للوديان دفع القبائل الزنجية التى عمرت تلك السهول للاقتراب منه والعيش على فائض مائه فى زمن الصيف . كان جبل مرة هو الامكانيات المادية لنشؤ الدويلات السودانيه التى قامت فى دارفور . فغناء منطقة هذا الجبل كفلت الاستقرار لهذه القبائل بأن تعيش حول هذا الجبل ، أو بالقرب منه أو الوديان التى تنحدر منه . هذه الثروة الطبيعية كانت السبب المباشر لخلق التجمع الأول الانسان الزنجى فى غرب السودان كما كانت ثروات النيل سببا فى نشؤ الحضارة الأولى وأرض النهرين ، الفرات ودجلة سبباً لازدهار حضارة بابل فى تلك المنطقة كما كانت وديان وأنهار شمال البحر الابيض المتوسط سبباً فى قيام حضارة الرومان والاغريق .

إكتشف الانسان أن هذه الخيرات بعد سنين التجوال والبحث حتى أستقر به المقام عندما توفرت له أسباب الاستقرار .

تلك المنطقة الغنية فى الغرب المحيطة بجبال مرة كانت السبب فى حياة الدويلات التى ظهرت فى دارفور ولم تظهر فى كردفان ذات السهول الرملية الفسيحة الفقيرة من الانهار مثل أرض البطانة التى أحسن حالا لوجود ثلاثة أنهار تحيط بها ولكن السهول التى فى وسط شبه جزيرة البطانة منعا قيام حضارة فى تلك السهول . أنما رفع ذلك لقيام حضاره على النيل ثم على النيل الازرق بجوار ملتقى النيلين وبجوار الرهو واندلدر أو مدينة سنار .

إذا حاولنا أن نتعرف على الأجناس الأخرى التي خالطت القبائل الزنجية قبل وصول القبائل العربيـة وتفوقها على هذه القبائل ، نجد في الشمال الجنس الليبي شمال صحراء أفريقيا ثم القبائل النوبية على النيل ثم قبائل الشلك في الشرق والجنوب الشرقي . . وإذا عرفنا أن قبائل الشلك التي تقهقرت الآن إلى بحر الغزال انها كانت تغطي وسط السودان حتى قرب ملتقى النيلين وأنهـا كانت ذات مناعة وقوة ثم من الغرب القبائل الزنجية الأخرى التي خرجت من خط الاستواء لتعمر وسط أفريقيا وتسكن على الوديان والسهول والبحيرات والأنهار ماساعد على خلق ظروف ملائمة مثل الظروف التي إتيحت للقبائل الأخرى والحضارات الأخرى . . ولكن اكتشاف هذه الظروف لاشك جاء متأخراً بالنسبة للقبائل الزنجية بالمقارنة الأجناس التي سكنت أرض النيل والفرات وشمال البحر الأبيض المتوسط .

إذاً يتساوى مع قبائل الفور الأول سكان وسط أفريقيا في نفس المستوى الحضاري والاجتماعي بظهور المجتمع القبلي أو الممالك الصغيرة وسط أفريقيا التي أمتدت على الأنهـار والوديان والبحيرات . تسكن في شمالها قبائل الشلك القوية العريقة التي لاترغب في الابتعاد عن حياة النيـل . . ويبدو أن احرار قبائل الشلك عن الابتعاد عن النيـل هو الذي حد من تطور ممالكهم حيث قامت على شمال النيـل ممالك قوية عريقة . مروى القديمة ، وسوبه ثم الفونج .

إقتنع الشلك بملكهم على النيـل وقل خطرهم وأثرهم على تلك المنطقة البعيدة حول جبال مرة . والذي حدث هو مساهمتهم في تعمير الأرض بكردفان وجنوب دارفور من الجماعات الهاربة أو القبائل الباحثة عن أرض

جديدة أما فى الشمال فقد كانت القبائل النوبية على النيل ثم العنصر الليبى الذى كان له أثر وغارات على النيل والذى دلت الآثار على أن هنالك مدينيات عاشت فى الصحراء جنوب النيل على الواحات قبل أن تقضى الرياح الرملية الصحراوية على تلك الوديان والواحات كما أن هذه الصحراء الافريقية الجرداء اليوم لم تكن قبل عشرات الآلاف من السنين كما هى بل كانت عامرة بالحياة والحيوانات والانسان مما ساعد على هجرات كثيرة من القبائل الليبية للجنوب وكذلك كثير من القبائل النيلية للجنوب مما ساعد على أنعاش حركة الحضارة والمدنية فى غرب السودان فى عصورها الأولى .

وتذكر لنا دائرة المعارف الاسلامية وما كما يال وبارث ولامين سلجان وبالمر بعض الحقائق العلمية عن الاجناس التى سكنت وسط افريقيا يجدر بنا اثباتها هنا قبل مناقشتها .

فى هذه القبائل الأصلية التى عمرت أرض دارفور أن الداجو من أقدم العناصر التى سكنت دارفور وتعيش جماعات منها فى دار صليح ودار مسيريه فى جنوب غرب كردفان . . وهم أول من أسس مملكة بدارفور وأن التنجور هم الذين أزاحوهم من وسط دارفور إلى مواطنهم الحالية .

وهذا الزعم الذى ذهب اليه هؤلاء الكتاب يصعب أثباته . . . . فقد عرفت هذه المنطقة العمران منذ زمن بعيد إذا أدركنا أن العرب كونوا دولتهم الاولى من زنوج تمبكتو فى القرن الحادى عشر الميلادى ولم يصل العرب فى ذلك الحين إلى هذه المناطق كما أنهم لم يكتبوا عن هذه المنطقة المؤرخين الاوائل الذين كتبوا عن الممالك الاسلاميه فى غرب أفريقيا فهذا الزعم لا يقوم على

أساس ولا تستند فيه إلى روايات تاريخيه حيث لا توجد أى آثار مدونه عن التاريخ القديم لهذه الأجناس الا التصور العلمى أما محاولة هذا الزعم فلا تسنده أى حجه عليه . أذا عرفنا أن هذه الارض كانت آهله بالسكان قبل الميلاد ووجود الشكل على النيل والارض التى حواليه يثبت هذه الحقائق

التنجور : —

يذكر أهل البـــلاد أن الداجو أول من أسس دولة فى منطقة دارفور وتلاهم التنجور ثم الفور . . وزعم ماكما يكل أنهم من النوبيين ومن هلائه وأنهم هاجروا فى بلاد النوبه فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادى واشتهروا هناك بأسم التنجور وأسسوا دولة الداجو فى جنوب جبل مره ، ثم بسط التنجور سلطانهم على وادى غرب دارفور .

فأدى ذلك إلى اضعاف سلطانهم فى دارفور خاصة ولذا انتزعته منهم أسرة من الفور تسمى أسرة « كيرا » . واسست سلطنه دارفور من التنجور جماعات موزعة بين دارفور ، ومرواى وكانم وبرنو :

ويبدو أن الذين جاءوا بهذه الاراء أعتمدوا على روايات فى زمن متأخر من أناس لا يدركون معنى الروايه العلميه . . . فى حين يصعب إيجاد روايه علميه لا دل هذه المجموعات إلا فيما يختص بالقبائل العربيه أو النوبيه التى أتت حديثا إلى هذه الاراضى .. ولكن هذه الاجناس هى التى عمرت هذه الاراضى دون أى مؤثرات خارجية كبيرة من النوبيين أو الليبيين وربما يكون للشكل تأثير كبير على هذه الاجناس أكثر من أى عنصر آخر .. ثم ان التصور العلمى لا يمكن أن يصل إلى هذه النتيجة كما أنهم لم يحاولوا أن يتصوروه؟

أسلوب العمران الذى يحدث فى بداية الحياة الحضارية ولا أنقسام القبائل فى قبيلة واحدة إلى عدة قبائل بسبب التشاجر والاختلافات العائلية والزعامة مما يدفع إلى أهل البيت الواحد إلى النزوح على آراضى جديدة لتكوين حياة جديدة لهم فى خلق قبيلة بمرور السنين بهذا الانقسام والانشقاق .

البرقو : من سكان وادى برنو ، انتقلت جماعات منهم إلى دارفور حيث عرفوا مع غيرهم من الجماعات الوافدة من وادى بأسم المراريت ومعظمهم يسكن شرق ووسط دارفور .

التكرور : شعب من الزنوج يسكن معظم وهادفرنة السنغالية وتعيش شعبة منهم فيما بين النيجر وبحيرة تشاد ولاسيما فى سكوتو وربما يكون تكرور هى الاسم الذى كانت تعرف به فى وقت من الاوقات مدينة بالقرب من نهر السنغال والمملكة التى كانت عاصمتها هذه المدينة وموضعها الان فوته السنغاليه ثم أطلق اسم تكرور على جميع بلاد السودان التى دخلها الإسلام وهى الممتدة من المحيط الاطلنطى إلى حدود وادى النيل وأصبحت كلمة تكرورى فى نظر العرب مرادفه لكلمة سودان .

الفرتيت أسمه اطلقه العرب على القبائل التى تسكن فى أقصى جنوب دارفور وشمال غرب بحر الغزال وفى أقليم وادى وزعم ماكما يكل أنهم سكان جبل مره الاصليين وأزاحهم الداجو ثم التنجور والعرب من مواطنهم الاصليه فى جبل مره إلى الجنوب والفرتيت قبائل سته منها رونجـه وبندلا ، وشت ، وبنجا وفراوجيه .

البرقو : من سكان وادى وبرنو أنتقلت جماعات منهم إلى دارفور ، مع غيرهم من الجماعات القليله الوافده من وادى باسم المراريت ومعظمهم يسكن شرق ووسط دارفور .

وفى هذا التعريف تظهر لنا القبائل التى حملت شتى الأشياء والتى انشقت بعضها البعض أو التى أمتزجت مع بعضها رغم اختلاف الاسماء فى وسط أفريقيا من دارفور حتى التنجور والسنغال . وهى قبائل الداجو والتنجور والتكرور والأنهار المتشابه فى طبيعتها ونباتاتها وحشائشها ومناخها .

ظلت هذه القبائل الزنجيه صافيه العنصر إلا من بعض الهجرات الليبين والنوبيين والشكل ، التى ساعدت فى تطور مدينه هذه الجماعات وظهور تلك الممالك حول جبل مره قبل ظهور العرب المسلمين فى أفريقيا ووضع تلك الجماعات المجاوره يسمح منطقيا بالهجره .

وظهر العرب كما سبق كما هاجرين وفاتحين لظهور الإسلام فى النصف الاول من القرن السابع الميلادى ودخول عمر بن العاص إلى مصر عام ٦٢١ م .

وقد انتشر العرب على طول شاطىء أفريقيا الشمالى فى عصر بنى أميه حتى جاء عام ٧٥٠ وسقطت دولة الامويين لتبدأ دولة العباسيين . هذا الانتصار للعباسيين على الأمويين بعد سنين من الحقد والتربص والكيد شحن النفوس والقبائل والانصار بشتى المشاعر والكراهيه السياسيه التى غلبت على رسالة الدولة الإسلاميه الجديده وحتى قادت لتمزقها كما سنرى فيما بعد .

وبتغلب الدولة العباسية على الدولة الأمويه فى القرن الثامن الميلادى يمكن

أن نؤرخ بدايه زحف القبائل العربيه عن الأراضى التى أحتلتها فى أفريقيا من قبل لتفسح المجـال لأنتصار الدولة العباسيه ليحتلوا مكان تلك القبائل . هذا الزحف كان تنقله على الشاطىء الشمالى لأفريقيا ويـدوا أن القبائل العربية التى جاءت إلى مصر زمن الامويين لم تستقر فى مصر بالنسبة للحاجه العسكريه التى كانت تطلبها الفتوحات الأسلاميه فى شمال افريقيا والأندلس لذا نلاحظ إن القبائل العربية التى أستوطنت مصر لم يكن لها شأن حتى القرن الثامن الميلادى انما جاء ذلك بعـد القرن الثامن الميلادى واستلام العباسين للسلطه ومنهم بدأ استيطان القبائل العربيه بأعداد كبيرة فى مصر لان عصر الامويين كان عصر فتوحات وأنتصارات لم يسمح لقبائل العربيه صاحبة الدعوه بالراحه والاستجمام بل كان جنود الدعوه وسيوفها حيث أمتدت قوة الدولة الأسلامية الأمر الذى جعل أعدادا هائله من هذه القبائل تنتشر على شمال الشاطىء الأفريقى :

بأنتصار العباسيين على الامويين بدأت حركة قلق عند القبائل المنـاصرة للأمويين وبدأت حركة التحرك من أراضى الدولة الجديدة .. وبدأ أبى العباس السفاح فى تعقبهم ومطاردة آخر ملك لهم وأرسل جنده خلف مروان بن ولحقه قائد جيش العباسيين عبدالله بن على بالشام ثم طاردته حتى جيوشه من قريه بوصير بمصر ، وقتله وأرسل رأسه لعبدالله بن على العلى الذى بعث به إلى إبن العباس السفاح الذى كان ابتهاجه برؤيه رأس خصمه أمامه أن كر ساجداً لله وأنشد قول الشاعر :

لو يشربون دمى لم يروا شاربهم   ولا دماؤهم للغيظ ترويني

وما فعله السفاح بضيف مجالسه سليمان بن هشام بن عبد الملك حينما اغتاظ أحد أنصار العباسيين لوجود هذا الاموى بينهم انشد .

لا يغرنك ما ترى من رجال ... ان تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

وهذا يكشف لنا المظهر الانتقامى الذى ساد على خلفاء العباسيين والحقد المكبوت عند انصارهم للامويين : الذين أذاقوا العلويين والهاشميين مر العذاب والتنكيل ، الامر الذى انعكس على سائر سياسة الدولة فى معاملة جنودها وأنصارها لرجال الدولة السابقة وأنصارها .

وقد عمل عبد الله بن على بالشام ماجال بصدره من حقد فأكثر القبور وطارد الاحياء . . وأخرج العظام من القبور وأحرقها . .

بنى أميـــة قد أفنيت جمعكم ... فكيف لى منهم بالأول الماضى

يطيب النفس أن النار تجمعكم ... عوضتم من لظاها شر معتاض

هذا ما فعله العباسيين فى بدء الامر بالامويين حتى أجلوهم من أمارتهم وهربوا إلى الاندلس ولان من وجد الفرصة عند دولة الاندلس البعيدة عن سيطرة العباسيين وهرب من الاعراب من هرب إلى داخـــل افريقيا طلبا للاستقرار وضمانا لحياته .

رغم التماسك الظاهرى الذى بدأ على الدولة العباسية قبل أن تظهر دعوة العلويين وانشقاقهم وتكوينهم دولة الفاطميين بالمغرب الامر الذى زاد الحال سوءا بالنسبة لأنصار الامويين . . فإن كان العباسيون غلاظا منهم وأكثر حقداً فالشيعة دائمون ثأراً وحقداً على قتله آل البيت .

وبقيام دولة الادارسه بالمغرب الاقصى معاصرة الشيعه إنتهى عصر الأمويين وانقسمت الدوله العباسية وظهرت عوامل التناقض التى دفعت الجميع للقضاء على حكم الأمويين وأستلام السلطه ونسيان آل البيت فى هذا الحق الذى جمع العباسيون حوله العرب والفرس للقضاء على دولة الأمويين . . .

وفى نهاية القرن الثالث الهجرى (العاشر الميلادى) ظهرت دولة الفاطميين الشيعية بعد أن مهد لها الادارسة فى المغرب الاقصى وزحف الفاطميون على مصر عام ٩٧٠ م بقيادة جوهر الصقلى فى عهد المعز لدين الله وبنى القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية الجديدة معلناً بذلك قيام دولة شيعية قوية فى أفريقيا منفصلة عن كل نفوذ من أرض الرسالة الجزيرة العربية وبذلك أصبح العرب سادة شرق أفريقيا وأصبحت الأرض ممهدة لانصار الشيعة الذين كانوا يحلمون بدولة آل البيت ، بنصرة دعوتهم وعودة الحق إليهم ، قد تحققت على يد الفاطميين تيمنا بفاطمة الزهراء . . . وانتقلت العاصمة من المهديه بالمغرب إلى أرض النيل وكان قيام كل من الدولتين له أثر على دخول العرب على غرب أفريقيا وعلى السودان الشمالى كما سنرى فيما بعد . .

ويبدو أن الاضطهاد السياسى بقيام دوله الادارسة بالمغرب أدى إلى هروب أعداد هائلة من أنصار الأمويين إلى داخل أفريقيا حيث لا يوجد حاكم يساند العباسيين يخشى من غدره ، رغم التجاء البعض إلى الاندلس . لكن الاعداد الكبيرة التى وازنت الامور وجدت الامان المطلوب هو فى هذه الارض الجنوبية وبذلك سارت القوافل داخل الصحراء والوديان والجبال وأنتشرت على غرب افريقيا حتى وصلت السنغال والنيجر ووسط أفريقيا ، ووجدت الطبيعة تلائم حياتها وطبيعتها البدوية فعاشت هذه القبائل العربية فى سلام . لم يقلل من عددها عدو أو حرب ، فتكاثر عددها بمرور السنين حتى ظهرت فى

عام ١١٠٠ م دولة تمبكتو المسلمة على نهر النيجر وحملة لواء الرسالة الجديدة بين هذه الشعوب التي لم تعبد آليهاً من قبل ودخلت الدين الاسلامى فى يسر ومكنت للعرب والاسلام من أن يستقروا فى وسط أفريقيا . . .

لاشك أن قيام دولة « تمبكتو » لم يكن قيام دولة اسلامية لها قوة القاهرة أو بغداد بل كان بداية تكوين لخلق نظام للجماعات المسلمة التى تكاثرت على نهر النيجر . . وخلقت أول بذرة لدولة المسلمين بين الزنوج وانتغلب العنصر العربى على زنوج وسط أفريقيا والانصار فيهم . . .

ظهرت دولة تمبكتوا وقبائل وسط أفريقيا تعيش بقانون القبلية ، وتطور بها الزمن حتى ظهرت دولة برنو وكانم وو داى ودارفور على نفس الخط مالئة وسط أفريقيا بدويلات صغيرة لم تعرف الاسلام فى بدايتها ولم يستطع العرب المتجهين إلى أفريقيا التجرؤ على سلب سلطة تلك الدويلات أو التى عاشوا مجاورين لها أحسن جوار مسالمين محاولين الابتعاد والتحرش بهذه الجماعات قدر أستطاعتهم . فهم فى موقف لايحسد عليه وأخبار دولة الفاطميين وبسط نفوذها على كل الطرق مازالت تصل اليهم وقفل طريق العودة لذا رفضوا الدخول فى مشاحنات تضرهم إلى الاتجاه إلى أعدائهم الشيعة .

وبذلك كثر عدد الاعراب حول قبائل جبله مرة الآتية من ليبيا وعاشوا مع آبلهم ورعيهم على الوديان مبتعدين قدر المستطاع عن هذه الدويلات الزنجية وعمروا السهول الشمالية . . .

وحيث لم تكن لهذه الدويلات سلطه واسعة تحجمهم فلم يستطيعوا طرد

هؤلاء الاعراب ، حيث لم يفكر هؤلاء الأعراب فى مضايقة هذه المجموعات فى أراضيها ورزقها حيث كانت الأرض واسعة لمجموعات أكبر ، وما زالت تلك السهول كافية لمجموعات أكبر ولأعداد هائلة من المهاجرين . . .

فقد أنتهت مشكلة التزاحم على الاراضى والقوت التى ربما لووجدت لخلقت صراعا عنيفاً بين هذه القبائل المستوطنة وبين القبائل المقيمة حول الجبل والوديان والانهار . . .

وبذا ظهر العنصر العربى على حدود دارفور الشمالية ولم يذكر لنا التاريخ أى شىء عن العلاقات الاولية وأثر هؤلاء العرب على العناصر الزنجية التى تحكم دارفور . . . إلا روايه المعقود الذى يرجع اليه أسلام دولة دارفور وادخال الدم العربى على البيت المالك .

ظهر الاسلام فى منطقة دارفور وكردفان ، بظهور العرب على الحدود الشمالية على هاتين المديريتين ، وتوغلهم داخل هاتين المديريتين مما جعل السلاطين القائمين على شعوب هذه المناطق من المتأثرين بدين هؤلاء العرب وزعمائهم الذين أوجد علاقات ما مع علماء القبائل السودانيه .

وما تحكيه الروايات التاريخية أن السلطان سولنج هو جد مؤسس سلطنة الفور الإسلامية فقد إقتسم سليمان سولنج حكم كردفان ودارفور مع أخيه المسبع أخذ أقليم كردفان وأخذ هو أقليم دارفور وأن السلطان سليمان سولنج والذى تدعى بعض الروايات انه حفيد أحمد المعقور من بنى هلال الذى عقره أخيه فى طريقهم إلى المغرب ففر بعبيدة إلى دارفور وشارك بعلمه فى تنظيم سلطنه الفور حتى زوجه سلطان الفور من إبنته وبذلك دخل الدم العربى على الدم

الزونجى . ومعه دخل الاسلام . وهذا التاريخ غير واضح المعالم وبداية هذه السلطنة غير مؤكد ، ولكن بدأ حسب الروايات فى القرن السادس عشر الميلادى لأن سليمان سولينج حفيد المعقور حكم سلطنة دارفور عام ١٦٤٠ ويرجح أن يكون بداية هذه الأسرة العربية الهلالية فى آواخر القرن السادس عشر الميلادى وبهذا التاريخ يمكن لنا أن نؤرخ دخول سلطنة دارفور تحت الأثر العربى الذى لاشك إن صحت رواية المعقور قد مهد له العرب المجاورين لسلاطين الفور منذ زمن بعيد حتى يجد المعقور الأرض ممهدة ليعمل فى خدمة سلطان الفور .

ويحكى عن سليمان سولنج أنه بدأ اصلاحات كثيرة على سلطنه وشن غارات عديدة بلغت ٣٣ غارة على العرب والقبائل لاخضاعها تحت طاعته وقد حكم سلطنة دارفور من عام ١٦٤٠ م إلى ١٦٧٠ م فى خلالها نظم شئون هذه السلطنة وأرساء قواعدها لتستمر فى دارفور ، وتفتح المجال للقبائل العربية داخل إقليم دارفور وكردفان حتى تتغلب عليها وتنصهر فيها بمرور الزمان .

وبظهور السلطان سليمان سولينج يمكن أن تعتبر بداية سيطرة العرب على القبائل وسيادتها على أقاليم واسعة من إقليم دارفور وكردفان وسنعود إلى أثر هذا السلطان ودخول الاسلام فى غرب السودان . . .

العـــرب فى شـرق السودان :

ربما يمكن قد تأخر دخول العرب إلى داخل السودان وظهورهم كوحدة متماسكة أو كمجموعات لها شأنها وللاسلام كذلك شأن بوجودهما إذا ادركنا أن تأسيس المملكة الاسلامية الكبيرة تم فى القرن السادس عشر الميلادي فى سنار بين العبدلاب وعمارة دنقس .

وإذا اردنا أن نتتبع تاريخ هذا الجزء من السودان فسنجد أن العلاقة فى هذا الجانب الشرقى قديمة جدا إلى ماقبل الميلاد بالاف السنين .. .. . فلو وقفنا عند قصة أهل الفيل وملك الحبشة وهجومه على الكعبة يسود هدمها بالقبيلة وحدوث المعجزه وظهور الطير ورميه بحجارة من سجيل لاستطعنا ان نتصور مكانة شعوب هذه المنطقة فى القوة والمناعة حتى تحاول أن تنتقل إلى الجزيرة العربية لتحتلها .. لاشك ان هذه المنطقة بين الشاطىء الافريقى والشاطىء العربى اليمنى كانت قديمه وأن الاتصال كان قائما وربما كان هو أهم اتصال تم بين هاتين المملكتين العربية والحبشية وهذا يؤكد قدم القبائل العربية التى سكنت الهضبة الحبشية والامارات الاسلامية التى عاشت داخل الدولة المسيحية والصراع الذى حدث بين المسيحية والاسلام واضطهاد الاول للمسلمين الأمر الذى قاد لنزول كثير من هذه القبائل المسلمه العربية إلى داخل السودان ونشره بين قبائل النيل الازرق ومنحدرات جبال البحر الاحمر والهضبة الحبشية .

فقد ظهرت على هذه المنطقة أول دولة إسلامية فى السودان لها كيانها العربى على البحر الاحمر عند مدينة سواكن وهى مملكة البلو . لهذه المنطقة

التجارية الهامة من قدم فقد نشأت قبل ممالك البيجاو دولة وثنية لم تتأثر بالمسيحية التي تنتشر على الهضبه الحبشية يؤكد هذا تاريخ ارتيريا ... ويبدوا أن انتشار نفوذ العرب والمسلمين على العالم وانفصال الكنيسة الحبشية جعل هذه المنطقة مفتوحة للمسلمين ونشر دعوتهم ...

ظهرت ممالك البلاد الاسلامية فى القرن الرابع عشر الميلادى لتحل محل الممالكة الحبشية التى عاشت فى هذه المنطقة وهذا يؤيده وثنية الهند نوره وعدم عبادتهم لدين .

فقد واجهة هذه المنطقة اندفاعاً عربياً من ثلاث جبهات من جهة الشمال من العرب الوافدين على أرض المعدن للعمل والتعدين حتى تسربوا إلى داخل أرض البطانة والنيل ومن جهة البحر للعلاقات التجارية التى كانت رائجة بين منتجات السودان والجزيره العربية وآسيا والاثار الخزفية التى وجدت عند ميناء عيذاب أخير كشفت عن اتصال هذه المنطقة بمنتجات وصناعات آسيا والصين . . . ومكانة هذه المنطقة ....

والفخار الثمين الذى وجد فى الحفريات الأخيرة كشف غناء هذه المنطقة ورواج تجارتها لان الفخار الذى وجد كان غالى الثمن من اجود أنواع الفخار الذى كان يستعمله أغنياء القوم .

فقد عرفت ميناء عيذات منذ القدم وجاءت الكتب العربية القديمة والمؤرخين العرب وكانت ميناء تجاريا هاما .

ثم واجهه هذه المنطقة نزوح القبائل العربية من بنى عامر من أرض الحبشة من الجنوب الشرقى حاصدة البجة بين التلال والوديان فاتحين أبواب التأثير على سكان المناطق الاصلية فى ثلاث جهات .

دخول الاسلام فى المنطقة الشرقية :

لو قدرنا مكانة شرق السودان وربطه بالحضارة العربية والآسيوية وحضارة البحر الابيض المتوسط لاستطعنا أن نتصور دور هذه المنطقة فى نشر الثقافات المختلفة على هذه المنطقة العريقة فى المدنية والعمران .

فقد عرفت التجارة بين العرب وبلاد آسيا وأفريقيا من عصور قديمة فى الجاهلية العربية وغناء أفريقيا بخيراتها وغناء بلاد آسيا ورواج هذه التجارة ونشاط العرب فى نشاط هذه التجارة ونقلها عبر البحر والسهول من شمال الجزيرة العربية والبحر الابيض المتوسط إلى أفريقيا وإلى الهند والصين ورواج منتجات هذه المناطق فيما بينها منذ .. عصور قديمة وقيام العلاقات التجارية بين شعوب هذه القارات وأثر هذه التجارة فى حضارة كل منطقة من هذه المناطق ...

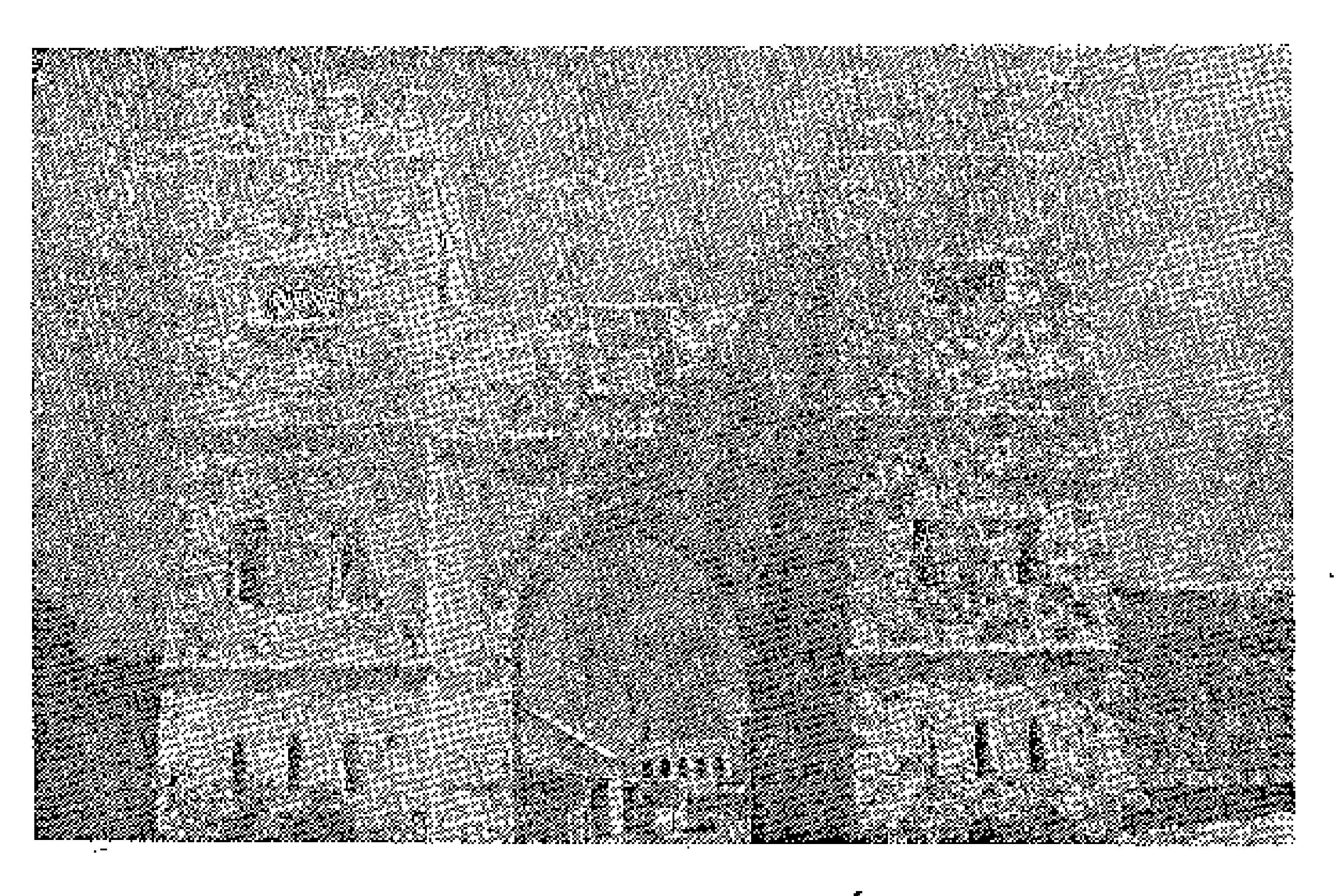
لو أدركنا حيوية هذه المنطقة التى خلقتها حركة التجارة وإذا اضفنا إلى ذلك موقع مكة والمدينة وقرب أسوان وعيذاب من أرض الرسالة وما يحدثه موسم الحج من حركة ورواج للتجارة بوجه عام واستغلال سكان شرق السودان لهذا الموسم وحاجتة للبضائع والمأكولات ورواج المصنوعات شعوب كثيرة وموقع عيذاب وسواكن كمنفذ لسكان هذه القارة المسلمين بعد أن انتشر العرب على

أرض أفريقيا لاستطعنا أن ندرك استجابة هذه المنطقة وسكانها لثقافة العرب والمسلمين وما يفرضه رسم موسم الحج من رواج للدعوة الإسلامية وتنشيط للثقافة الاسلامية وعدم تأثر هذه المنطقة بالدعوات الصوفية التي جاءت من المغرب والعراق إلا بعد ظهور الدعوة الوهابية في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي . . . وإرسال السيد محمد عثمان الميرغني في القرن التاسع عشر مبعوثاً لها للسودان ليعمل لمحاولة الشعوذة من الدين التي انتشرت بين الطرق الصوفية وإقامة مبعوث الوهابيين بالسودان بعد ان جاب السودان وكون له أنصار . .. بنى عليهم دعوته كما سيجيء فيما بعد الحديث عن الصوفية ودخولها للسودان . ..

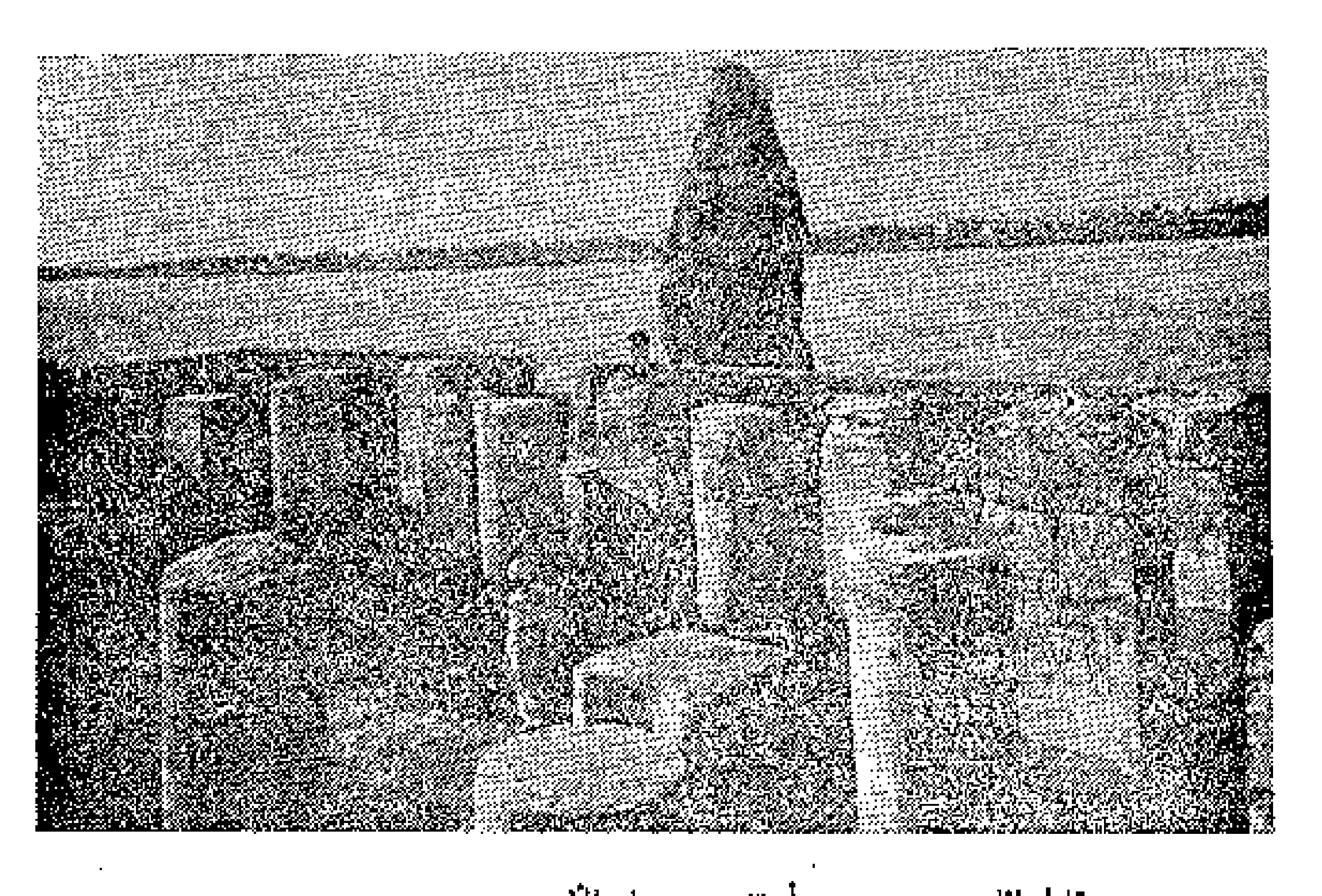
حركة التجارة النشطة على ساحل البحر الاحمر وقرب مكة والمدينة وحركة المسلمين في البحر الاحمر مكنت بنشر الثقافة العربية والاسلامية على هذه الشاطيء وهذا تكشفه مباني سواكن وحفريات عياب . .. أما كلما بعدنا عن الشاطيء وتجاوزنا تلال البحر الاحمر للقبائل البيجاوية والعرب الذين نزحوا من الشمال نجد فرقاً كبيراً في الجو الثقافي والحضاري وبعد هذه القبائل البدوية عن حركة العالم والشعوب وبعدها عن منبر الدعوة ونشاط المسلمين ولذا يمكن أن نقول أن عيذاب وسواكن وسكان شاطيء البحر الاحمر الذين يشاركون في التجارة والعمل بالشاطيء واتصالهم بحركة التجارة . .. والحجاج قد أوجدوا ثقافة عربية وإسلامية قريبة من الدعوة الاصلية ومواكبة للثقافة والحضارة العربية . .. وكانت مركزاً لنقل الثقافة العربية لداخل السودان عن طريق القوافل التجارية ومواسم الحج لانه حركة التنقل بين الاقاليم كانت معدومة كلية وأغراض السفر خارج حدود القبيلة أو الاقاليم كان أمراً شاذاً .



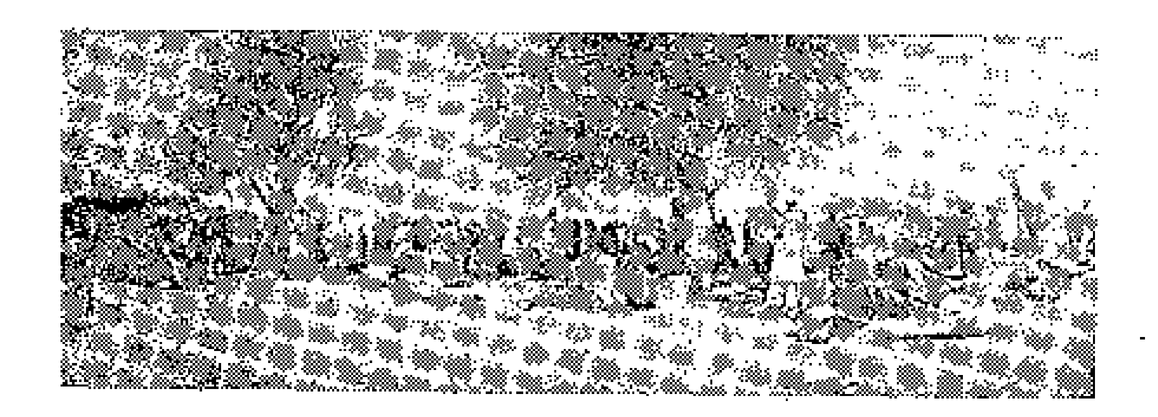
بقايا آثار معبد حلب من القرن الخامس عشر قبل الميلاد



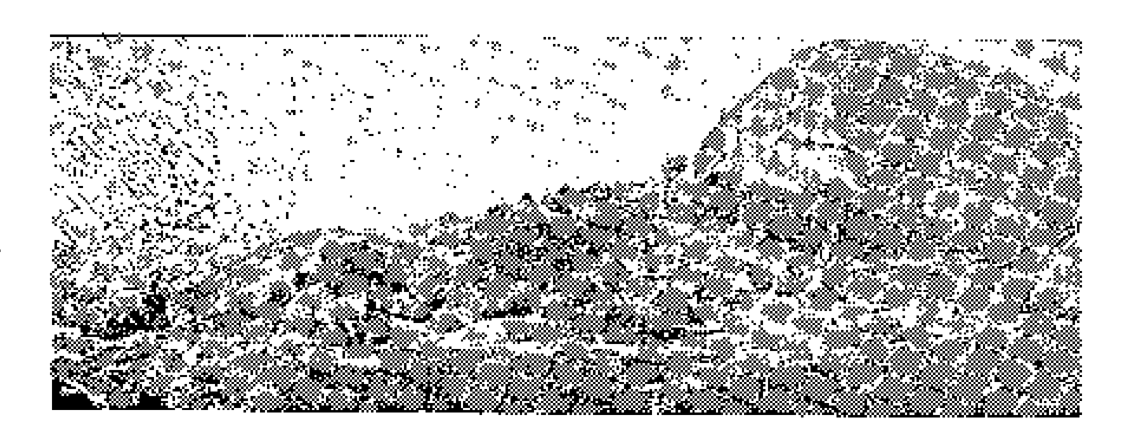
الفن العربي ظهر واضحاً على شرق السودان والبحر الاحمر .
وبقايا بوابة سواكن مازالت شاهداً على تقلب الحضارة العربية على شرق السودان .



بقايا آثار معبد بوهين اختفى من سطح الأرض
ومازلنا ننتظر المزيد من الاكتشافات الجديدة لتضيف شيئا الى تاريخنا القديم .



السوق . . . بأرض الجزيرة يكشف عن حاجة الانسان للتعامل مع الغير وتبادل الخيرات . . . وللنساء دور هام فى البيع والشراء



دار الفونج شرق أرض الجزيره

شارك سكان الفونج فى سلطنة سنار فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

فالقوافل التجارية التى تسير بين وسط السودان من بربر وشندى والشرق والشمال والغرب والجنوب كانت مستمرة منذ القدم .. .. وكانت هى الوسيلة الوحيدة لنقل الثقافة والحضارات الاجنبية . . . وكانت هذه القوافل ليست بالكثير حتى تخلق التأثير العظيم بل كانت تسافر مرة فى الشهر أو أكثر من هذه المدة فى مجموعات كبيرة مختلفة من تجار الجهات المختلفة لان .. .. كان فى تجمعهم قافلة واحدة خوفا من قطاع الطرق .. وأهوال الطرق البرية الموحشة وصعوبة السفر بالابل هذه المسافات الطويلة وخوف المجموعات الصغيرة من طمع القبائل المنتشرة على هذه السبل التى كانت لاتعرف إلا قانون الاقوى .

* * * * * *

الظروف الخارجية التي ساعدت على ركود السودان:

بعد القرن السابع الميلادي وظهور العرب في أفريقيا ظهرت الفتنة بين المسلمين ومحاولة معاوية لاستلام السلطة من آل البيت ، وظهور الخوارج في هذا النزاع ضد الطرفين حتى نجا معاوية من خطة اغتيالهم المدبرة وأعتلى السلطة ومنذ ذلك التاريخ أخذت الدولة الاسلامية طابعاً آخر غير الطابع الذي عرفته في عهد الخلفاء الراشدين الذين آمنوا بمبدأ الشورى وأن يولى المسلمون من يصلح لهم .

قامت دولة الأمويين بين سخط آل البيت وبين معارض الخوارج وإنشق الصف العربي الاسلامي ، وانقسمت الوحدة العربية إلى مذاهب . واستعمل معاوية كل القوة ليبسط نفوذه على دولة المسلمين وفتوحاتها . وقد كانت مهمته إعسر مهمة واجهها رئيس دولة وابناء سيف الاسلام على إبن أبي طالب رضى الله عنهم مازالوا يعيشون يحيط بهم إقاربهم ، يدفعونهم لطلب السلطة والتمرد على معاوية وظهر حزب الشيعة من جراء هذه المقاومة لحكم الامويين ، ولكن نجاح معاوية في إدارة دولته جعله أقوى من تحرشات خصومه ، حتى إنتهى الحكم لابنه يزيد الذي في عهده قوى حزب الشيعة وظهرت بوادر الصدام بينه وبين دولة يزيد بن معاوية . . وإستنكر يزيد هذا التمرد وحمل سيفه المجرم في ذرية سيدنا على بن أبي طالب رضى الله عنه وإنتشرت الكراهية السرية لحكم الامويين وتمركزت في الكوفة والبصرة ، أى شمال الجزيرة العربية . وظلت هذه الكراهية تعمل ، : وهذه العداوة السياسية لحكم الامويين تتجمع حتى إستطاع العباسيون إن يجمعوا ضد الامويين كل العرب الكارهين لذلك

الحكم حتى إستطاعوا فى عام ١٣٢ هـ من دحر الأمويين من السلطة.

إستلم السفاح سلطة العباسية فبدأ الأمويين منوأ حكمهم بمساندة العلويين والفرس . وظل العرب العلويين ينتظرون من العباسيين إبناء عمومتهم أن يعطوا الحق لأهله . فقد قام العباسيون لمناصرة الشيعة العلويين لاسترداد حقوقهم . ولكن العباسيين تنكروا لهذا الحق بعد أن جمعوا حولهم كل المعارضين لدولة الامويين وظهر الخلاف بذلك عند ظهور دولة العباسيين وإنفرادها بالسلطة . إنعزل عنها انصار الدولة الشيعية فلا هى قادرة على محاربتهم وهم منهما وهى منهم أبناء أسرة واحدة . وظل الخلاف باقيا . وقامت الدولة العباسية الجديدة لتحمى مسئوليتها الكبيرة وأمور الدولة الاسلامية التى وسعها الخلفاء الراشدين وكملها بنو أمية ...

وكانت فسطاط مصر أول عاصمة اليوم إنضمت اليوم ، وهرب العرب الأمويين إلى الداخل رغم أن عددهم فى مصر لم يكن بالكثرة التى تتصورها فقد كانت حاجة الفتوحات وإستتباب الامن فى أطراف الدولة الاسلامية حتى الاندلس نفرض على كل عربى وأموى أن يذهب حيث ذهبت قوة الدولة الاسلاميه وبذلك إزدحم العرب فى شمال إفريقيا وعند ظهور دولة العباسيين خافت هذه القبائل المناصره الأمويين من بطش العباسيين الذين ذاقوا العذاب فى عهد الأمويين . هربت العرب المناصره للامويين إلى الاندلس وهرب الجزء الأكبر داخل افريقيا وأرسطها حتى كان القرن الحادى عشر وأنشأوا دوله عربيه إسلاميه فى تمبكتو على نهر النيجر . وأنتشروا فى مالى والسنغال وسهول السودان الغربيه عن طريق ليبيا وأندمجوا بالعيش والحياه السلميه فى هذه الأراضى الجديدة .

اما بالنسبة للهجرة للسودان فلم يؤثر هذا التغيير كثير ولم يجد من القبائل العاربه نفس العدد الذى كان فى شمال افريقيا إلا أنه كان بدايه زحف هؤلاء العرب الأمويين الذين تخلفوا إذ لم يستطيعوا الهرب مع جماعتهم إلى شمال إفريقيا وغربها اضطروا إلى الهروب داخل السودان .

وكانت مصر للعباسيين فى عام ٧٥١ م والدويلات المسيحيه فى السودان مازالت عاجزه عن عمل أى شىء فهى خائفه تترقب هجوم المسلمين عليها وهى ليس بالقوة لترد هذا الهجوم وليس بالطموح حتى تتمكن من طرد العرب من مصر فاكتفى ملوك دنقله وعلوه بكراسى الملك ، محاولين قدر المستطاع إن لا يثيروا المشاكل بينهم وبين هذه الدولة الاسلاميه القويه .

وكان المسيحيه فى السودان قد انفصلت عن مركزها فى الاسكندرية وفقدت بالتعاليم الاولى التى وصلت إليها حين انتشار الكنائس الأول بالسودان .

وبعد أن ولى السفاح عمه صالح بن على ، على مصر عزله ليوليه على فلسطين ثم عاد وولاه على مصر والمغرب مره أخرى . وفى عام ٧٨١ م أخرج (وحيه) بن المصعب الاموى فى الصعيد عن طاعة العباسيين حيث كانت إسوان مركزاً هاماً للتجارة والتجمع . وتجمع حول وحين عامة الصعيد ولم يستطيع إبراهيم بن صالح العباسى إلى مصر أن يفعل شيئا معه وقويت شوكت وحيه فى جنوب مصر ولم تستطيع جيش موسى بن مصعب وأسامه بن عمرو على شىء مع هذا الخارج على سلطة والى مصر . فقد لقيت جيوشهم الهزائم من وحيه بن المصعب وانصاره من الأمويين وأهل الصعيد .

وظل جنوب مصر متمرداً على مصر حتى عهد الهادى بن المهدى موسى فولى

على مصر الفضل بن صالح (عام ٧٨٦) م . فجرد جيشاً وانتصر على وحيه فى جنوب مصر وقاده إلى الفساط . وهربت الأعراب التى كانت تناصر وحيه بن المصب إلى داخل السودان وإلى أرض المعدن طالبه المأمون والعمل والعيش وهى أول مجموعة كبيرة تدخل السودان .

وفى عام ٨٥٤ م ٢٣٢ ﻫ امتنع ملك دنقله والنوبه المسيحية عن دفع الجزية المقرره لوالى مصر . وهزموا الجنود المصريين عند جبل الزمود وأغاروا على صعيد مصر وتهبوا مدينة إسنا وقنا وادفو وذلك فى عهد ولايه عنبسه بن اسحاق على مصر .. وجهز عنبسه لملك دنقلة والنوبه جيشاً مكوناً من سبعه الف محارب وشحن المراكب بالمؤن والأسلحة لمحاربه ملك دنقله .. وقطع الجيش سهول مناجم الزمود إلى دنقله .. وحين إقترب جيش عنبسه من دنقله ورآه أهل دنقله أسلحته وعاده خافوا منه وأدركوا إنهم هالكون أن استمروا فى معه ... واحتموا بالجبل وحاولوا جر الجيش حتى تنفد مؤنته ، وإذا هم فى حالهم تلك ظهرت على النيل مراكب دعبس بالمؤن والأسلحة وكان على دنقله ملك يدعى على بابا ، فصار يحارب المراكب محاولا أغراقها .. وإذا بجيش دعبس هجم على جيوش على بابا الكثيرة العدد من الابل والرجال . وحين سمعت الجمال صوت الاجراس التى أطلقها جيش دعبس أضطربت الجمال ولم يستطع جيش على بابا الصمود وانهزم على بابا وأسر وسيق قائد الجيش الذى أكرمه وعقد الصلح مره أخرى معه على ان يدفع متأخرات الجزيه التى عليه .

وكان دعبس آخر الملوك العرب على مصر ثم اضطرب الحال وصار يتولاها كل مغامر وراغب فى السلطة حتى أصبحت مصر ولايه طولونيه للسلطان احمد ابن طولون (٨٧٠ — ٨٨٤ ﻫ) وفى عهدهم أنتشر العلم والنظام مصر .

وفي هذا العصر ظهرت شكل الدويلات الاسلامية داخل الدولة الاسلامية الكبيرة ففي الاندلس مازال الامويون يحكمونها .. وفي المغرب ظهرت حركة الفاطميين تطالب بحق العلويين ومصر أصبحت في يد الطولونيين وبالتالي تفتقد هي السلطة العباسية الحقيقية. وانتهت مقاومة ملوك دنقلة لأهل صعيد مصر. وخضعوا للاتفاق بدفع الجزية في حين كانت تستقبل أرض المدن العرب الهاربين من بطش ولاة مصر، وقد كان السودان هو المأوى الوحيد لديهم حيث لاسلطة لوالي مصر على السودان ولا رقيب بينهم ولا عين ترصدهم.

وحالة الحكم في مصر والعالم الاسلامي تكشف لنا التفكك الذي بدأ يدخل إلى جسد إلى هذه الدولة العظيمة إذا لم يستمر الحال لحزب سياسي معين أو لبيت معلوم ينفرد بحكم المسلمين. وهذه مصر تتعرض لعدد هائل من الحكام الاحزاب حكموها الامويين ثم جاء العباسيون ثم جاء الطولونيون وبعدهم جاءت الدولة العباسية مرة أخرى من ٩٠٥ إلى ٩٣٥ ولم يستمر الحال للدولة العباسية إذ ظهرت دولة الاخشيد بين عام ٩٣٠ م إلى ٩٦٩ التي في عهدها قام الملك النوبة في فترة حكم أبو الحسن علي بن محمد الاخشيدي — وغزاء مصر حتى بلدة أخميم فوجه اليه كافور جيشاً عظيماً بالبحر والماء وحاصر ملك النوبة ، حتى اضطره إلى الهروب وانهزم جيش النوبة وتفرق جيشه حتى كان عهد أبو المسك كافور ٩٦٥ م — ٩٦٨ ه ثم تولى الحكم بعد ذلك أبو الفوارس وانتهى بذلك عهد الاخشيدين على مصر.

خلال فترة الحكم الاسلامي على مصر نلاحظ اضطراب الحالة فيها وتعدد الحكام عليها. كما نلاحظ كثرة الاجانب وعدم ظهور ملوك من المصريين المسلمين عليها، حتى كان عهد كثر عدد الحكام الاجانب من دون العرب الامر الذي

يكشف لنا ضعف شوكة العرب فى مصر وعدم إتاحة الفرصة للمجتمع العربى ليتشبع بالروح العربية الإسلامية فى جراء هذا التغيير السريع وإختلاف الحكام وكثرة مظالم بعضهم وثورات الصعيد عليهم .

هذه الإضطرابات لم يتمكن الدين الجديد من الانتشار فى الديار المصريه وإنتشار علومه وثقافه العرب من جراء هذا الجو السياسى المضطرب . حتى نستطيع أن نقول أن المصريين وحدهم كانوا كفايين بنقل الثقافه الاسلامية العربيه إلى جيرانهم من السودانيين فالرسالة ماذالت تحمل عبأها القبائل العربية التى اختلفت فى ذلك العصر عن العرب المجاهدين الاوائل والذين نشروا الاسلام بروح عاليه .

وما نود أن نشير اليه هنا هو أن الدعوة الاسلامية الخالصة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعن الخلفاء الراشدين كانت دعوة للدين ونشر هذه الدعوة حتى دانت لهم الشعوب والقارات وعملوا على توصيل تعاليم هذه الدعوه عن طريق قوادهم ورسلهم إذ كان الحماس للدين الاسلامى فى عهد الرواد الاوائل فى ذروته ، ولم يقع أى إختلاف بين خلفاء المسلمين رضى الله عنهم إلا بعد أن دخلت الدولة الاسلامية فى صراع الجماعات المتسابقه على الحكم . هنا يأخذ الصراع لونا آخراً وأصبح التسابق لا لنشر الدعوه بل إلى مطارده المعارضين والخوارج الامر الذى إقتضى أن تصبح الدولة عسكرية إلى حد ما . وأن تفكر فى المقام الأول فى تقويه جيشها وذلك لتقضى على الفتن التى شبت فى جميع أنحاء الدولة الاسلامية فى داخل الجزيرة العربية بين الحكام وانفسهم والموالين لديهم وبين المعارضين لهم بين ولاتهم على الأقاليم التى بسطوا نفوذهم عليها

رغم وصول الثقافة العربية وصلت إلى ذروتها فى عهد العباسيين من ترجمة علوم الشعوب الأخرى وتوسيع دائرة المعارف العربية ونقل مؤلفات الاغريق والرومان والفرس إلى اللغة العربية . إلا أن هذا كان لا يتعدى العواصم الاسلامية كبغداد وحلب والكوفة والبصرة أما الفسطاط فقد نشطت فيها حركة العلم فى عهد أحمد بن طولون ، ثم جاءت الفتن لتوقف هذا النشاط وتعطيل حركة إتاحة لبقية الديار المصرية .

كما إن ظهور دولة المهديين بالمغرب وإنشقاقهم فى تفسير الدين والدعوة للشيعة جعل هؤلاء العرب البسطاء وأهل البلاد المسلمة فى بلبلة فكرية من أمر هؤلاء وهم ليسوا فى حالة تسمح لهم بالقطع فى هذا الخلاف ، الأمر الذى فتح الباب لكثير من الآراء الخاطئة لتنتشر بينهم ونحن نعرف إذ أختلفت وحدة الفكر لدعوة دينية ما ماذا يحدث لرعاياها البسطاء حين يصبحون خاضعين لكل الأصوات ويتلقون كل الأفكار ويفسحون المجال لظهور الافكار الغريبة والمذاهب الجديدة الأمر الذى قاد لظهور عدد كبير من رجال الطرق الصوفية كل يدعو لطريقته الخاصة فى العبادة حتى تعددت المذاهب الصوفية فى المغرب والجزيرة العربية وإنتشرت بسرعة بين عامة الناس حتى أوقعتهم فى شرك كبير وقد رفع خضوعهم الكامل لرجال الصوفية من شأن هؤلاء الرجال من الصوفية ، الذين شغلوا الناس بذكرهم دون عبادة الله ورسوله ، وأصبحوا هم المثل الأعلى بدلا من الرسول صلى الله عليه وسلم وباتوا هم القدوة فى العبادة بدل الرسول صلعم وخلفائه الراشدين .

الفاطميون فى مصر :

قامت الدولة الفاطمية بالمغرب عام (٩١٠ م — ٢٩٧ هـ) فاستولت على

شمال أفريقيا . وبسطوا خلافتهم عليها . فى حين ماذال خليفه المسلمين يقيم فى بغداد . بجوارهم خليفة الامويين فى الاندلس .

ويدعى الفاطميون أنهم ينتسبون إلى فاطمه الزهراء بنت الرسول (صلعم) وإلى العلويين . وقد قامت دولتهم ضد إبناء عمومتهم أبنـــاء العباسيين الذين إنفردوا بالخلافه دون العلويين الذين هم أحق بالخلافه فى نظرهم ، وفى هذا الخلاف بين آل البيت وأبناء عمومتهم ظهرت إشياء كثيره بين المسلمين ، ومحاولتهم الاجتهاد فى ما لا مجال للأجتهاد فيه ومحاولاتهم الوصول الى من هم أحق الناس بخلافة المسلمين .

حاول أبو محمد عبيد الله المهدى مؤسس دولة العبيديين الفاطميه بالمغرب.. فى حياته ضم مصر إلى العبيديه ، إلا أنه لم يوفق وتم ذلك فى عهد خليفه المعز لدين الله (٩٥٣ — ٩٧٥ م) ورأى ما كانت عليه مصر من فتن فجرد جيشا عظيما بقيادة جوهر الصقلى الذى تمكن من فتح مصر عام ٩٦٩ م) وأقام خارج مدينة الفسطاط حيث عزم بناء مدينة القاهرة الحاليه . ثم بناء جامع القاهرة . وهو جامع الأزهر الحالى وبعث جوهر للمعز لدين الله باخبار النصر . وأنتقلت دوله العبيدين بعد ذلك من المهديه بالمغربيه إلى القاهره بمصر .

وأقام الفاطميون العدل فى مصر وأداروا شئونها أحسن إداره بعد أن ذاق الناس ظلم الحكام المعتدين من جراء الحروب الكثيره التى كان وبالها على الناس البسطاء ودافعى الضرائب الذين يمولون الحروب بالمال والجنود :

وأول عمل قام به جوهر الصقلى لنشر الاسلام خارج حدود أرسال مندوب إلى جورجيوس ملك دنقله يسأله الدخول فى الاسلام وايقاف الذكاة عنه إلا

ملك النوبه رفض الاسلام وفضل دفع الجزيه . وهذا يكشف لنا أن المسيحيه مازالت منيعه ذات أرض صلبه فى السودان حتى القرن العاشر الميلادى وان رواد الدين الاسلامى لم يتوغلوا بين جماهير هذه المملكة الشمالية حتى يمهدوا لمثل هذه الدعوه السلميه .

وفى عصر الفاطميين على مصر بدأت القبائل العربيه الموالية للعباسيين فى النزوح عن مصر إلى داخـــل السودان وبدأت الهجره الكبيرة إلى أراضى السودان نسبه للعداوه التى نشبت بين العلويين والعباسيين . وامتلأ صعيد مصر وأرض المعدن وضفاف النيل بالعرب الهاربين الذين لاخوف منهم على سكان السودان . ولاخوف عليهم من سكان السودان . فقد كانوا مسالمين هاربين ينشدون المأموى ، كما أن العهد الذى قطعه ملوك دنقله على أنفسهم بعدم تعرضهم للعرب المسلمين كان يضمن لهؤلاء الخارجين عدم ايذاءهم من ملك دنقله وصاروا أعوانا وعيونا لملك دنقله ضد والى مصر .

وفى عهد الدوله الفاطمية ظهر بعض النفوذ والمكانه للسودانيه فى مصر وذلك لان أم المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٤ م) . . كانت جاريه سوداء ذات ذكاء وتجارب . استغلت ضعف إبنها ووظفت السودانيين فى الدولة فى المناصب الكبيره ليكونوا لها قوة وباتت ذات نفوذ وسيطره على شئون الدوله حتى قويت شوكتهم وقد بلغت قوة السودانيين لطرد الاتراك من مصر والاستيلاء على السلطه حتى تمكنوا من وطردهم إلى صعيد مصر الامر الذى مهد لاستمرار صعيد مصر فى عصيانه على والى مصر وعدم خضوعه تحت سيطرة سيطره كامله واستمرار عدم استقرار صعيد مصر وخضوعه لسلطة الفسطاط او القاهرة مما جعل السودان بعيدا عن يد ولاة مصر فلو كان صعيد مصر تحت يدهم وسيطرتهم الكاملة لكان استغلوه لفتح السودان وضمه إلى مصر الا إن صعيد مصر نفسه

كان مشكله ومصدر قلق اليهم وبذلك كان توسيع حدود هذا الصعيد إلى الجنوب فيه مخاطره ومساعده لقاطنى الصعيد أن ينفردوا بسلطة جنوب مصر والأراضى الجديده .

أخذت العلوم والآداب تنتشر فى عهـــد الفاطميين بانشاء جامع القاهرة (الازهر) والاشراف عليه وتشجيع العلوم حتى إضطربت الأحوال بعد ذلك عاقا لضياع ذلك المجهود إذا أحرقت الكتب وأستعملت فى أغراض كثيره فى عهد المجاعه التى جاءت فى عهد المستنصر .

ظل السودان حتى الآن بعيدا عن النفوذ الاسلامى والعربى لانشغال الولاة المسلمين فى إنفسهم وتأمين سلطتهم من الغاضبين ، ومطامع الانقسامات الكثيرة التى إنتهت اليها الدوله الاسلاميه الكبيرة .

ولم تظهر على السودان حتى ذلك الحين أى مؤثرات عربيـة أو اسلامية حقيقيه الا ظهور بعض العرب الهاربين بجوار النيـل وأرض المعدن وعند البحر الأحمر .

وانتهى الحكم الفاطمى فى مصر بعد فتن وحروبات داخليه ودسائس حسب طبيعه ذلك العصر وتعدد الامارات وتعدد الاساليب للوصول إلى السلطه حتى جاء عهد الدوله الايوبيه عام ١١٧١ م بزعامة صلاح الدين الأيوبى الذى عهد سير جيشاً بقيادة أخيه سيف الدوله توران شاه إلى النوبة لتأديبها على تمردها ومناوشاتها ، فسباها وعاد مثقلا بالغنائم والاسرى .

إلا إن الظروف لم تتح لصلاح الدين للتفكير فى فتح السودان الشمالى وضمه

إليه أو فرض الاسلام عليه وذلك الانشغال بالحروب الصليبية التى كرس لها كله جهده لابعاد الفرنج من البلاد العربية وأرض المقدس . إلا أن توفاه الأجل والصليبيين مازالوا يواصلون حملاتهم على العرب حتى إنتهت دولة الايوبيين عام ١٢٥٠ م بعد أن دخل الوهن على المملكة الايوبية وتكالب الاخوان والاقارب على الحكم كما كان ساريا فى ذلك العصر وما يدخل فى هذا الصراع من وسائل ومكر حتى سقطت مصر فى يد المماليك البحرية عام ١٢٥٠) إلى ١٣٨٢ وهم من الرقيق الذين أكثر منهم السلطان الصالح نجم الدين أيوب من أسواق الجركس ومنغوليا والقوقاز لمساندته . وقد أخلصوا له فى حياته حتى كثر عددهم وعلى شأنهم وتطلعوا إلى السلطة فوصلوا اليها بعد أن خبروا أمورهم وأمراءهم وظهر التتر على حدود سوريا فى عهد المماليك الذين تصدوا لهم وأفقدوا زحفهم على مصر فى عهد السلطان الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس البندقدارى (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) الذى فى آخر عهده فتح بلاد النوبة وسواكن وأضعف مملكة دنقلة الشمالية وفتح للعرب الطريق لدخول السودان . وجعل للذين سبقوه مكانه فيها حتى اشتد ساعدهم وكثر عددهم على النيل وسهول السودان الفسيحة .

وقد كان ملك النوبة ينتهز دائما فرصة أنشغال والى مصر بالحروب مع الصليبين أو غيرهم فى الشمال ويرى أبتعاد جيوش المسلمين عن مصر ويمتنع عن دفع الجزية ... وهو لايدرى أن أيقاف دفع الجزية يعنى فى مفهوم العرب إيقاف الامتدادات عن الجنود المحاربين ولذلك كانت ترسل اليه الجيوش لتأديبه وأعادة الموقوف من الجزية وتحصيل المطلوب منه فوراً وقد حاول هذه المرة فى عهد المنصور سيف الدين قلاوون الالف (١٢٧٩ — ١٢٠٩٠ م) وأمتنع عن الجزية حين شعر بأنشغال المنصور بمحاربة التتر فى أرض الفرات وحلب . إلا أن الالف جرد عليه حملتين فى عام ١٢٨٨ م و ١٢٨٩ م ... وعادت

الحملات بالجزية الموقوفة والغنائم والسبايا وخضع ملك دنقلة مرة أخرى لدفع الجزية ولم يفرض عليه الإسلام إنما ترك فى ديانته المسيحية التى باتت رامنة بعد انتشار العرب بين النوبة على ضفاف النيل .

وقد ظل ملك دنقلة والنوبة يمارس هذه الوسيلة كلما شعر بضعف ملك مصر حيث كانت هذه الجزية عقاباً صارقاً على ملوك هذه المنطقة حاولوا التخلص منه بكل الوسائل ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً : وقد حاول ملك دنقلة مرة أخـــرى فى عهد الملك الناصر محمد بن قـــلاوون (١٢٩٩ — ١٣٠٢) . (١٣١٠ — ١٣٤١) وامتنع عن دفع الجزية الامر الذى فرض تجريد جيش عليه وإعادة الجزية إلى ما كانت سابقا وانتهت بهذه المحاولة آخر محاولة لملك دنقلة للافلات من دفع الجزية التى كانت وبالاعلى ميزانيته ومواطنيه وحساب عمرانه ولاشك أنها كانت ترهق هذه المملكة المتوسطة الدخل المعتمدة على ضرائب البلح والقمح وهذه المحاصيل إنتاجها رتبط بموسم الامطار فان كثرت الامطار فى الجنوب وفاض النيل ضمن مواطنيه محصولا طيباً من الزراعة وإذا قلت الامطار قل الزرع وصعب تحصيل الضرائب منهم لانهم لايملكونها . وكذلك الحال بالنسبة للبلح إذا هبت عليه عاصفة وهو مازال أخضراً أسقطت معظمه وكذلك إذا نزلت عليه أمطاراً وهو على وشك الاصفرار تلف أكثره وقل محصوله .. ولكن والى مصر كان لايعرف هذه الظروف ولايقدرها . وإذا أنكر ملك دنقلة هذه الظروف على رعايته فقد أنكر معرفته لهم ولحالتهم الاقتصادية . ولذلك كان تمرد ملك دنقلة المستمر لدفع الجزية تفرضه ظروف المنطقة الاقتصادية ودخل المنطقة القائم على الضرائب الزراعية والماشية كان لاشك لايكفى حاجة التوسع الطبيعية لهذه المملكة فى إدارتها وتطورها وفرض جزية عليها كان يعنى تقلص

تطورها وتدهورها تدريجيا مع مرور السنين فهي بأمكانياتها المحدودة لاتستطيع التوسع حتى تفي بألتزاماتها .. وهذه الامكانيات المحدودة إمتدت لهايد الجزية لتقالل من المصروفات الانشائية لهذه المملكة ومصروفاتها العامة وجعلها هذا الالتزام تقلل تدريجيا في مصروفاتها حتى جاء العهد الذي أصبحت غير قادرة بسط نفوذها على هذه المنطقة حتى مهدت لانضمامها المملكة الفونج والعبدلاب في القرن السادس عشر .

خلال هذه الفترة كان العرب يتقدمون في سهول السودان ويتكاثر عددهم مرور السنين ولاشك أنهم كانوا يذهبون إلى النيل في موسم الجفاف للتزود من مياهه وحشائشه وهذه الزيارة كانت تفرضها عليهم ظروف الطبيعة نفسها فهم مطرون للبحث عن قوت لماشيتهم ومياه لهم وتقربهم من النيل كان فائدة لسكان النيل فقد كانوا يبيعونهم الماشية ومنتجاتها مقابل الذرة والبلح ولاشك كان سكان النيل يرحبون بهذه الزيارات التجارية فهم لايستطيعون إن يستهلكوا انتاجهم من البلح وخاصة ولذلك كان لابد لهم من سوق لهذا البلح إما عن طريق التجارة مع إسوان ودلاو أو مقابل الضرائب وحينما سهل عليهم هؤلاء العرب شراء الفائض من محصولهم من البلح والذرة أصبحوا يتفاءلون بهم ويرحبون بقدومهم وتوسعوا في زراعتهم وخلال هذه المقابلة كان يحدث التزاوج وإسلام بعضهم حتى ألفوا على العرب وألف العرب عليهم وأقام البعض منهم على النيل أو ترك زوجاتهم حين يعود في موسم الجفاف .

وأما مصر فما زالت الاضطرابات تسودها والدسائس تنساب لنزع ملك لاجل أخر حينكانه وهي الغرب أن لاخوف عليهم وعلى أولادهم من سكان النيل أصبحو يرتادونه ويفتخرون بالقرب منهم وكثرة تزوجهم من نساء سكان النيل حتى تغلبوا

بمرور الايام على هؤلاء السكان وانتشر الاسلام على النيل بواسطة هؤلاء العرب ثم دخله سكان النيل متأثرين بهؤلاء العرب .

أما مصر فما زالت الاضطرابات تسودها والدسائس تحاك بين الطامعين لنزع ملك لاحلال آخر مكانه والحروب الداخليه لاتقف نتيجة هذا الصراع للسلطة من الداخل أو الزحفات الخارجية حتى أنتهى حكم المماليك البحرية عام ١٣٨٢ م ليأتي عهد المماليك الجراكسة عام ١٥١٧ ، ولتدخل مصر بعد أن وهنت ومزقتها الفتن والاطماع ضمن أراضي الامبراطورية العثمانية حتى عام ١١٠٨ م .

أثر الثقافة العربية فى السودان حتى القرن السادس عشر

كما أسلفنا إنتهى التخطيط العام لنشر الدعوة الاسلامية والثقافة العربية بعد الخلفاء الراشدين بعد تحولت الخلافة الاسلامية إلى ملكية ورائية ، وكثرت حولها الأطماع والدسائس وأصبح إهتمام الدولة بالجيش فى المقام الأول للحفاظ على كرس الخلافة وإنغمس الخلفاء فى دولة بنى امية والدولة العباسية فى اللذات وإبتعدوا عن تعاليم الدين وأصبحوا أسوأ مثل للمسلم حتى كثر الأجانب حولهم واستولوا على مقاليد حكمهم . . . ودخل الثقافة العربية الفكر الفارسى والأغريق انتحيا فى عصر بعض الخلفاء ، الخلافة الاسلامية فى أوج مجدها العلمى والأدبى . وإذا لاحظنا ذلك الازدهار الذى حدث للعلوم والاداب . . فى العصر العباسى أو الأخشيدى أو الفاطمى إنما كان لشغف بعض ملوكها بالعلوم فأزدهرت العلوم لأنهم أكرموا العلماء وبأنتهاء أولئك الملوك أنفض السامر وقلت حركة العلم حتى وصلت إلى درجة الركود وحتى خباضؤ الثقافة العربية .

وإذا أردنا أن نتابع خلفاء الدولة الاسلامية وتخطيطهم للعلم لانجد هنالك أى تخطيط بالمفهوم الحديث . فعمرو بن العاص رضى الله عنه حين دخل مصر أمر ببناء جامع عمرو وأصبح هذا الجامع فيما بعد هو جامع الخلافة وملتقى المسلمين على جميع طبقاتهم يستمعون الى الارشاد والتوجيه وإلى تعليمات الخلفاء التى كانت تلقى دائما على منابر الجوامع ولكن جامع عمرو لم ينشأ ليكون مدرسة لتدريس القرآن أو اللغة العربية أو علوم الدين بل إقتصر على أداء فريضة الصلاة وموالظة خطبة الجمعة . والخطبة لاشك لاتخرج معلمين ينفعون غيرهم

بعلمهم إنما هى تذكير للمؤمنين بأخلاق السلف الصالح من المجاهدين وإلى توجيه الناس إلى الأشياء الضرورية الواجب إتباعها فى بعض المناسبات وحيث كانت الحياة فى مصر فى عمل عسكرى دائم فقد كانت خطابة الجمعة فى جامع عمرو هى حث الناس لإطاعة خليفة المسلمين والاجتهاد لنصرته ولم تترك الظروف العسكرية والحربية التى عاشت فيها مصر للجوامع أن تؤدى رسالتها الدينية التعليمية بل أصبحت المنابر وسيلة لجمع الناس وتهدئة الخواطر والدعوة لتأييد حاكم جديد أو لمؤازرة الوالى لمحاربة الجيوش الغازية أو للتجنيد فى صفوف الجيش لصد العدوان أو لقمع تمرد حدث أو للدعاية للملك الصالح المصلح المؤمن القائم على شئون البلاد .

وإذا إعتبرنا الجامع هو المدرسة الأولى التى حفظت التعاليم الاسلامية وعلوم الدين فيجدر بنا أن نتتبع هذا التاريخ ونرى ما حدث فى مصر حتى يكون ما يحدث فيها ذا أثر على السودان وعلى المسلمين المقيمين بها من عرب وسكان أصليين .

وأول جامع أنشاه فى مصر هو المسجد الجامع أو جامع عمرو أو الجامع العتيق كما كان يسمى بهذه الاسماء فى عام ٦٤١ م بعد دخول عمرو بن العاص إلى الفسطاط .. وظل هذا الجامع يخدم الاغراض السياسية للدعوة ، إذ كان العرب فى حاجة لمثل هذا المنبر لتهدئة الخواطر وشرح الدعوى للناس وتنشيطهم لدخول الاسلام وحثهم على معاونة جيش المسلمين والتطوع فيه . . وقد كانت خطابة الجمعة فى معظمها خطبة لمثل هذه الاغراض ولم تنح ظروف العرب المتحمسين لنشر الدعوى على كل الشعوب أن يعملوا أكثر من ذلك ، شرح الدعوى والدعوة للايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم تعليم الناس الفرائض لخمس ،

وظل الجامع العتيق يقوم بهذه الرسالة بعد عودة عمرو بن العاص وتركه مصر لأن السرح ولم تتسع رسالة هذا الجامع لأكثر من ذلك فلم تتسع بعد العلوم الدين وتدريس أحكام الشريعة الاسلامية بل ظلت هذه التعاليم تلقى فى منبر الجمعة ، ويقوم بها الأفراد المسلمون من العرب وتوصيلها إلى سكان مصر فى أكثر صورها حتى يدركوها ويهضموها : وأستمر الحال على هذا المنوال حتى جاء عهد العباسيين ، وكانت الدعوة قد إنتشرت وآمن بها الكثيرون وأصبح الجامع والصلاة فيه من أول واجبات المسلم وأصبحت تعقد فيه الحلقات الصغيرة للتذاكر والتفاهم والتحابب بين المسلمين . وأصبح يرتاده كثير من الناس فى غير أيام الجمعة لمعرفة تعاليم دينهم

ونشطت فى جامع عمرو حركة التدريس فكثرت فيه الحلقات وخاصة بعد الصلاة وأهمها صلاة المغرب والعشاء ، وكانت تدور فيه المناقشات الدينية والأدبية والمطارحات الشعرية والروايات التاريخية وكل الوان المعرفة مايسر لرواده وما شاءه . ولم تكن حلقات تدريسه لها أسس معينة إنما كانت مواضيع الحديث تأتى من جمهرة المجتمعين وتخرج من هذه الحلقات بعض رجال الدين والفقه فى مصر الا أن هذه الحركة لم تنشط ويظهر لها ثمارها الا فى عهـــد العباسيين ثم الفاطميين .

ومن هذه الحلقات المشهورة حلقة الامام محمد ادريس الشافعى (١٩٨ — ٢٠٤ هـ) . . كما انتشر نوع آخر من حركات التعليم والمناظرة فى بيوت الفقهاء وأهل العلم . كانت تجذب إليهم طلبه المعرفة . ومن أشهر هذه الحلقات حلقة بنى عبد الحكم . وكان يرتاد حلقاتهم أكابر العلمـــاء والفقهاء الذين يزورون مصر .

ثم أنشأ المعز لدين الله الجامع الازهر عام ٩٧٢ ليكون منبراً للدعوة الفاطميين أول الامر ، ولنشر مذهبهم الشيعي بين الناس وقد استغل الجامع الازهر كغيره من الجوامع الاسلامية (لأغراض سياسية وحزبية تخص أمن الدولة) فالاضطرابات الكثيرة التي شهدتها الممالك الاسلامية على طول العام لم تكن تدع للحكام وقتاً لالقاء الخطب الدينية الخالصة على منابر هذه الجوامع بل كانت الاحداث المتلاحقة تدفع بخطب الجوامع إلى موضع من مواضيع تلك الظروف العصبية والخلافات الكثيرة .

بل لم يفكر حاكم من حكام المسلمين أن يخطط لنشر التعليم ناهيك عن نشر العلوم الاخرى التي يصعب أن تقوم بدون التعلم الذي إذا أردنا أن نتطوره وأن يصل إلى أكبر عدد من محبيه أن يوفر أماكنه ومعلميه .

إلا أن ذلك لم يحدث فقد نشأ العلم في بيوت الأفراد والخاصة والمهتمين والذين أخذوا هذا النوع من الحياة هدفاً لحياتهم وغاية من غايات وجودهم وهو التزود من المعرفة ونشر هذه المعرفة .

إلى أن جاء عام ١٠٠٥ م وأنشاء الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله دار الحكمة وكانت أول مدرسة تنشأها الدولة الاسلامية لنشر العلوم والمعرفة رغم أن لانشاء دار الحكمة كانت دوافعه مذهبية لنشر دعوة الشيعة التي ظهرت بعد فترة من فتح هذه الدار وتوسعت حلقاتها وألتقى فيها الشيعة والسنة حتى جاءت الطائفية على علماء أهل السنة وقتلوا وأصبحت دار الحكمة دار حكمة الشيعة لا يجرؤ أي مذهب على دخولهـــا وقلت فعالياتها بعد ذلك ظهـــرت عصبيتها المذهبية .

وقد كانت دار الحكمة فى بدايتها داراً عظيمة للعلم والمعرفة . تدرس علوم القرآن والفقه وعلوم اللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم وغيرها ووفرت لها كل الامكانيات المادية لتصبح جامعة علوم حقة . حتى أصابتها عصبية المذهبية وأصبح يخافها العلماء لعدم وجود الجو العلمى الحر بها .

وإذا سألنا أنفسنا من أين جاءت تلك النهضة العلمية التى ظهرت فى عصر العباسيين والفاطميين دون أن يكون هناك تخطيط وأشراف من الدولة على نهضة العلم .

إلا أن الأمر بسيط غاية البساطة ... فتلك النهضة العلمية وتلك المؤلفات العظيمة فى كل فروع المعرفة التى تركها لنا الاسلاف جاءت نتيجة اجتهاد الافراد والتسابق العلمى الذى أصاب الذين كانوا يخدمون القصور . فقد كان ضمن حاشية الملوك جمهرة من العلماء التقرب للملوك وكسب رضاهم هو الاجتهاد فى المعرفة والعلوم وكانوا الملوك يقدرون المجتهدون من أهل العلم . ويجيزونهم العطايا الأمن والسكن والاحترام والتقدير .

والعلم كنوع من النشاط الانسانى تتحكم فيه القيم الاجتماعيـــة والفوارق الانسانية فيه ، فان كان العلم هو أفضل الناس فى نظر الجميع أتجه الناس إلى العلم وكذلك الحال بالنسبة للفروسية أفضل من العلم افضل الناس الفروسية على العلم وكذلك فى جميع فروع النشاط الانسانى كالتجارة والرياضة والفنون . حينها يصبح هذا النشاط والاجتهاد ذا فضيلة إجتماعية أعلى من النشاطات الاخرى يجذب اليه إهتمام الناس وأهتمامهم .

وبدراسة ظروف نهضة العرب العلمية نرى هنا الك كثير من النشاطات الانسانية ذات القيمة الاجتماعية المتقاربة كالفروسية والثراء ثم كان العلم عند جمهور المتعلمين المحيطين بالقصور . وهذا هو السبب لدفع حركة العلم عندما وجد الملوك الذين يقدرون العلماء ويفضلونهم بعلمهم على غيرهم من الناس حتى أصبح العلم هو بغية الكثيرين حتى يصل لتلك المرتبة من تقدير القصور والخلفاء والأمراء وأصبح الاجتهاد والتسابق العلمي هو الذي يحدد مكان العالم والمجتهد في مجلس الخليفة وقيمة الهدايا والعطايا السنوية المقررة له ..

وقد اتخذت مصر في عهد الدولة الفاطمية بعد القرن الحادي عشر رسالة النهضة العلمية العربية وتوزعت هذه النهضة بين دار الحكمة التي نشطت فيها العلوم العقلية والدعوة الشيعية في حين احتفظ الازهر بتدريس العلوم الدينية والقراءة وكذلك جامع عمرو وأصبحت هذه القلاع الثلاثة قبس الفكر الاسلامي إلا أن هذا النشاط وهذا الرقي كان يرتبط بحياة الدولة الفاطمية التي وفرت الامكانيات لهذه النهضة العلمية رغم الاضطرابات الكثيرة التي عاشتها حتى عجزت الدولة الفاطمية عن الاستمرار في الانفاق على دار الحكمة وتعرضت في عام (٤٩٥ — ٥١٤ هـ) لاغلاقها بعد أن ظهرت عصبيتها المذهبية داخل الدار ثم اعيد فتحها مرة أخرى عام ٥١٧ هـ في عهد المأمون البطائحي وزير الامر بأحكام الله إلا أن هذا كان ايذانا بسقوط هذه الدار وهذه الجامعة التي كان لها الفضل العظيم في حفظ العلوم الدينية وتطهير الفكر الاسلامي والثقافة العربية

وقد انتهت دار الحكمة الجامعة الاسلامية الاولى بذهاب أصحابها وانقضاض

دولتهم وعادت الصدارة للجامع الازهر ونشطت حلقاته من جديد بعد انقضاء
رواد دار الحكمة وسقوط الدولة الفاطمية واضطراب الحياة السياسية في مصر
وكثرة تعدد الحكام فيها ووقف فيها كل نشاط .

ثم تدخل مصر في عهد المماليك البحرية ١٢٥٠ م والمماليك الجراكسة عام
١٣٨٢ -- ١٥١٧ م ولتنضم اخيرا الى اراضي الامبراطورية العثمانية التي إمتدت
الى شمال افريقيا والجزيرة العربية .

جاءت الامبراطورية العثمانية التركية بكل صلفها ووحشيتها وهمجيته وجهالة
لتقضي بضربة واحدة على آخر قبس للفكر العربي ، بعد أن بدأ يثبت وجوده
في الحياة ويعطيها من انتاجه واجتهاد ابناء البلاد الخاضعة للأسلام . انتشرت
الامبراطورية التركية كالاخطبوط على الشرق العربي لتشل حركته وتوقف كل
حركة خالقة ولتميت كل اسباب الخلق والابداع بعد إن سبقها التتر في القرن
السابع الهجري بضرب الحضارة العربية العباسية وهي تعطي الفكر العالمي
اطيب خيراتها . جاءت القبائل الوحشية التترية لتضرب ضربتها على معقل
المملكة العباسية وتتلف كل ما انتجته تلك النهضة الغربية وتعيث بأقيم إنتاج
خلفه الانسان في عصر تلك الخلافة حتى تندثر نهضة الخلافة العباسية على
يد التتر .

كانت مصر هي آخر أمل للفكر العربي ولذلك كان اسباب إزدهار الفكر
والعلوم بها واتجاه العلماء إليها واشتداد حلقات المذاكرة والعلوم في جوامعها

وأدوتها أمر طبيعي بعد ان قفلت كل أبواب الحرية والتقدير لرواد الفكر والمعرفة من المسلمين وانصارهم

ولو حاولنا أن نرى أثر النهضة السابقة التي قامت في عهد الخلافة العباسية في شمال الجزيرة العربية او تلك التي قامت رغم مشاكل مصر الكثيرة وأثبتت وجودها رغم كل الصعاب والدماء والخلافات الجديدة الكبيرة التي كانت لا تقف لو حاولنا أن نرى انعكاس تلك النهضة على السودان حتى عام ١٥١٧ بدخول مصر تحت سلطة الدولة العثمانية ودخول الحياة الاسلامية في مرحلة الركود الذي شل كل إمكانياتها الخلاقة وجعلها فريسة لهذا الاخطبوط اللعين الذي لا يقتل ضحيته مرة واحدة ولا يعطيها اسباب الحياة لتعيش .. انما يجعلها حية هكذا بلا حياة سالباً منها كل موارد الحياة الا ما يجعلها تتحرك وكأنها حركة المشلول لا هو قادر على الحركة ولا هو راضي بالسكون .

كانت هذه الفترة من القرن الثامن الميلادي الى القرن السادس عشر الميلادي هي فترة الصراع بين الدماء العربية والدماء السودانية . . . صراع بين العرب الذين اضطرتهم الظروف السياسية للجوء للسودان وبين أهل السودان المسيحيين والوثنيين . بين اخلاق هؤلاء العرب البدو وبين اولئك الفلاحين المقيمين على النيل . . .

كانت معركة طويلة بدأت بسقوط الدولة الاموية في القرن الثامن وهرب اتباعها الى حيث لا يوجد حاكم من الدولة العباسية . ثم مرة أخرى في القرن العاشر الميلادي حين سقطت دولة العباسيين في مصر امام زحف دولة الفاطميين

المتعصبة للشيعة الفاضية على الدولة العباسية التى تنكرت لمبادىء الاتفاق على اسقاط الدولة الاموية واعادة حق آل البيت إليهم ولكن بنوا عمومتهم لم يروا فى طلب الشيعة مايلزمهم بتسليم السلطة اليهم ، بعد أن استحقوها بقوتهم وقوة مناصريهم واتباعهم .

كما رأينا أن الثقافة العربية والاسلامية بدأت حول حلقات الجوامع الكبيرة بالقاهرة وكانت هذه الندوات الصغيرة التى يتطارح فيها طلاب المعرفة والعلم أراءهم ومجهوداتهم هى بداية حركة الفكر العربى الاسلامى وعاشت هذه النهضة بقرب السلطة كى تكسب حمايتها واعانتها إما الارياف والمدن البعيدة فلم يكن لها نصيب من هذا التقدير وهذه الرعاية فقد قامت الجوامع الاسلامية حيث تكاثر عدد المسلمين وعلت سلطتهم ولكن تلك الجوامع البعيدة والتى يدرس بها غالباً خريج من طلبة تلك الحلقات الدراسية الذين وفدوا لهذا الغرض للالمام بأصول الدين والفقه والحديث حتى يستطيعوا أن يسيروا الحياة الدينية والفكرية داخل الجوامع المنتشرة على المدن النيلية . . .

وهذه الجوامع لم تكن بأستطاعتها إن تلعب نفس الدور الذى كانت تلعبه جوامع الفسطاط ومدينة العسكر والقاهرة التى كانت تلقى الرعاية والاهتمام من السلطات الحاكمة وحاجة السلطات الحاكمة نفسها لمنبر من هذا النوع . ولذلك كلما ابتعـــدنا عن العاصمة الاسلامية فى العـراق او الفسطاط أو الاندلس أو المهـدية قلت حـركة العـلم والثقـافة وكانت اهتمامات النـاس إهتمامات اخرى غـير إهتمامات أهل الكتب والدين يستخلص فى ذلك أن أولئك العرب الذين نزحوا الى السودان وكانوا يستوطنون جنوب مصر ، حيث كانت أكبر معقل لقلق الحكومة فى الشمال ، فقد كان صعيد مصر

والنوبة فى أكثر المناطق إضطراباً وتمرداً على السلطة . فى الشمال وانهيار أى بادرة ضعف أو إنشغال جيوش الدولة فى حرب خارجية إلا وترفع إحدى هاتين المنطقتين ، الصعيد ، والنوبة عصا التمرد والعصيان الأمر الذى ربط مملكة النوبة وصعيد مصر بالثورة ضد حكومة الشمال حتى قاد الاتفاق غير المقصود إلى احترام الهاربين من أهل الصعيد ولوائهم بالنوبة وبين سكان شمال السودان مما ساعد على هجرة العرب بجوار النيل .

هؤلاء العرب الذين إضطرتهم الظروف السياسية والاقتصادية إلى اللجوء إلى الأراضى الشاسعة شبه الخالية من السكان فى الجنوب وخاصة فى فصل الصيف . لم يكن هؤلاء العرب من رجال العلم والفكر ولكن كانوا من رجال العصبية المذهبية الدينية ومنهم الأوائل من بنى أمية ، ولم يكن يحصر منهم العدد الهائل الذى يؤثر كثيراً . ومنهم الاعداد العباسية التى جاءت لتملأ الفراغ الأموى وتنتقم لآل البيت حتى وجدت نفسها هذه الجماعة موضع إضطهاد وكراهية من أهل الشيعة والفاطميين الذين قذفوا بهؤلاء الأنصار العباسيين إلى قبائل السودان .

أبتعد هؤلاء الانصار العباسيين عن منطقة الاضطهاد حاملين معهم حرارة الدعوة الاسلامية التى برزت على رجال الصحراء النوبة . وفقدت الكثير من حماسها ووجد أصحابها أنفسهم فى شبه حالة تشرد وضياع يبحثون عن أرض تأويهم وجماعة تتفاهم معهم وظلوا يحافظون على شعائر دينهم وصلواتهم بين تلك القياف والصحارى والوديان وانقطعت أخبار العالم عنهم أو كادت تنقطع عنهم لبعد المسافة وتوغلهم فى أراضى السودان عاما بعد عام وظهرت أجيال

جديدة منهم لم ترتبط بالخصومات القديمة ولم تحاول أن تنتمي إلى الشمال بقدر حبها للأرض الجديدة التي آوتهم والتي أعطتهم الامان والحياة .

أحب العرب هذه الحياة البعيدة عن المشاكل والحروب واستملوا حياتهم البدوية وبدأ ويمسحون الأراضي التي حولهم يتعرفون على خيراتها وعلى سكانها وكانوا في خلال توغلهم داخل السودان بمرور السنين حذرين غير محبين للمعارك حتى عرفوا أنفسهم كقبائل مسالمة مسالمة للقبائل السودانية التي كانت تستوطن النيل وتعيش على الزراعة ..

كانت حياة الترحال هذه غير كافية لنمو العالم الاسلامية بجانب انتشار وتطور الثقافة العربية بينهم .. بل كانت هذه الرحلة داخل أراضي السودان من العوامل التي افقدت أولئك الرواد الاوائل وأحفادهم الكثير من دينهم وبعدهم عن أرض المعركة وما إنتهى اليه حال الدعوة في عصرهم حين فقدت حماسها الديني إلى الجماس إلى كرسي الخلافة والغدر والقتل ودخول عناصر كثيرة كان لها الاثر الكبير في بث روح الفتنة ومؤامرات الحكم . . . بمرور السنين ظهور أجيال جديدة من أحفاد هؤلاء الرحالة العرب في قبائل السودان فقدت هذه الاجيال الجديدة الكثير من خصائص الرواد الاوائل في حفظهم لتعاليم الاسلام وغيرتهم الشديدة عليه إلا أنهم أحتفظوا بكثير من خصائصهم العربية من تقاليدوأخلاق ملازمه لعنصرهم وبيئتهم وهذا مانلاحظه حين تم التفاهم والاحترام التام بين أهل السودان وأمتزاجهم بهم حتى أصبحوا عنصراً وحداً ذا تقاليد واحدة شائعة بين الجميع وتقاصت صفات سكان السودان الاوائل كما تغيرت صفات العرب الاوائل ليظهر لنا هذا المزيج السوداني من التقاليد السودانية القديمة والتقاليد والاخلاق العربية التي صنعت منها رحلة الترحال مواطنـــاً جديداً حسب البيئة والمناخ .

كانت حركة الامتزاج هذه فيها شيء من اللين والمساومة ، بين عادات وأخلاق أهل السودان والعرب فلاشك كان هناك تنافر بين عادات المجموعتين إلا أن الامتزاج السلمى الذى تم على مر العصور كان إمتحاناً لعادات لمجموعتين فالعادات القديمة العريقة لايمكن أن تزول فى كل المجموعتين بمجرد التفاهم والحب والمعاشرة فهنالك تقاليد قديمة عاشت على نهر النيل يصعب على هؤلاء العرب المسلمين المتعصبين الراغبين فى المعاشرة من محو هذه التقاليد حتى لو كانت تخالف تعاليم الذى أتوا به عليهم أن يتقبلوا مثل تلك التقاليد العريقة القديمة ، ومن التقاليد الفرعونيه الخاصة بالافراح والختان التى كان يتمسك بها أهل النيل فقد قبلت الأجيال الجديدة من العرب هذه التقاليد التى عاشت فى النيل ورأوا فى إعتناقها تقرباً منهم لسكان أهل النيل والسودان ورأى أهل السودان بقبول العرب لمثل هذه التقاليد وإحترامهم لها إحترام لشخصيتهم ، وقبلوا بدورهم عادات وأخلاق العرب التى رأو العرب يتمسكون بها ويقدسونها كجزء من حياتهم . .

وكان هذا الامتزاج وهذا التجاور بداية لنشر الاسلام والثقافه والحضارة العربية وسط السكان المسيحين أو الوثنين . وجوب الأسلام بعدعملية التزاوج والامتزاج بين المجموعتين معظم إنصار الممالك المسيحية التى كانت فى علوة ودنقلة تنفث آخر إنفاسها وتعيش الكنيسة نفسها فى حالة جذب وإنفصال كامل عن الحركة المسيحية فى العالم وفقدت كل علاقة بها حتى كان القرن الخامس العشر الميلادى وقد تم خالق شخصية جديدة تحمل من تقاليد النيل الوثنية العريقة وتقاليد العرب الذين فقدوا كثيراً من خصائصهم خلال عملية الرحلة الطويلة حتى يصلوا إلى النيل وإلى أرض البطانة والنيل الأزرق وأرض الجزيرة وغرب السودان حتى ظهرت الشخصية الجديدة لمجتمع القرن الخامس عشر ووضح فيه شكل الزعامة القبلية وأصبح لها وزنها الاجتماعى بين الأفراد وظهر المجتمع

القبلى الجديد بعد التكاثر وسيطرت المسلمين على معظم أراضى النيل والفونج وغرب السودان مما مهد لقيام دولة العبدلاب والفونج فى سنار وأسلام دولة الفور فى غرب السودان. وإنتصار الأسلام وظهور زعامته من رجال العشائر وزعماء القبائل ليحلوا مكان سلطة الدولة المسيحية فى الشمال وفى أرض الجزيرة عند سوبة .

* * * *

السلطنة السنارية [illegible]

بعد أن تم الامتزاج بين العرب وسكان السودان وظهر المجتمع الجديد الذى جمع بين الخصائص العربية القديمة والخصائص النيلية القديمة وحل الاسلام محل الديانة المسيحية بعد أن حمله هؤلاء العرب الرحل مئات السنين وفقد كثيراً من تعاليمه وفقد العرب أنفسهم الكثير من خصائصهم الاولى وابتعادهم على دولة الإسلام فى الشمال وتوغلهم فى هذه الفيافى والوديان والانهار حتى تكاثر العدد وغزو أرض النيل والجزيرة وظهر شكل المجتمع القبلى . . . وظهرت شخصية زعيم القبيلة الكبيرة العدد التى لها وزن فى الخصومات القبلية والمشاحنات وفرضت الشخصية الجديدة نفسها على المجتمع وبدأت تظهر وتتضح معالمها البارزة المميزة وتمارس كل حقوق زعيم القبيلة .

وخير مانشير اليه هنا هو كتاب الأستاذ شاطر البصيلى معالم سودان وادى النيل الذى ناقش فيه قيام السلطنة السنارية مناقشة مستفيضة بعد عرض الخلافات الكثيرة بين المؤرخين فى أصل قيام هذه المملكة .

جاء القرن الخامس عشر وكانت ملامح المجتمع القبلى قد برزت وظهرت زعامات قبلية كثيرة ذهب بعض المؤرخين بتسميتها ممالك .

ونجد فى شمال السودان بعد سقوط دولة « المقرة المسيحية فى القرن الرابع عشر الميلادى من جراء هذا الشكل الجديد للنفوذ الجماعى فى الشكل القبلى وظهرت فى الشمال مشيخة ملك « ارقو » على ارقو وجزيرة مقاصر والخناق

فى الجوابرة والنوبة ثم تليها مشيخة البدبرة من حلة تبين إلى جبل دافر وتضم الخندق ودنقلا العجوز وجزيرة تنقس وابكر والدفار بزعامة ملك دنقلة العجوز ثم تليها المشيخة الشايقية وتضم حنك وقوشابى ومروى والعمرى ثم تليها مشيخة المناصير من الرجد إلى نهر العطبرة ومن وصف بوكهارت فى رحلته فى السودان أن هذه المنطقة قليلة السكان حتى فى منطقة ملتقى نهر العطبرة ونهر النيل وتشمل كذلك هذه المنطقة مشيخة الرباطاب والميرفاب ثم بعد ذلك المشيخات القوية حيث كثافة السكان أغزر هنا من الشمال مالقوة هذه المشايخ واستلائها السلطة فيما بعد على المشايخ الاخرى وهى مشيخة العبدلاب تجاورها الزعامة الدينية لبيت المجاذيب بالدامر وشندى حيث ملك الجعليين .

تزعم العبدلاب هذه المنطقة بواسطة زعيمهم عبد الله جماع وبسطوا نفوذهم على المشايخ الاخرى لقوة قبيلة العبدلاب حتى تمكنوا من توحيد منطقة نفوذهم مع منطقة نفوذ الفونج فيما بعد فقد امتد نفوذ الفونج إلى أرض النيل الأزرق وشرق السودان .

وأهم مانود أن نضيفه هنا إلى تاريخ هذه السلطنة وتلك الفترة كثافة السودان وزيادة الموارد الاقتصادية واتحاد الأفراد فى مجموعات باسم القبيلة خلف ذلك الصراع الذى عاشت فيه الجماعات التى عمرت السودان واستوطنته وذلك مابين الفترة من القرن الثالث عشر الميلادى والخامس عشر الميلادى وهى الفترة التاريخية الكافية لخلق ذلك التجمع وتلك القوميات الصغيرة على ضفاف الانهار والوديان والسهول . . . كما يجب أن نضع فى أذهاننا طبيعة تلك المجموعات وميلها إلى الحروب والمشاكسة وخروج الأفراد والشاذين منها الذين يحترفون مهنة السلب وقطع الطرق الأمر الذى يقود إلى مصائب كبيرة . فقطاع الطريق مهما كان الجرم الذى ارتكبه كفرد اصبحت القبيله مسئوله منه .

أن الاخلاق القديمة التى جاءت مع العرب كانت تلزم القبيلة بجناية الفرد المنتمى اليها . . . وهذا سبب من الاسباب الرئيسية لخلق المشاحنات والحروب الداخلية بين المجموعات القبيلة التى خلقت البيئة الجديدة . . . . . . ويجب أن لاننسى القبائل الشلك التى كانت تسكن جنوب أرض الجزيرة وماعرف عنها بحب للقتال وكأى مجموعات بدائية كانت الحرب رغم بدائيتها الحروب منها أمر محال . . فالتمرد على الحرب والقتال أمر تفرضه طبيعة البيئة والحياة . . .

وإذا كان تاريخ السودان فى العصور الوسطى يبتدىء باهم حدث تاريخى وهو قيام السلطنة السنارية بين عبدالله جماع رئيس أكبر مجموعة فى الشمال وبين عمارة دنقس رئيس أكبر مجموعة فى حوض النيل الازرق . . .

ويجب علينا أن نسأل بعض الاسئلة لماذا اتحد هؤلاء الزعماء هل كانوا فى قوة متبادلة أفرضتهم أطماعهم على حفظ قوتهم وتوحيدها لبسط نفوذهم على كل المجموعات الأخرى التى كانت لاتخضع لهم . . . . .

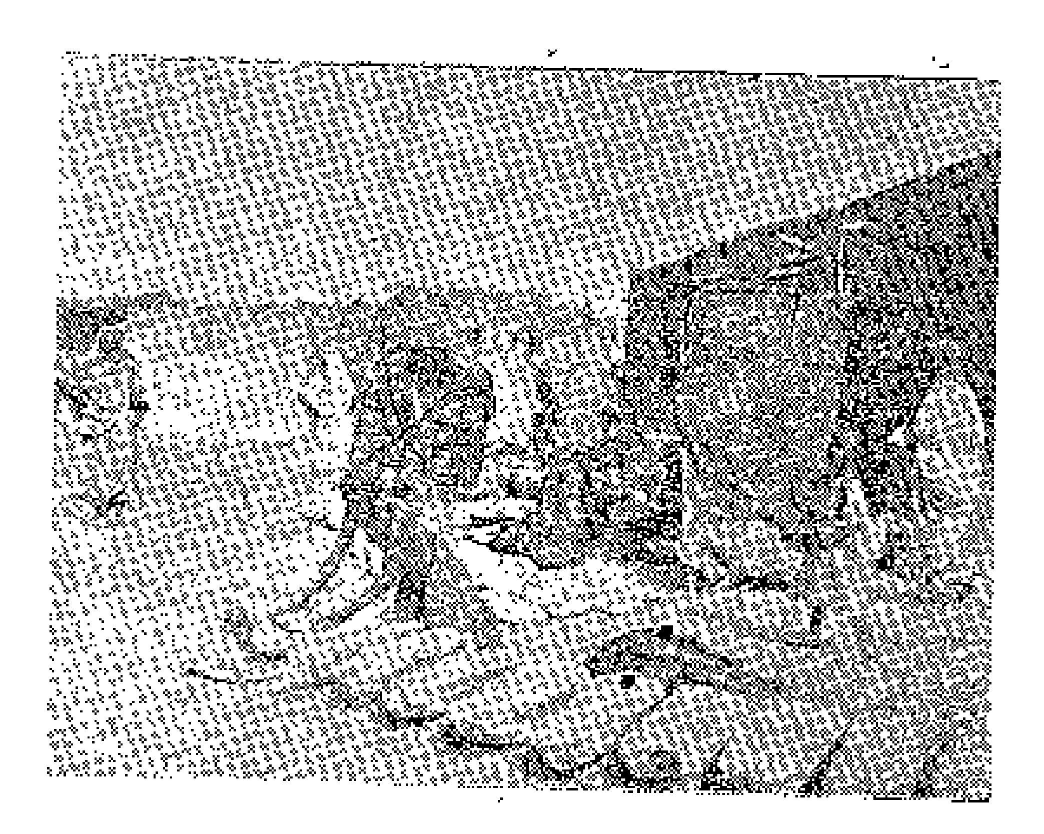
أن هذا الاتحاد جاء بصداقات ومعاملات تجارية بين اغنى أفراد المجموعات السودانية . . وعبدالله جماع زعيم العبد لاب وعمارة دنقس زعيم الفونج الذين ظهروا كمجموعات قوية فى منطقة النيل الازرق وحدود الحبشة فقد أنتهت مملكة علوه المسيحية وضربت بواسطة قبائل الشلك وأنتهى حكمها وسلطتها وفقدت البلاد السلطان والملك الذين يجب أن تدين له كل هذه المجموعات كما أن دنقله أنتهت السلطة فيها فتغلب العرب عليها بعد الحروب التأديبية العديدة

التى كان يقود فيها ملوك مصر لردع تمرد ملك دنقلة والنوبة المسيحية وذلك فى عهد الملك بيبرس . وتدخل سلطات مصر فى شئون مملكة دنقلة وطرق التجارة رغم أستمرار مسيحية هذه المنطقة إلا أن الظروف الاقتصادية لدولة المماليك كانت تفرض عليهم الاستمرار فى أخضاع شمال السودان لدفع الجزية والضرائب فى حين أستطاعتهم أن يفرضوا سلطانهم على هذا الاقليم وتعيين حاكم مسلم عليه . .

أن الجزية السنوية والضرائب التى كانت تصل إلى السلطان كانت أقوى من حوافز المماليك الاسلامية ... فلو فرضوا الاسلام على شمال السودان لقلة الجزية وأنعدمت ولذلك حافظوا على نصرانية هذا الجزء أكبر قدر ممكن ليستفيدوا من جزية المسيحية التى كانوا يتقاضونها .

كانت السلطنة السنارية هى بداية جديدة لحياة السودان الاسلامى وكانت أملا لتوحيد تلك القبائل والنهوض بالسودان والاسلام إلا أن الظـــروف العالمية كانت لا تسمح لهذه الدولة أو لغيرها بشيء أكثر من قيام هذه الدولة وأنحصارها فى منطقتها ومحافظتها على أستمرار التجارة فى المقام الاول .

فاذا كانت تستطيع أن تفعل السلطنة السنارية ١٥٠٤ م تاريخ أنشاءها ومساطيل المملكة العثمانية وتمديد السلك إلى كل البلدان حتى غست مصر عام ١٥١٧ م وبذلك سكنت حركة الحياة فى البلاد العربية الاسلامية حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى .. كان تدخل السلطنة العثمانية فى البلاد الاسلامية وشل حركتها من الاسباب الرئيسية لركود مملكة سنار وخاصة الحياة الثقافية عامه



الصورة العليا

المرأة عنصر هام فى صناعة وإبتكار الأدوات المنزلية . . من الحجارة إستطاعت أن تخلق أدوات لرحى الذرة

• • •

الصورة السفلى

العرب بعد أن استوطنوا السودان ..

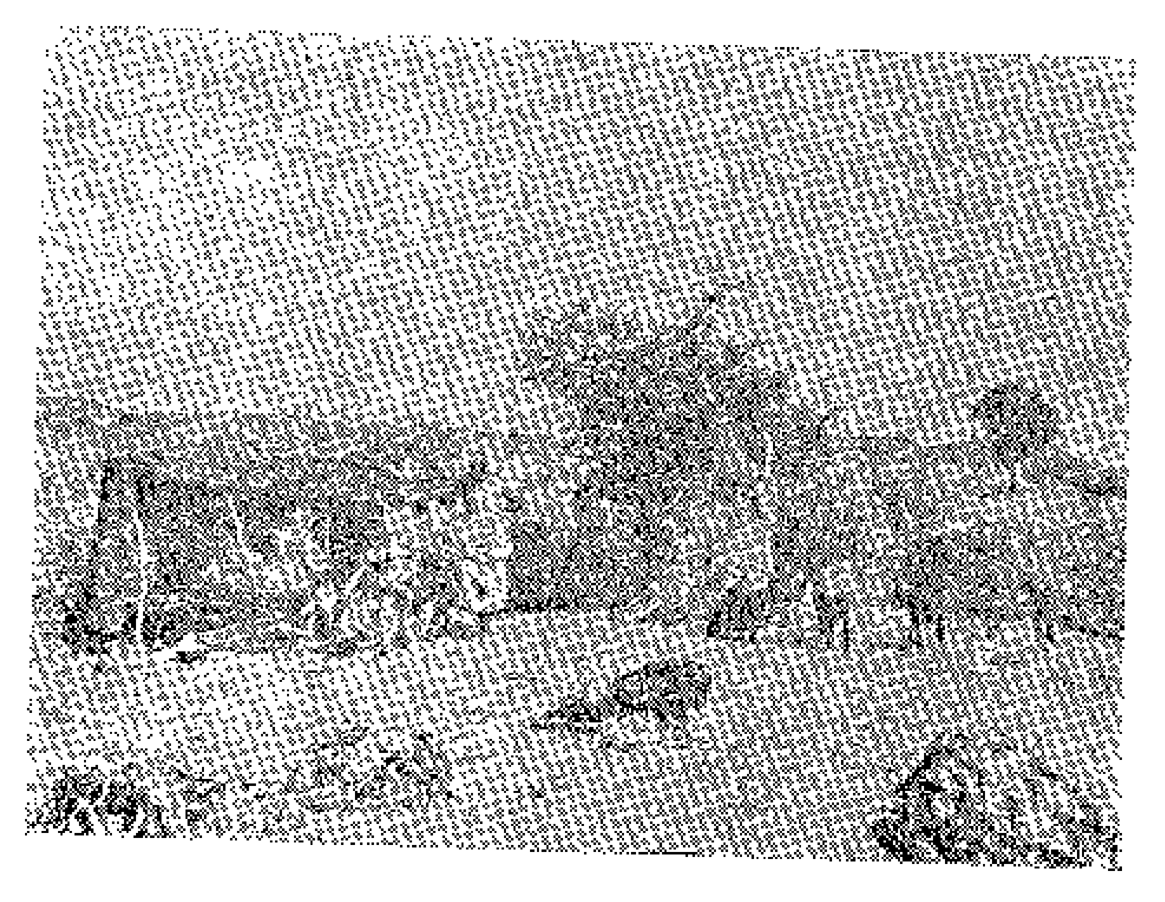
وخلقوا لهم حياة جـديدة حسب ظروف السودان وأمكانياته .

صورة لعرب صحراء بويضة .

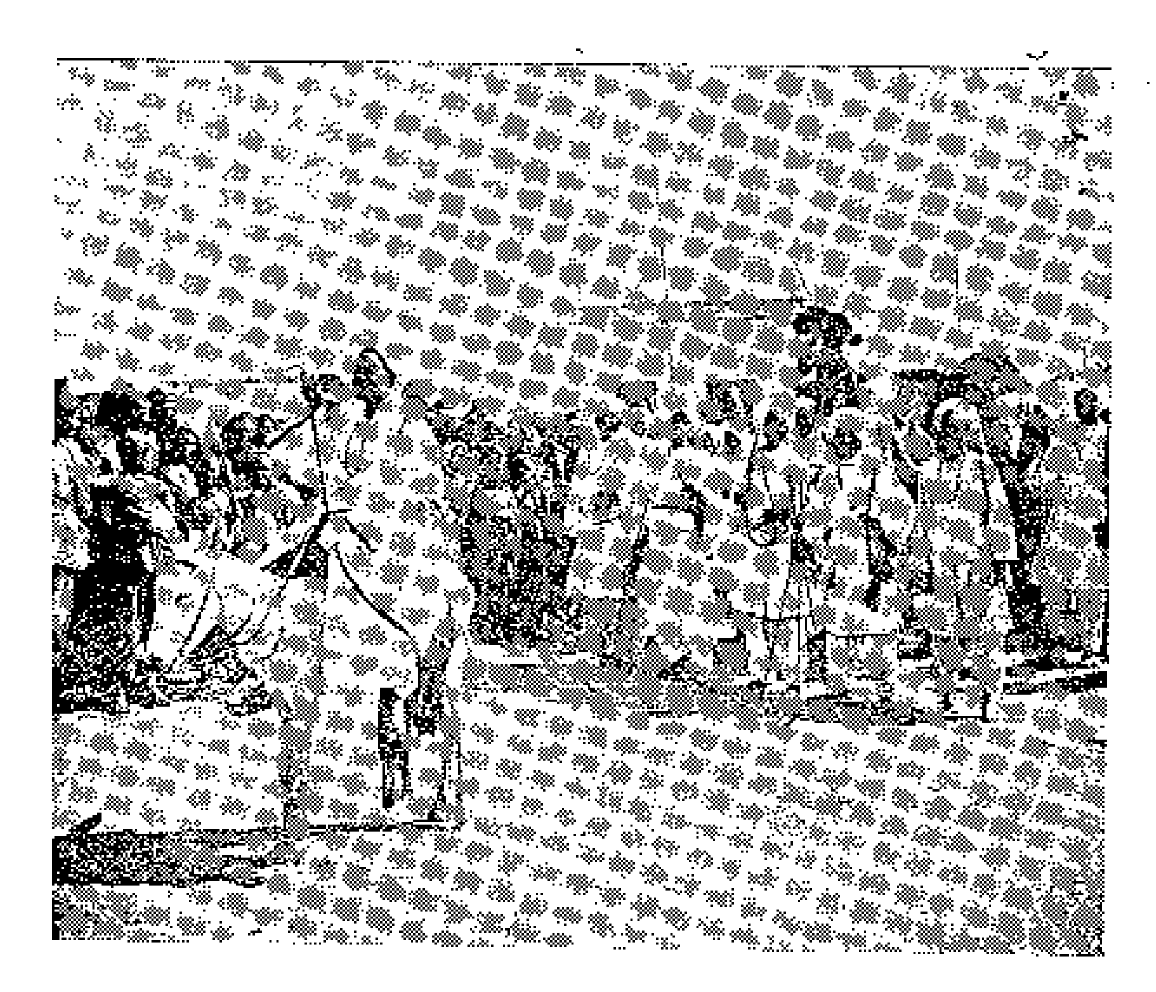




أحد قرى الشلك حيث استفاد من خيرات الطبيعة فى بناء مساكنه بدلا من الأحجار والطين . . ليناسب مناخ منطقته .



منظر العرب الجمليين استقرار موسمى فرضته طبيعة حياتهم المعيشية
استفادوا من جلود الحيوانات وأشجار الصنط التى حولهم.



رغم انتصار الاستعمار على الصوفية إلا أنه لم يستطيع أن يفرق وحدة الصوفيين
الصورة تبين محمل دار فور مخترقاً مدينة أم درمان عام ١٩٠٤

فى البلاد الإسلامية وشل حركة التقدم للعلوم الاسلامية التى كانت تتمركز فى بغداد وحلب والقاهرة والاندلس وسنعود إلى ذلك حين مناقشة الحياة الثقافية فى عصر السلطنة السنارية ..

والان رغم أختلاف كل المؤرخين فى تحديد زمن تحالف العبدلاب والفونج بين بروس وكايو وكاتب الشونة وتريمو ونعوم شقير ومخطوطة واضيف الله إلا أننا سنعتمد على ماجاء فى مخطوطة ودضيف الله اليه وشروحها .

فقد جاء فى المخطوطة تأكيد لهذا الاختلاف وهو أن بعض الروايات تروى بداية ملكهم عام ٨٩٠ هـ وأخرى تروى ٩١٠ هـ وهذا الاختلاف يشير إلى إلى أن حكومة الفونج قد قامت قبل عشرون عاما قبل أن تتخذ مشيخة العبد لاب وعليه يمكن أن تعتبر أن عام ٨٩٠ هـ بداية تدوين سلطة الفونج التى كانت أقوى الأمر الذى يؤكد اسبقيتها التاريخية على العبد لاب للعشرين عاما وتم الاتحاد فى عام ٩١٠ هـ ١٥٠٤ م

• • • • • • • • •

عمارة دونقس : (٩١٠ — ٩٤٢)

زعيم الجماعات التي سكنت حوض النيل الأزرق والتي شاركت العبد لاب جزء من أرض الجزيرة وأمتدت نفوذها على النيل الأزرق وروافده وشماله .. ترجح أنه أستلم زعامة هذه المجموعات عام ٨٩٠ ﻫ بتغلب مجموعة التي عرفت فيما بعد إسم الفونج أو الفنج كان عصره عصر الزعامات القبيلة والقارة التي تشكل فيها شكل المجتمع شكله الجديد بعد سقوط الدويلات القديمة بحسب رئاسته لهذه القبائل كان أغنى مجموعته وكان من المهتمين بالتجارة والقوافل التجارية الأمر الذي مهد له ولعبد الله جماع الائتلاف والاتفاق على إخضاع المجموعات الأخرى وتكوين الحلف السناري.

ثم في عام ٩١٠ ﻫ كتابة وثيقة الحلف بين عبدالله جماع وبين عمارة دونقس الذي بنى مدينة سنار :

وقبل قيام مدينة سنار وانتقال المدينة والحضارة إليها ظهرت مدينة قيليها وهي مدينة اليجي على الشاطئ الشمالي للنيل الأزرق خططها الشيخ حجازي بن معين ..

وحتى ذلك الحين لم تكن تعرف تلك المنطقة شيئاً من مظاهر المدنية والعلوم فقد جاء أن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها بدون عدة .. وهذا كان يحدث بين الأعراب الذين أبتعدوا عن الإسلام وتعاليمه وخالطوا نساء

السودان بعاداتهم الفرعونية القديمة التي لم يستطيعوا حتى الآن الخلاص منها ... ويجب علينا أن نقف عند هذه النقطة حتى نستطيع أن نتطلع ونتابع حركة التطور التي أحدثتها السلطنة السنارية .. سلطنة تجارية قامت من أجل المحافظة على تجارة القوافل التي تهم زعيم الفونج وزعيم العبدلاب ، بين قبائل رعوية متنقلة شرسة . فتولى عبد الله جماع إخضاع قبائل الجعليين والجوابرة والميرفاب والرباطاب والمناصير والشايقية والدناقلة وتولى عمارة دونقس إخضاع القبائل التي تغطي شرق النيل الأزرق ووديانه والضفاف والبطانة . .

فقد كانت تلك المجموعات صغيرة متنافرة قليلة الإمكانيات ، إذا رأينا أغنى منطقة وهي منطقة نهر النيل الأزرق اقتسمتها قبيلة العبدلاب حتى حدود أرض الجعليين شمال قري عاصمة العبدلاب ثم الجزء الشرقي من النيل الأزرق بأرضه الخصبة ومراعيه الأمر الذي يخول لأي مجموعة تقطن هذه المنطقة أن تعيش في رغد ويسر إن كان من ناحية المحصولات الزراعية أو المرعى لماشيتها التي كانت عماد حياتها .

هكذا بدأ الحلف السناري لخلق مجتمع مستقر وبناء المدن لخلق إدارة جديدة بين أفراد لم يتعودوا مثل هذه المسئولية ويجب أن نقف عند هذه النقطة أيضا إن أردنا أن نتابع التطور الحضاري لهذه المجموعات الرعوية التي لم تعرف الإدارة والنظام وما تتطلبه هذه الدولة من مؤهلات وكوادر لإدارة شئون الدولة الجديدة التي اقتسمها عمارة دونقس واحتفظ بالرئاسة لنفسه ولعائلته وأعطى عبد الله جماع وأسرته أمارة القسم الشمالي من المملكة . .

وقد ساعد التركيب الاجتماعي القبلي ونظام إدارة هذه المملكة على الاستمرار

فى أدارة هذه الممالك الشاسعة .. فقد كانت القبائل منظمة بطبيعتها ، لها زعيم قبيلة هو الغالب أغنى مجموعته إن كان يحصل ضرائب مباشرة منهم أو غير مباشرة فى شكل غرامات وخلافه .

هذا النظام الإدارى القبلى الذى كان يدير المجموعات كفل للدولة الجديدة مشقة البحث عن كوادر جديدة للقيام بالنظام والادارة فتولى كل زعيم أدارة مجموعته مع خضوعه لسلطان سنار أو خليفته من العبد لاب بقرى مع أستقلاله الداخلى فى إدارة شئون أقليمه .

ظهور زعامات دينية جديدة دفع لاتحاد رجال المال .

رغم الاختلاف بين كل المصادر التاريخية والوثائق القديمة ببداية هذا الخلاف إلا أن هناك حقيقة اثبتتها المراجع أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى لم يستقر الاسلام والثقافة العربية فى السودان وكان نهاية القرن الخامس عشر هو بداية ظهور شخصيات دينية .

وقبل التعرض لهذه الشخصيات الجديدة التى أثرت فى الفكر السودانى ومالولا الافراد بل غرست قواعد المجتمع الجديد منذ القرن الثالث والرابع الهجرى منها مدرسة حسن البصرى وإبراهيم بن ادهم ومدرسة رابعة العدوية تلك الشخصيات الوافدة إلى السودان بتقييم جديد للانسان ومقدراته وملكاته بذرت بذور الصوفية والكرامات والخوارق وأوجد نوع من الشخصية الجديدة التى بدأت تزاحم الشخصيات القديمة التى تولت زعامة المجتمعات والرجال .

كانت الزعامة قبل ظهور هذه الشخصيات الجديدة للافراد الاقوياء أصحاب الامكانيات وأبناء القبيلة الكبيرة وأصحاب النسب والحسب فظهرت هذه الشخصيات لتخلق نوعاً جديداً من الأفراد المحبوبين ليسوا أغنياء ولا من رجال كبار القبائل أو من الفرسان الذين يهزمون العشرات أو من الكرماء .

طرحت هذه الشخصيات الوافدة مفهوماً جديداً للرجل الكامل حسب وجهة نظرهم إلى قبلها المجتمع . . الانسان العابد المنقطع للعبادة والانسان الذى يأتى بالخوارق ، الانسان الذى يستطيع أن يكشف الغيب وأن يشفى وأن يؤذى وله من الامكانيات غير الطبيعية مايذهل العقل الانسانى عن مصدر هذه القوة وهذه الامكانيات .

أن القرن السادس عشر بالنسبة للسودان هو بداية تحول كبير فى التفكير والسلوك والقيم وفى إرساء تعاليم والثقافة العربية التى لم تنشأ حتى ذلك الوقت أما بالنسبة للعالم الاسلامى فكان ايذاناً بتحول كبير بعد أن امتدت يد الدولة العثمانية إلى البلاد العربية وبعد أن ظهرت الخلافات المذهبية بين المسلمين الأمر الذى قاد لظهور مذهب جديد هو مذهب الصوفية الذين رأوا لاخير فى هذا العالم وتأثروا على يبدوا بسلوك الرهبان فى العبادة . فانقطع نفر من الصوفيين الأوائل للعبادة وعدم التفكير فى أمور الدنيا بل فتح قلبه لعبادة ربه ورسوله وهام فى حب خالقه ورسوله درجة اعمته عن كل مسئوليات الحياه ومشاكلها واتجه بصره وعقله وبصيرته للعالم الآخر وفعل مايشبه مايفعله الرهبان المسيحيين فى إنقطاعهم للعبادة وتركهم ملذات الحياة ومسئولياتها .

وكانت هنالك منطقتين ظهر فيهما هذا الاتجاه الجديد فى العبادة بغداد حيث

نكب الاسلام بضياع وحدة دولته وإنصراف الخلفاء المسلمين عن النعاليم الاسلامية في المغرب حيث أمتد المذهب الشيعي الذي اخذ أصحابه في سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائهم وتفانيهم المنقطع النظير لخالقهم مثلا أعلى لهم اقتدى الشيعة بذلك المسلك السامي للرسول في العبادة ونسوا أن الرسول لم ينس مسئوليات الحياة ولم يطلب من الناس أن يجعلوا العبادة تلهيهم عن مسئوليات الحياة وكسب العيش .

وأول ماجاء للسودان حاملا هذه الطريقة هو الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي وننقل هنا تعريفه حسب ماجاء بمخطوط ودضيفة ضيف (هو تاج الدين البهاري البغدادي أسمه محمد والبهاري نعته مأخوذ من قولهم قمر باهر أي مضيء أسمى بذلك اضياء وجهه ريحانة من أخبار هو والشيخ الامام القطب الرباني والغوث الصمداني خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني مولده ببغداد حج إلى بيت الله الحرام وقدم بلاد السودان باذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخ عبد القادر الجيلاني قدم مع داود بن عبد الجليل أبو الحاج سعيد جد ناس العيدي (١) وقدومه أول النصف الثاني .

* * * * * * * * * * *

(١) العيدي بلدة بالشاطىء الأيمن للنيل الأزرق شرق مدينة الكاملين

تطور الثقافة العربية فى عهد السلطنه السناريه:

أتاحت الظروف العالمية لسلطنة سنار أن تتقدم وتحتضن الثقافة العربية كما خلقت من حولها مناخاً جافاً من النهضة والتقدم .

قامت السلطنة السنارية والأمبراطورية الاسلامية قد تقسمت إلى . . دويلات صغيرة أهلكتها الخلافات والحروبات حتى أمتدت لها يدالاخطبوط العثمانى لتشل حركة تقدمها وبذلك فرضت حياة راكدة فى البلدان العربية المحيطة بالسودان والتى تشاركه فى الاسلام كما أتاحت للسودان الفرص أن يتبنى النهضة العلمية التى كانت سائدة فى البلدان العربية وتقديم كافة المساعدات والامكانيات المادية التى كانت تغرى العلماء بالنزوح للعواصم ومجاورة المـــلوك . .

وقد كان تخلف السودان الثقافى والاسلامى عن البلدان العربية لايتيح له الفرصة لمثل هذا الدور الخطير ... فلو كان السودان متقدما مثل بقية الدول الاسلامية لاحتضن علماء الدول الاسلامية وتبنى تطور الثقافة العربية والاسلامية ولكن ظروف تطور السودان الاسلامى والعربى لم تواكب تطور بقية البلاد الاسلامية والعربية . . . .

وفى القرن الذى بدأت فيه الحضارة الاسلامية فى البلاد العربية فى الذبول والضياع ظهرت دولة السودان العربية الاسلامية فقيرة من كل الامكانيات بعيدة كل البعد عن تطور الحياة فى البلاد العربية ولهذا لم يستطيع أن يستفيد

السودان من خيرات المفكرين العرب باتاحة الظروف الملائمة للعمل العلمي على على الوجه المطلوب . . .

ورغم ذلك كان السودان متنفذا هاماً لبعض الغاضبين والمترددين والحالمين من العلماء والمخلصين أيضا .

قامت السلطنة السنارية وخلفت المملكة الاسلامية الأولى فى السودان . . فكل زعيم من المجموعتين الذين خلقوا التحالف السنارى عبد الله جماع وعمارة دونقس مسلم يحتفظ بشجرة نسب عربية مما أتاح هذا النسب الانتعاش تطور الفكرة الاسلامية والثقافة العربية ... وقد كان هناك وسيلتين لهذا الانتعاش مواسم الحج وانتشار الفكرة بين الناس وحماية الدولة لقوافل الحجاج واشتراك أمراء سنار والعبدلاب فى حفظ سلامة قوافل الحجاج ، دفع بالكثيرين لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأداء الفريضة ... وعن طريق الحج كانت تنفتح مدارك الحجاج لمفهوم الاسلام .. وقد لعبت هذه المواسم دوراً كبيراً فى دعوة بعض العلماء لزيارة السودان وتقديم المساعدات العلمية ونشر التعاليم الاسلامية . . وقد كان تاج الدين البهارى (البغدادى) اول من لبى هذه الدعوة وأول من أشتهر من العلماء الذين أتوا من الحج مباشرة مع قوافل الحج السودانية .

وإذا أردنا أن نؤرخ للثقافة العربية والاسلامية بالمفهوم العلمى الحديث وما كان سائداً فى البلاد الاسلامية فسنؤرخ له بدخول تاج الدين البهارى أوائل القرن السادس عشر أما قبل ذلك فلم يعرف السودان من الثقافة العربية والاسلامية إلا الشيء اليسير من الذين سبقو تاج الدين باعوام بسيطة فى أدخال

القراءة العربية والتعليم الاسلامية ونشر القرآن والصوفية حسب ماجاء الينا في المخطوطات

وقد كان تعطش الناس للتعاليم الاسلامية وتعلم القراءة وحفظ القرآن من العوامل التي ساعدت لنشر هذه الثقافة العربية والاسلامية في وقت وجيز في السودان على يد تاج الدين البهاري وراجل القصير وأولاد جابر .

وقد سبق تاج الدين البهاري بعض العلماء المصريين والمغاربة إلى السودان بزمن يسير إلا إن تلاميذ تاج الدين البهاري هم الذين قامت عليهم النهضة الثقافية والصوفية في مملكة سنار فقد سبق تاج الدين البهاري الشيخ ابراهيم البولادى ابن جابر إلى دار الشايقية حيث درس فيها خليلا والرسالة بعد أن زار مصر وتعلم في الأزهر ثم ذهب إلى سنار كبقية علماء ذلك العصر لمجاورة الملوك والعواصم الاسلامية حيث جعل له مدرسة كاروقة الأزهر الشريف يدرس فيها ويلقي فيها محاضراته في شتى العلوم الاسلامية .

وقد قامت على يد أولاد جابر بأرض الشايقية منذ القرن السادس عشر أول مدرسة لتدريس القرآن وعلومه بالسودان ، وقد سبقت أرض الشايقية بقية الاقاليم السودانية في هذه المعرفة ولذلك لقرب أرض الشايقية من طريق القوافل التجارية الذاهبة إلى مصر والازهر . . . رغم أن الازهر في عصر الحكم العثماني لم يكن كما كان في عهد الفاطميين والمماليك إلا أن المسلمين بسماحة دينهم كانت تفرض عليهم أطعام طلاب العلم وتوفير سبل الحياة . . .

وقد أهتم بعض الميسورين ببيوت الله ورعايتها من أموالهم الخاصة الأمر

الذى حفظ للأزهر مواصلة رسالته رغم كل الظروف العصيبة ووقف الاعانة المالكية عنه .

وقد خصصنا فصلا بتاريخ الأزهر والجوامع التى سبقته فى مصر لنعطى صوره عن حياة العلم فى عهد الدولة الأمويه والعباسية والفاطمية والمماليك وامكانيه إستمداد السودان من دراسته الى يأتى فى المرتبة الأولى ضمان العيش للطالب فيه وقد ساعد الحج عن طريق مصر فى سفر كثير من طلاب العلم إلى مصر ليقيموا بالأزهر حتى قيام قوافل الحج ثم يقادم بمكة لمجاورة المصطفى عليه السلام ثم العودة عن طريق مصر وعلى منوال المنال العلامة الكبير عمار بن عبيد الحفيظ الخطيب من أهالى سنار حيث درس جميع العلوم الفقهية والنقلية والعقلية وعلم النحو الأصول والمنطق والتصوف وكان ذلك فى عام ١٠٧٧ هـ ...

وقد مدحه تلميذه الفقيه على ولد الشافعى بقصيدة قال فيها :

ياطالبين لكل فن تبتغوا	شدوا الرحال وتوخوا سنارا
قد حل بهـا امام فاضل	زين النوافل عالى المقدار
ورع تقى صابر متواضع	وجل عليه سكينة ووقار
له العلوم تأهلت طوع المنا	من غير إشكال ولا إنكسار
فى كل فن تطلبون تورنه	يبدى المزيد كزاخر الأبحار
فقه وتفسير الحديث ومنطق	وبديع علم والمعانى يدار
فقه ونحو والبيان وحرفه	علم الكلام به جلا لغبار
علم التصوف طال فيه يانقى	وقتا به للسادة الأبرار
وكأن مجلسه المسمى أزهر	على المدارس فى كلا الامصار

وهذه القصيدة تكشف لنا علم العلامة عمارة بن عبد الحفيظ الخطيب ولاشك أنه قد كان خير علماء سنار كما تكشف لنا عن حالة الشعر العربي في القرن السابع عشر الميلادي .

وقد كان يتكسب كثيره من هداية الطلبة والأصدقاء وزعماء القبائل المحبين لرجل الدين والعلم . اما ملوك سنار فلم نسمع منهم أنهم تبنوا هؤلاء العلماء كما كان سائرا في بغداد وحلب والقاهرة والاندلس وان كانت هنالك بعض الهبات والهدايا فقد كانت لظروف خاصة ولكنهم كسياسة عامة لم يسلكوا سلوك رؤساء الحكومات الاسلامية في البلدان العربية . . .

اما الشيخ تاج الدين البهاري الذى حضر في بداية القرن السادس عشر الميلادى لم يسكن سنار بل أقام في الجزيرة في ضيافة داود عبد الجليل الذى دعاه لزيارة السودان وتعليم أهلها تعاليم الاسلام بعد أن قابله في أرض مكة وتزوج من أهالى العلك بالهلالية وتخرج على يديه علماء من علماء السودانيين الاوائل ورجال الصوفية منهم الشيخ محمد الهميم الذى جعله الشيخ تاج الدين البهارى خليفته بعده وطلب من الناس مبايعته . ومن أخباره وتسميته بالهميم . . . ان زوجة شيخه طلبت منه دوكة كسرة فطلب من محمد أن يحضر لها دوكة فذهب واحضر الدوكة على رأسه وعند حضوره وجد شيخه قد غادر اربجى إلى سنار فلحق به في سنار والدوكة على رأسه وعندما وصل سنار سأل عنه فعرف أنه رحل إلى قريته فلحقه في القرية وهو مازال حاملا الدوكة على رأسه وعندما علم شيخه بقصته قال له هذه همة تصلح بهـا دين الله عز وجل فوقع مغشيا عليه . . .

ثم تتلمذ على يد الشيخ تاج الدين البهارى بالقا الضرير وهو من رجال الصوفية الصالحين . . .

وكذلك حجازى بن معين بانى أربجى ومسجدها وشاع الدين ولد التويم جد الشكرية والشيخ عجيب الكبير . .

كما سلك أربعين رجلا منهم الفقية جد النجيلى صاحب مسجد اسلانج والفقية رحمه جد الجلاويين ختم أثنان ولد عبد الصادق وبان النقا كما سافر إلى تقلى وسلك فيها عبد الله الحمال جد الشيخ محمـــد ولد الترابى مع جماعته . . . وقد حمل هؤلاء من بعده رسالة الصوفية وبناء المساجد واشعال نار القرآن والدراسات . .

وأذا أردنا أن نحصر مراكز التعليم فى السودان فى عصر سلطنة سنار فسنجدها حيث طاب المقام لرجال العلم والصوفية . . فقد جذبت أرض وفاعة وأربجى والجزيرة الكثير من العلماء ورجال الصوفية لكرم رجالها وحسن ضيافتهم وكرمهم ثم مدينة سنار والحلفاية وسندى وبربر وأرض الشايقية وخاصة نورى وتقاس وتوتى . . .

بعد نجاح الحلف السنارى ومع بداية القرن السادس عشر واستتباب الأمن واستمرار القوافل التجارية مع مصر والحجاز انتعشت الحركة التجارية وكثر عدد المسافرين والمرافقين لها وكثر عدد العرب المهاجرين للسودان طلبا للرزق والثروة وكثر عدد طلاب العلم فى أروقة الأزهر والمجاورين بمكة وتزودوا بالعلم والعلوم الاسلامية . . . وانتشر خبر قيام السلطنة السنارية بواسطة

القوافل التجارية في مصر والحجاز وانفتح الباب للهاربين من ظلم مجتمعاتهم وشظف العيش بأوطانهم للقدوم إلى السودان كما انتهز الحجاج السودانيين الفرصة لدعوة رجال العلم الصالحين للحضور إلى السودان لتعليم أهله تعاليم الاسلام والقراءة والكتابة وحفظ القرآن .

وبنهاية القرن السادس عشر كانت العلوم الاسلامية والثقافة العربية قد انتشرت في ربوع السودان والمدن التجارية وبحلول القرن السابع عشر الميلادى كانت الصوفية قد تركزت في القرى والمدن وشغلت الناس وماصاحب رجالها من كرامات وورع وصلاح جذب اليها الناس دون رجال العلم حتى باتت مركز رجال الصوفية أعلى من رجال العلم والدين .

وإذا حاولنا أن نتتبع النشاط العلمي والديني خلال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فسنجد دراسة القرآن وحفظه كانت تحتل المركز الاول وكان حفظ القرآن أمل الغالبية من طلاب العلم اما مازاد عن ذلك من علوم فكانت تمليه ظروف الطالب والشيخ . . . فالشيوخ الذين قاموا بتدريس القرآن والخليل والسيرة واللغة العربية كانوا يقومون بتدريس هذه العلوم فلم يختص شيخ أو عالم بتدريس مادة منفردة بل قصر بعضهم على تدريس القرآن وعلوم الدين وزاد البعض تدريس اللغة العربية . من فقــــه ونحو وعروض . . . . الخ . . .

وقد كانت لكل شيخ خلوته (الكتاتيب) الخاصة به يحضر إليه التلاميذ من القرى المجاوره للأقاليم البعيدة حسب سمعته وتقواه وبركته وصلاحه

واستعداده لقبول الطلاب وضيافته لهم وكل ماكان استعداد الشيخ لتعليم الطلاب دون أرهاقهم بالالتزامات المادية كلما كثر طلابه . . . وقد اختلف علماء السودان عن بقية علماء البلاد العربية الأمر الذى جعل نشاطهم لايصل إلى تلك النهضة العربية . . فقد كان علماء الدين واللغة يجتمعون جميعا فى الجوامع الكبيرة كل له زاويته يدرس علمه المتخصص فيه . . . فأحدهم يدرس التفسير وآخر السيرة وآخر علوم اللغة العربية وكانت حلقاتهم يشهدها كبار العلماء والأدباء الأمر الذى رفع من مستوى تلك الندوات والمناظرات التى كانت تجرى فى جامع بغداد أو الفسطاط والأزهر أو حلب حتى خلقت تلك النهضة الفكرية الاسلامية العربية لاتساع صدرها لهذا التنافس والتخصص واشتراك العلماء مع بعضهم فى المناقشات واجتماعهم تحت سقف واحد مما أتاح أيضا للطالب أن يتلقى العلم على يد أكثر من معلم - رغم إستعداد البعض للتدريس فى كافة العلوم

ازدهر تدريب القرآن وعلوم اللغة العربية وأداب الصوفية وقد دخـــل الشعر الصوفى قبل غيره من أداب العرب وذلك لانجذاب الناس نحو رجال الصوفية . .

ومن رجال الصوفية الكبار محمد أبراهيم الهميم ، ولم يكن عالماً إذ اضطر القاضى دشين (قاضى العدالة) أن يفسخ زواجه لانه تزوج أكثر من أربعة وجمع بين الاخوات ثم الشيخ خوجلى بن عبد الرحمن أبو الجاز وكان أكثر رجال الصوفية صلاحاً وظهرت له كرامات كثيرة ودانت له الملوك وعامة الناس ومن سبقه فى درجة الصلاح والصوفية الشيخ أدريس بن محمد الارباب المولود عام (٩١٣ ھ — ١٥٠٨ م) والمتوفى عام (١٠٦٠ ھ ١٦٥٠ م) وعاش مائة وسبعة وأربعون عاماً مدفوناً بالقرب من الحلفاية وكذلك بانقا الضرير أحد

الذين سلكهم الشيخ تاج الدين البهارى الذى ولاة تربية أبنائه حين توفى وأعطاه أسرار الصوفية . . . . ومن رجال الصوفيـــة الذين علت سمعتهم وظهرت كراماتهم ، الشيخ دفع الله بن الشيخ محمد أبو إدريس . ابناه الشيخ ادريس بن الأرباب حفظ القرآن واشتغل بالفقه ثم قرأ مختصر الخليل على الشيخ إبراهيم الفرضى . . .

وإذا أردنا أن نحصر مراكز التجمع الثقافى والعلمى فى السودان داخل أراضى السلطنة السنارية ، فسنجد على النيل الأزرق حوالى ثلاثة أو أربعـــة مناطق تجمع على طول النيل الأزرق أحد هذه المناطق خاضع لنفوذ العبدلاب والثلاثة تحت نفوذ السلطنة السنارية ، وأول هذه المناطق هى التى كونها الشيخ محمود راجل القصير العركى فى نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر ، على النيل الأبيض فى أرض الحسانية ، بحلة الهوى . وسنذكر تاريخه فى حديثنا عن تاريخ كل منطقة . وهذه المنطقة قريبة من منطقة نفوذ قرى عاصمة العبدلاب اما المنطقة الثانية فهى المنطقة الذى عمرها الشيخ تاج الدين البهارى حين جاء إلى السودان مع داود بن عبد الجليل أبو الحاج سعيد جد ناس العيدى فى ولاية الشيخ عجيب وسكن مع داود فى وادى شعير فى أول الأمر إلا إنه تنقل بنشر علمه فى ربوع السودان ، ووادى شعير ، حلة قرب الحصاحيصا فى أرض الجزيرة والمنطقة الثالثة هى منطقة أربجى مدينة الشيخ حجازى بن معين الذى خططها وكان غنيا وتتلمذ على الشيخ تاج الدين البهارى وأربجى فى منطقة رفاعة بالقرب منها جهة الشرقة والرابعة هى مدينه سنار عاصمة الفونج فقـــد تتلمذ علماءها على الشيخ القصير وتاج الدين البهارى وتوسعت فيها حلقات العلم ومن علماءها الكبار العالم عمار بن عبد الحفيظ الخطيب هذا فيما يخص منطقة النيل الأزرق . . . .

وكذلك توسع نشاط الأفراد شمال النيل الأزرق وتعمرت الحلقات قرب قرى وشندى وبربر بلاد الشايقية والدناقلة وتوتى واستقر فى كل منطقة من هذه المناطق العلماء والشيوخ من الصوفية الذى ملأت أخبارهم البلاد وصار الوصول إليهم منية كل فرد .

بدأت حركة البعث هذه بعد قيام السلطنة السنارية فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، وبداية النصف الثانى من القرن السادس عشر ، بعد أن استتب الامن للسلطة السنارية . وشيوخ قرى من العبدلاب . بعد أن استتب الامن ، واستقرت الأحوال لهذه السلطنة الجديدة ، بدأ الناس يطالبون بالتوسع فى تعاليم دينهم فكفلت السلطنة للناس الأمان باشتراكها فى القوافل التجارية لمصر واطمأن الناس على حياتهم من مخاطر قطاع الطرق . ... وتولدت فى الناس الحاجة للالمام بتعاليم دينهم ، لما وصلوا اليه من جهل به . وقامت قوافل الحج عن طريق القوافل التجارية الذاهبة إلى مصر ثم تستقر فى مصر وتذهب مع القوافل المصرية إلى الحجاز وتؤدى الفريضة .

وقد كان لبداية هذه الحركة التجارية أثرها الكبير فى تشجيع طلاب العلم ولحضور الكثيرين من العلماء العرب للسودان وأول من عادت هذه البعثات وأخذت قسطا من العلم بالازهر والحجاز هو الشيخ محمود راجل القصير العركى الذى أسس مدرسته جنوب الخرطوم .

مرحلة التعليم الاولى بأرض الجزيرة :

نستطيع أن نؤرخ لبداية الحركة العلمية والثقافية العربية والاسلام حسب ؛

ماجاء فى المخطوطات والمراجع وأفضلها مخطوطة وضيف الله إن الحياة العلمية بدأها الشيخ محمود العركى راجل القصير ، الذى ولد بالنيل الابيض وسافر إلى مصر طالبا العلم والمعرفة وكان ذلك فى نهاية النصف الاول للقرن السادس عشر الميلادى .

وذهب الشيخ محمود العركى إلى مصر وهى مازالت تحتفظ بشعاع المعرفة السابقة ولم تمتد لها يد الاتراك لتوقف تطور العلم والمعرفة وتقاطع الاعانات والرعاية التى كان يتلقاها الجامع الازهر وجامع الفسطاط والجوامع الاخرى التى كانت بمثابة الجامعة الاسلامية وتمثل منهج التعليم والبحث والفكر فى ذلك العصر خلال حكم الفاطميين والمماليك البحرية والمماليك الشراكسة فى القرن العاشر الميلادى إلى بداية القرن السادس عشر الميلادى حيث بدأ الحكم التركى لمصر من عام (١٥١٧ م ١٧٩٨ م)

أستفاد طلبة السودان من الازهر رغم ظروف الكبت التى عاشتها مصر خلال الحكم التركى وتدهور حال التدريس وأختفاء بعض العلوم العقلية من الازهر كالرياضيات والفلسفة .

وأنحصرت الدراسات فقط فى علوم اللغة العربية والتوحيد والفقه والتفسير ويعزى أستمرار هذا النشاط إلى مجموعة من المفكرين والعلماء العرب وأصرارهم على مواصلة الرسالة على مجهودهم الخاص وقد كان لسمعتهم الادبية والعلمية أثر كبير فى رحلة الطلاب والعلماء إليهم من جميع البلدان العربية والفارسية والتركية ، ومن هؤلاء العلماء الذين عاصروا السلطنة السنارية أى فى بداية القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر ، وتتلمذ عليهم معظم علماء السودان

واستفادوا من مؤلفاتهم وأخبارهم العلمية ، حيث كانت الدراسة تدور فى أروقة الأزهر على غرار الدراسة فى أكاديمية أفلاطون وجماعته ، إذا كانت الدروس عبارة عن مناظرة يشترك فيها الاساتذة والطلاب وقد خصص لكل أستاذ مكان معين يلقى فيه دروسه فى شتى العلوم كالبيان والنحو والتفسير والفقه وقد كانت هذه الحلقات الحرة ونظام التدريب فيها فسح أذهان الطلاب لعالم رحب من التفكير مما ساعد على التأليف والكتابة رغم قلة العلوم العقلية التى كانت تدرس .

ومن الاساتذة الذين واظبوا على رسالة الأزهر العلمية رغم قلة الامكانيات المادية وخوف الدولة التركية من نشاط الازهر ومحاولتها التقليل من نشاط دون الاستحكام به حتى نجحت فى كسب بعض شيوخه وجعلته تابعاً للأمبراطورية التركيه ، وشارك فى التدريس بن نور الدين على اليحيرى المتوفى عام (٩٤٤ هـ ١٥٣٦ م) والعلامة شهاب الدين أبى .. عبد الحق السنباطى المتوفى (عام ٩٥٠ هـ ١٥٤٠ م) وعبد الرحمن المناوى المتوفى (عام ٩٥٠ هـ) وشمس الدين الطاهر الشافعى والأمام شمس الدين أبو عبد الله العلقمى المتوفى عام (٩٦٣ هـ ١٥٦٣ م) والأمام الصفوى المقدس الشافعى المتوفى حوالى عام ١٥٨١ م

وقد ضم القرن السابع عشر الميلادى العديد من العلماء بالازهر وحج اليه الكثير من العلماء من المغرب وشمال الجزيرة العربية ومن علماء القرن السابع عشر الميلادى كشمس الدين العنانى وعبد الباقى بن يوسف الزرقانى المالكى والعلامة شاهين بن منصور عامر الارمناوى المتوفى عام (١٦٩٠ م) وكان يلقى

محاضراته بالأزهر في شتى العلوم والفتوة والشيخ محمد الاخرس المالكى شيخ الجامع الازهر المتوفى عام ١٦٩٠ م) والشيخ حسن بن على بن محمد الجبرتى والد الجبرتى المؤرخ العربى الكبير وقد توفى عام ١٧٠٤ م وقد كان بارعا فى للعلوم الهندسية وقد زار الأزهر هذا القرن العلامة شهاب الدين المقرى فى عام ١٦١٨ وأقام بمصر للتدريس بالازهر لاعوام طويلة حتى وفاته عام ١٦٢٣م وكما زار الازهر العلامة الصوفى الشهير عبد الغنى النابلسى عام ١٦٩٤ م .

ويذكر الجبرتى أخبار علماء مصر ويورد لنا الكثير من أسمائهم وتخصصهم منهم العلامة اللغوى حسن البدرى الحجازى المتوفى حوالى عام ١٧١٨م والعلامة عبد الرؤوف بن عبد اللطيف البشبيشى المتوفى عام ١٧٣٠ م وكان استاذا فى النحو والمعانى والشيخ أحمد بن عيسى العمارى المالكى من علماء الحديث وغـــيرهم ...

وفى الكتب التى كانت تدرس بالازهر فى القرن الثامن عشر الميلادى والتى بموجبها يمكن لنا أدراك سير العلوم والمواضع التى كانت تدرس والتى سيرت خطة المعرفة والفكر العربى خلال العصور المظلمة ومنها الاشمونى وأبن عقيل والشيخ خالد وشروحه والازهرية وشروحها والشذور وكتب التوحيــد كالجزهره والهدهدى وشروح السنوسيه الكبرى والصغرى وبعض كتب المنطق والاستعارات والمعانى والبيان بجانب كتب الحديث والتفسير وهى تدور جميعا فى علوم اللغة العربية والصوفية والحديث وعلوم الدين وقد أختفت منها العلوم الحديثة كالرياضيات والمنطق والفلسفة والفلك ، من هذا الفيض الفكرى المحدود كان يتلقى طلبة العلم من السودانيين الوافدين على الازهر .

كان الازهر هو الجامعة الاسلامية والعربية خلال الفترة فى القرن الثانى عشر إلى الثامن عشر الميلادى وقد كان تقدمه فى العلوم ينعكس على سير العلوم فى بقية البلدان العربيه وخاصة التى تقع فى أفريقيا حيث القاهرة ملتقى قوافل الحج السائرة إلى بيت الله وقد كان أى تدهور فى حالة الازهر العلمية والإقتصادية لها أثرها المباشر على بقية الدول حيث كان الوافد العظيم لكل طلاب المعرفة وعلماء البلدان الأخرى . . . وإذا أردنا أن نقيس مستوى المعرفه والعلوم فى عصر السلطنه السنارية يجب أن نقيسها بمستوى العلوم بالازهر ومصر حيث كانت الرافد العظيم لطلاب المعرفه فى السودان والذى نستطيع أن نقوله عن طلاب تلك الفترة وماتركوه من أثر على تقدم العلوم فى السودان هى نشر اللغة العربية وعلومها والحديث والتفسير وعلوم الصوفية ولكنهم لم يتركوا أثر خارج حدود السودان فلم نسمع عن واحد منهم حاضر بالأزهر أو الحجاز ولم يتركوا فى المخطوطات والمؤلفات ما أثر فى تطور العلوم العربية والدينية خلال تلك الفترة رغم ما تخلفه بعضها من مخطوطات فى التوحيد والصوفية والتفسير حيث كانت الدراسة تختلف ظروفها عن ظروف الازهر ، فالأزهر أنشأ ليقوم بمهمة الجامعه الاسلامية ووجد الرعاية من الدولة والعلماء ، أما فى السودان فى عصر الدولة السنارية فلم نجد مثل هذه الجامعة إنما قام العلم بعيداً عن سنار فى اربجى والجزيرة والحلفاية وشندى وبربر وأرض الشايقية وكردفان ثم الدامر حيث قام محمد المجذوب فى القرن الثامن عشر الميلادى وفى المرويات أقام الشيخ أحمد الطيب شيخ الطريقه السمانية

نحن نبني قياسنا للعلوم في تلك العصور على مفهومنا للعلوم في العصر الحاضر حيث كثرت فروع المعرفة وتوسعت المعارف في الفلسفة والكيمياء وعلوم النباتات والطبيعيات والهندسة والنقد التي لم تتوفر لعلماء تلك الحقبة .

نقيس مستوى هذا العصر في التقدم في ظل هذه العلوم ونقيس مستوى ذلك العصر في ظل تلك العلوم .. وهي علوم الدين واللغة حيث خلي من العلوم العقلية كالهندسة والرياضيات والفلك والفلسفة والطب الأمر الذي جعل العلم في السودان خلال الفترة من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر الميلادي لا يستطيع أن يقصر الظواهر الاجتماعية ويدرك التاريخ ويؤدي رسالته على خير وجه في ازالة بقايا الوثنية الفرعونية والديانة المسيحية وهذا مانراه حتى اليوم في عادات الأفراح كالزواج والختان في أغاني السيرة وذهاب العريس إلى البحر والكثير من العادات خلال فترة الزواج أو العادات التي تسير خلال فترة الحداد على المتوفي . وكثير من التقاليد الاجتماعيه تبرز فيها هذه الرواسب القديمه في أفريقيه وفرعونيه ومسيحيه وهي موجودة حتى الآن في تقاليد الزرع والبناء والأفراح والاحزان .

أما التجمع العلمي الذي حدث في السودان كما ذكرنا سابقا قام بعيداً عن العاصمة سنار رغم زيارة العلماء لها وأقامة بعضهم بها كالعلامة الكبير عمار بن الخطيب الذي اشتهر بالعلم والمعرفة وهو من أشهر علماء سنار ثم منطقة أربجي التي ساعد ثراء حجازي بن معين على نشر العلوم بها واقامة المساجد وهي قرب وفاته ثم منطقة الحسانية بالنيل الأبيض التي قامت بها سبعة عشر مدرسة ودمرتها قبائل الشلك التي كانت تقيم في ذلك الوقت في منطقة النيل الأبيض ثم منطقة قرش عاصمة العبدلاب وما جاورها كالحلفاية وجزيرة توتي وشندي

وبربر وهؤلاء لموقعها التجارى فى طرق القوافل التجارية الآتية من دارفور وغرب السودان ومن سواكن ومصر .

وكذلك منطقة الشايقية التى أحيا بها العلوم أولاد جابر وأرض .... الدناقلة التى استفادت من علم الشايقية ثم بعد ذلك الدامر حيث نشر الصوفية حمد المجذوب ومنطقة السروريات حيث نشر السمانية الشيخ أحمد الطيب فى القرن الثامن عشر الذى كان عصر المجاذيب والسمانية .

• • •

الحركة الثقافيه قبل وبعد السلطنة السناريه

إذا أردنا البحث عن حال الثقافة العربية والاسلامية قبل وبعد السلطنة السنارية أى حتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادى فسوف نجد الجواب فى مخطوطه ودضيف الله فى حديثه عن تاريخ أربجى وسنار إذ يقول خطت مدينة سنار عام (٩١٠ هـ) خطاها الملكى عمارة ونقش وقد خطت مدينة أربجى (على الشاطىء الابمر للنيل الأزرق) قبلها بثلاثين عاما إى عام ٨٨٠ هـ. خطاها حجازى بن يعين ويقول ولم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن ، يقال إن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عده حتى قدم الشيخ محمود العركى راجل القصير العركى فى مصر وعلم الناس العدة وسكن البحر الأبيض وبنى له قصرا يعرف الآن بقصر محمود .

هذا يؤكد ما سقناه أولا أن حياة الترحال والبداوة والبعد عن المدينة وعن مصادر الدعوة والثقافة فى الجزيرة العربية عن هؤلاء العرب المسلمين أفقدتهم الكثير من تعاليم دينهم إذ لم تتهيأ لهم حتى ذلك الحين الظروف ... المستقرة لتطوير معارفهم وطلب المزيد مما عندهم بل كانت حياة التنقل والجفاف والمشاكل الكثيرة التى تعيش فيها القبيلة كفيله بمحو تلك التعاليم وتقابل تلك الروح الاسلامية التى إبتعدت عن أرض المسلمين ، وكانت كفيلة أيضا بمرور الأيام والسنين من ضياع كل ماحفظه الأوائل المهاجرون إلى السودان . إذ فقدوا أدوات التسجيل والكتابة وأبتعدوا عن موطن المدينة والحضارة وعادوا بحياتهم إلى الخلف أكثر مما وصلوا إليه . فخلال الستة أو الخمسة قرون من بداية دخول العرب السودان إلى أراضى جديدة وظروف غير مطمئنة قلت إهتمامهم بالتعاليم والأساليب الحضارية التى وجدوها حين خرجوا

من الجزيرة العربية فى العواصم العربيـــة الكبيرة وعلى المدن الكثيرة على النيـل .

كانت هذه الخمسة قرون خلال التجوال فى الصحارى والوديان وضفاف الانهار بحثاً عن مأوى أو مرعى كفيلة باذابة كثير من خصائص هؤلاء العرب الرحل ومحاولاتهم المستمرة للتأقلم على البيئة الجديدة ومحاولة التوفيق بين تعاليمهم وتقاليدهم وتعاليم وتقاليد الأرض الجديدة .. حتى وصلوا إلى درجة من الافلاس والتهاون بالتعاليم الدينية التى ابتعدوا عن مراكز اشعاعها أن يطلقوا المرأة ويزوجوها فى نفس اليوم .

كانت تلك القرون الخمسة مدنين تصفية لكل الأشياء الطبيعية التى أتى بها العرب وتركوها على ضفاف الوديان ورمال الصحارى وضفاف الانهار ومعارك القبائل والمجموعات الكثيرة وما بقى لهم من التعاليم الاسلامية والثقافية العربية أصبح يسير وتبتخر معظمه عندما جاء القرن السادس عشر كانوا أبعد الناس عن صورة المهاجرين الأوائل الذين لاقوا الكثير حتى يستقروا ويفتحوا الطريق للمهاجرين القادمين خلفهم .

والشىء الذى احتفظوا به هو روح الاسلام والايمان بالله : ولم يتهاونوا فى الايمـان بالله والاشراك به رغم انهم كانوا فقراء فى تعاليمهم الدينية وما استطاعوا أن يضيفوه للحياة السودانية خلال هذه الخمسة قرون هو الايمان بالله وبعض الفرائض الاسلامية ونشروا ذلك فى الأرض المسيحية والوثنية .

كانت الظروف الطبيعية هى التى حكمت على تعاليم العرب وحضارتهم بهذا

الانحدار فى بداية دخولهم إلى السودان فقد كانوا فى حياة معيشية أحسن بكثير من التى وجدوا أنفسهم فيها وكانوا وسط حضارة مدنية ووجدوا أنفسهم فى حياة شبه بدائية وعليهم أن يبدأوا من أول السلم للبحث عن مأوى والتفكير فى أساليب العيش فى هذه الأراضى الجديدة وتعلم أسرارها وقوانينها . . فقد كانوا فى حياة شبه مدنية وعادوا متخلفة فى أول سلم الحياة البدوية والفارق كبير بين مقومات تلك المدنية وأساليبها وبين الحياة البدوية شبه البدائية التى وجدوا أنفسهم فيها فهذا التخلف الذى انحدروا اليه كان لابد أن تكون له عوامل إيجابية لامتصاص أكثر مقومات الحياة المدنية القديمة حتى يتطبعوا على الحياة البدائية الجديدة .

ونحن لانلوم العرب ولانلوم التاريخ إنما قضت الظروف الاقتصادية لتلك المجموعات أن تنحدر إلى الخلف بتخلف الأساليب الاقتصادية والمعيشية .

هنالك عامل آخر يجب أن نضيفه إلى هذه العوامل وهو طبيعة الجماعات البدوية . . . فرغم محاولتها للاستقرار لكنها لاتستطيع أن تنشد ذلك الاستقرار وتتمتع به . . . فقد تطبعت القبائل على المشاحنات والقتال وهى فى بحثها عن الاستقرار كانت تخلق عدم الاستقرار لمجموعات أخرى فهى لكى تستقر كان عليها أن تبعد مجموعة أو مجموعات من المكان الذى تود أن تستقر فيه . . . ولو استطاعت ذلك لظهرت مجموعة أقوى لابعادها عن هذا المكان . . . وهى فى طبيعتها لاتقتنع بالهزيمة ولاتنسى ، ولذلك تسبب القلق لمن خلق لها القلق وعدم الاستقرار .

وعندما جاء القرن الخامس عشر الميلادى كانت قد تكونت مجموعتين

كبيرتين خطرتين فى أخصب مناطق السودان . . هى منطقة النيل الازرق . وشمال ملتقى النيلين . . . . سكنت هاتين المنطقتين مجموعتين عرفناهما فيما بعد بمجموعة العبدلاب نسبة لعبد الله جماع رئيس هذه المجموعة فى نهاية القرن الخامس عشر والمجموعة الأخرى بمجموعة الفونج ورئيسها عمارة دونقس احتلت الاولى منطقة ملتقى النيلين وشماله وجزء من النيل الازرق واحتلت المجموعة الثانية الجزء الشرقى للنيل الازرق وروافده .

كانت منطقة النيل الازرق والجزيرة وشمال ملتقى النيلين من أخصب المناطق السودانية . . . واتاحت بمساحاتها الشاسعة الغنية الفرص لهذه المجموعات المتنقلة المتنافرة أن تستريح . . وكانت هذه الراحة بداية الحياة الجديدة فى تاريخ المجتمع السودانى اذ هيأت لهذه المجموعات ان تتكاثر وان تنمو وان تتحد وان تشارك فى الحياة وبنائها وكان من الطبيعى ان تظهر زعامات لهذه المجموعات التى سكنت الاراضى الخصبة الغنية . . . وعرفنا من المخطوطات عبد الله جماع زعيم العبدلاب وعمارة دونقس زعيم الفونج .

للحياة المستقرة فوائدها وخيراتها وللجماعات المستقرة نشاطاتها واهتماماتها وما أن استقرت القبائل واطمأنت لما حولها إلا وبدأت تبحث وتنشط . . . . وكان هنالك طريق يغرى للنشاط والحركة . . وهو طريق القوافل التجارية بين مصر وغرب السودان والبحر الاحمر . . .

إستقرت هذه المجموعات وكثرت خيراتها ومواردها وبدأت تبحث عن أساليب المدنية . فالتجارة أحد الطرق لاستجلاب مظاهر المدنية مادام يتيسر

الحال وأرتاحت القبائل وزاد دخل الفرد وكثرت ماشيته وزرعه وكان أكثر الناس إستعدادا لهذه المهمة هم رؤساء القبائل لما عرفوا به من أنهم أغنى مجموعاتهم فى أغلب الاحيان .

وشارك زعماء المجموعتين فى تيسير هذه التجارة مع البحر الاحمر ومصر وغرب السودان يقايضون بمحصولاتهم وماشيتهم على منتجات مصر والبلدان الاخرى .

أغرى هذا النشاط زعماء المجموعتين للاتحاد وفرض سيطرتهم على كل المجموعات التى تسكن النيلين والسهول والوديان حتى يضمنوا خضوع تلك المجموعات التى تمر قوافلهم التجارية بها . وحتى يكونوا هم حراسا لهذه القوافل ومسئولين عن سلامتها داخل أراضيهم ...

وجاء عام ٩١٠ هـ معلنا بداية حياة جديدة فى حياة الجماعات التى تسكن السودان باتحاد العبد لاب وتكوين السلطنة السنارية وأعطاء الملك لعمارة دونقس وأمارة الشمال لعبد الله جماع الذى جعل عاصمته مدينة قرى شمال الحلفاية .

وإذا نحن حاولنا أن نعرف شيئاً عن تاريخ هذه السلطنة فى المؤلفات التاريخية العديدة التى كتبت فسوف تدور فى حلقة مفرغة كما يقولون ورغم المجهودات المشكورة التى قام بها بعض الاشخاص الجادين على كشف تاريخ السودان فقد كانت كل محاولة منهم هى فى الحقيقة فتح باب جديد للخلاف والشك وأدخال القارىء أو الباحث فى شبكة من المغالطات حتى بات كتاب

تاريخ هذه الحقبة معطلة أمام كل باحث ومؤرخ لكثرة الروايات واختلافها ونقصانها وعدم وجود مصادر كاملة حقيقية فكل الروايات المنقولة بواسطة المخطوطات السودانية أو بواسطة الرحالة إلا جانب الذين زاروا السودان فى القرن السابع عشر والثامن عشر لا توافق أى منها الاخرى فكل مخطوطه أورواية منقولة بواسطة الرحالة الاجانب تختلف عن الاخرى.

ولو إلقينا نظرة فاحصة على جدول تاريخ ملوك هذه السلطنة الذى جمعه الاستاذ شاطر البصيلى عن مؤلفات بروس وكايو وكاتب الشوقة وبركهاردت ونعوم شقير وفات على الاستاذ شاطر البصيلى أن يستفيد من تاريخ إبراهيم الصديق الذى اثبته فى هامش مخطوطه ودضيف الله لو إلقينا نظرة على هذا الكشف لما وجدنا أى أتفاق بين الخمسة المؤرخين حتى فى سنين حكم السلاطين ماعدا أثنين هما أسماعيل ولانفى فانظر التاريخ سلطنة بها ثلاثون ملكا لم نستطيع حتى الآن أن

نقدما الكتابات التى وصلت إلينا منهم على الاتفاق على نصف الحقيقة أو بعضها ولكن الأمر كلما وصلنا مع أحدهم يبتعد عن الاخر مسافة بعيدة ويترك حيرة وتعبا للباحث والمحقق حتى بات أهل التاريخ ينتظرون معجزة من السماء لتكمل لهم هذا اللغز أو أن تخرج لهم الارض بعض المخطوطات المدفونة ولكننا نستطيع إن ننصحهم بأنهم لن يجدوا شيئا من ذلك لو أطلعوا على مقدمة ودضيف حيث يقول (فقد سألنى جماعة من الاخوان أفاض الله علينا وعليهم سحايب الاحسان وأسكننا وأياهم أعلى الفراديس الجنان بحرمة سيد ولد عدنان أن أورخ لهم ملك السودان واذكر فيه من الاعيان فاجبت سؤالهم بعد الاستخارة الواردة فى السنة وبعد الالهام مع أنه لم يكن لاسلافنا وأسلافهم وضع فى هذا الشأن إلا أن أخبارهم متوافرة عن الخاص والعام منها مابلغ حد التواتر عندهم فأجبت

أن أذكر ماتواتر وأشتهر من تلك الاخبار وذلك وأن الخبر المتواتر عن الاصوليين من الاقسام اليقينيه التي تفيد العلم بالشيء وتنفي عنه الشك والظن والوهم .

فاذا أطلعوا على هذا الجزء لاقتنعوا وبحثوا في توسيع الخلاف لان عملية التقارب أصبحت شبه مستحيلة إلا إذا تحصلوا على مخطوطات جديدة وهذه المخطوطات الجديدة لن تكون قبل مخطوطه ودضيف الله إذ أثبت لنا دون أن يفيض في الحديث عن نفسه ومؤلفة عن حالة الدراسات في القرن الثامن عشر والسابع عشر والسادس عشر ... وهذا موضوع آخر سنأتي إليه عن تطور الحركة الثقافية خلال الحكم السناري ولكنه قد رحم إعصاب الباحثين عن الكف عن البحث عن مخطوطات قديمة قبل مخطوطته هذا الموضوع .

أما فيما يختص بهذه الدراسات وإلى أي جانب تنحاز فأننا نحاز إلى محمود إبراهيم الصديق الذي لم يطلع عليه كتاب هذا التاريخ وهو التاريخ الذي أثبته على هامش مخطوطه ودضيف الله والذي ظنوه ضمن الحوادث التي تملأ الكتاب وقد إعتمدنا على تاريخ هذه المخطوطة لاعتبارات كثيرة ليس أحدها زيادة قلق الباحثين والذين سبقوا وكتبوا تاريخ هذه السلطنه أو لتوسيع الشقة الواسعة من قبل (وزيادة الطين بلة) كما يقولون وإنما لأن هذا التاريخ حسب وجهة نظرنا أكثر التواريخ تحقيقاً وإعتماداً على المصادر المحلية والمخطوطات العديدة التي تيسرت لابراهيم الصديق للاطلاع عليها ولم يتيسر للآخرين .

فاذا تابعنا مقدمة إبراهيم الصديق ومجهوداته الذي بذلها لتحقيق هذه المخطوطة وإطلاعه على عدة مخطوطات محلية منها المخطوطة الموجودة عن

الشيخ خوجلي الخليفة محى الدين بن الخليفة الأمين ونسخة الشيخ أحمد البدوى محمد الدولاب الكردفانى ونسخته الخليفة حسب الرسول ونسخة المستر هللسون مدير التاريخ سابقا بكلية غردون ونسخة عمدة توتى الشيخ أحمد إبراهيم عاير ونسخة الشيخ أحمد عيسى وداد من أهالى بلدة مدنى .

هذا المجهود والاعتماد على مصادر محلية عديدة ورغبة المحقق فى إخراج هذا العمل كاملا يجعلنا نحترم مجهوده ونقدره ونقف بجانب مجهوداته التى لم يقف عندها جميع المؤرخين .

• ••••• •

الصوفيه والديانيات الافريقيه

لاتنفصل الصوفيه الحقه عن الحركة العلميه بين المجموعات التى تنتشر بينهم فأذا إستطعنا أن نقتنع بأن الصوفيه هى حركة علميه فى بدايتها لتطوير علم التوحيد لأستطعنا أن ندرك أتجاهات أى حركة صوفيه ظهرت فى البلدان العربيه بعد معرفة نهضتها العلميه والثقافيه .

وأول سؤال نستطيع أن نسأله عن الحركة الصوفيه فى السودان ، علينا أن نسأل عن الحركة العلمية والثقافيه فى السودان وهل كان فى إمكانها إحتضان هذه الحركة الصوفيه العلميه الاحتضان السليم والسير بها نحو الكمال أم ان الظروف العلميه والثقافيه كانت فى مستوى أدنى من إحتضان هذه الحركة مما مهد للانحراف فيها

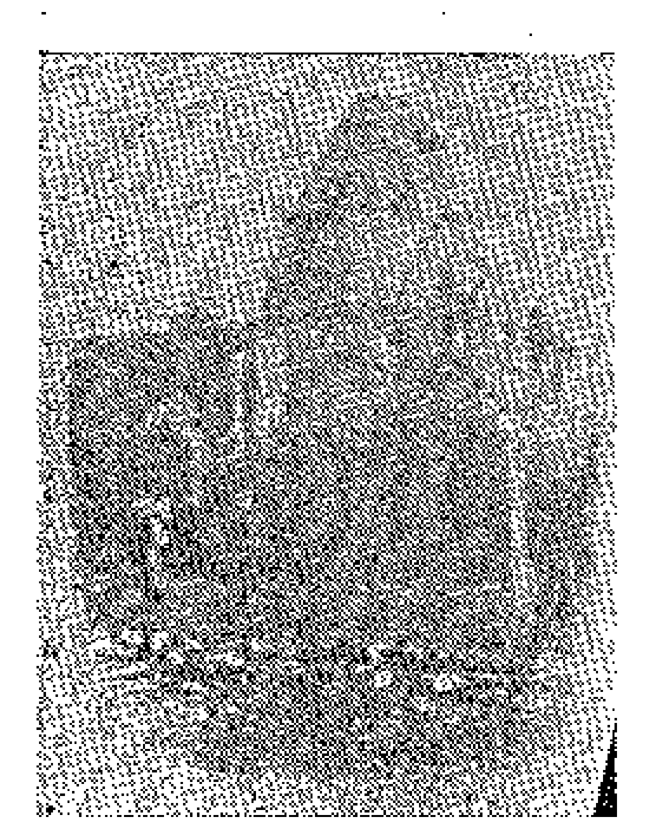
يجب علينا أن نقيم الحركة الصوفيه فى السودان التقييم العلمى الصحيح لأن هذه الحركة دخلت السودان منذ القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادى وأنتشرت فى السودان بشكل ملحوظ وكان لها أثر كبير على الجماعات والافراد ومازالت توجه حتى اليوم الكثير من افكارنا وثقافتنا ولها أثر كبير فى معتقداتنا واخلاقنا وطباعنا وتطلعاتنا . فأذا إستطعنا أن نقيم المجتمع السودانى حين دخول الصوفيه وخط سير هذه الصوفيه بالنسبة لظروف المجتمع التى وجدت نفسها فيه نستطيع أن نقتنع بأرتياح مسيره هذه الصوفيه ان كان نحو الكمال أو نحو الانحراف .

وإذا أردنا أن نبحث عن الظروف العلميه والهضة الفكريه التى تستطيع

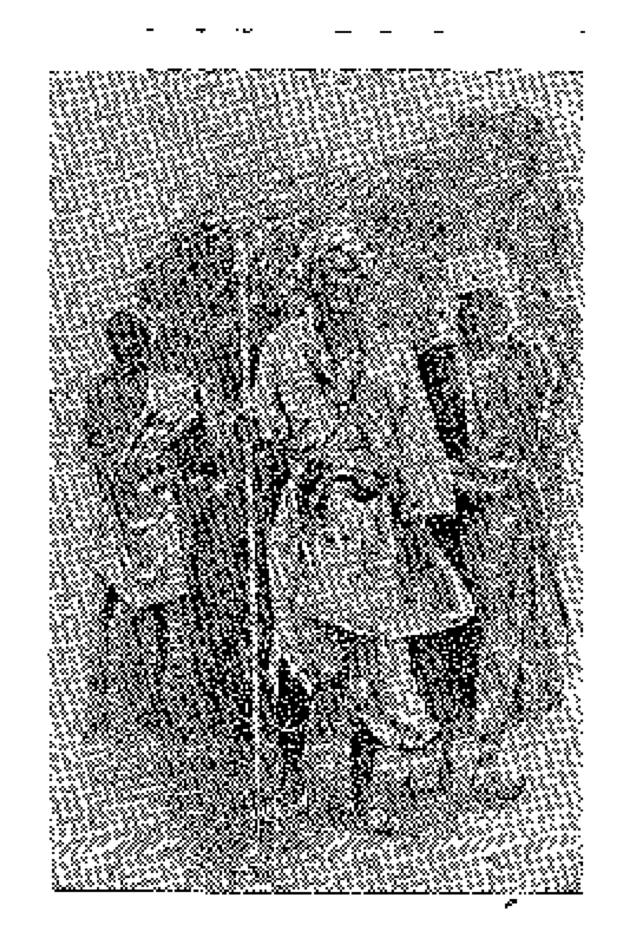
أن تحفظ هذه الحركة من الانتكاسة والاتجاه بها أتجاهات غريبه . فالجواب لايحتاج إلى أدله كثيره .. فيكفي أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر لم تكن بالسودان مدرسة قرآن واحده ، حيث وقف انتشار التعاليم الاسلاميه حتى أفلست الجماعات المسلمه من أدراك تعاليم الدين ولانود أن نستشهد بادله أستشهدنا بها في مكان آخر ، وما نستطيع أن نقوله أن حركة العلم حتى نهاية القرن التاسع عشر لم تكن في المستوى الذى يستطيع أن يناقش ويهضم ويتطور علم التوحيد الذى هو أساس الصوفيه (حديث أبو القاسم الجنيد صفحة ٢٢٢ يشير الى هذا المعنى)

فاذا إردنا أن نمسح الحركة العلمية في السودان فلن نجد غير بعض الكتاتيب (الخلاوى) التى أنشأت بمجهودات فردية على يد الشيخ إبراهيم البولاد المصرى بدار الشايقيه ثم الشيخ محمود راجل القصير بالنيل الأبيض والمعلم الأول الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى الذى دخلت الصوفيه للسودان على يديه في القرن السادس عشر ميلاديه تاريخ مملكة سنار (النصف الثانى من القرن العاشر) الهجرى كما جاء في تاريخ حياته في عهد الشيخ عجيب الذى تتلمذ على يديه وحجازى بن معين من أربجى .

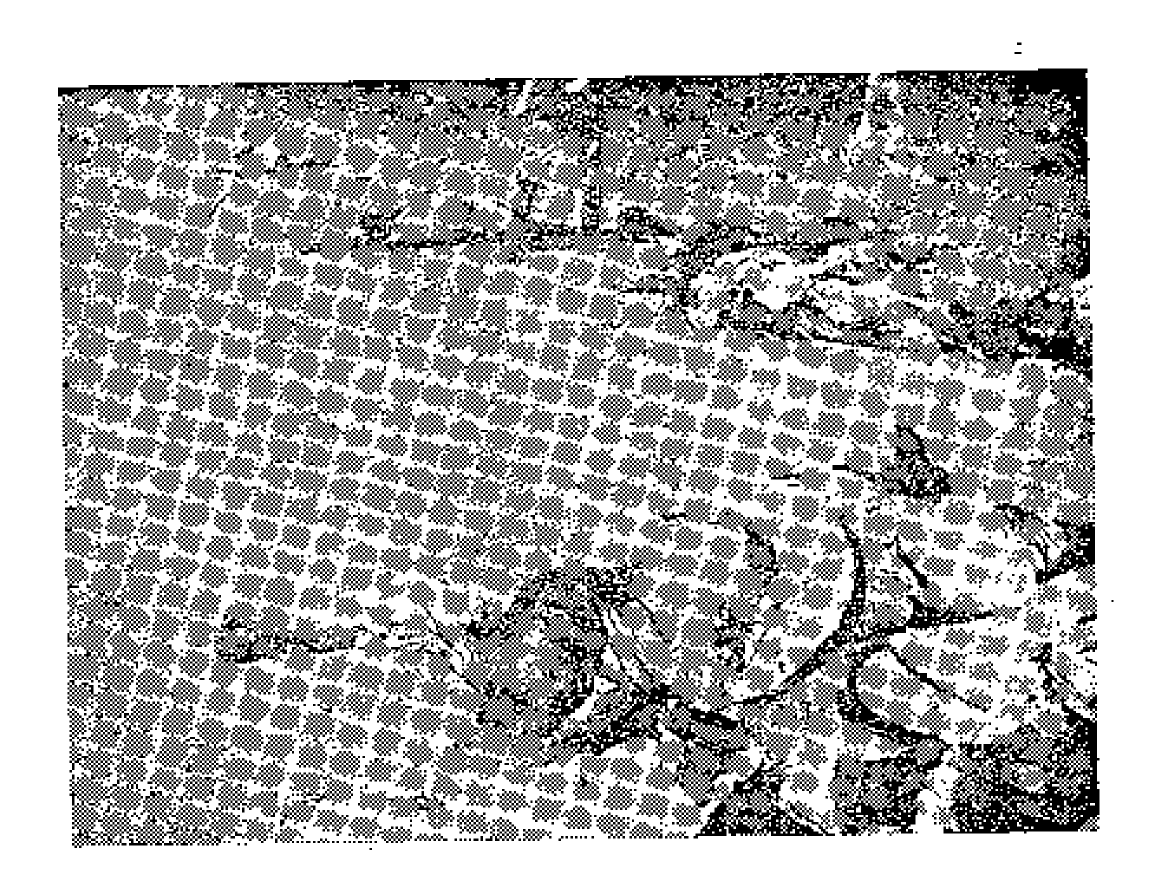
فقد ارتبط إسم تاج الدين البهارى بأسم الشيخ حجازى بن معين الذى خط مدينة أربجى عام ٨٨٠ هـ ونلجأ إلى افتراض واحد وهو أن الشيخ حجازى بن معين كان من المعمرين لان حضور الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى كان بعد عام ٩٦٠ هـ أى حضر بعد ثمانين عاما ويعنى ذلك أن بناء حجازى بن معين لمدينة أربجى كان بعد ثمانين عاما ويعنى ذلك أيضا أنه شيد أربجى وعمره لا يقل عن الثلاثين عاما وحين تتلمذ على يد تاج الدين البهارى كان عمره فوق المائة ثم شيد مسجد أربجى بعد ذلك في أول النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى .



قبة المهدى . . . صباح اليوم
الثانى من معركة يوم ١٨٩٨/٩/٢
قصد بتهديمها لادخال الرعب فى
قلوب الدراويش
الصورة تحكى أثر الروح الصوفية
ومقاومة العلم لتلك الروح التى
وحدت نصار المهدى خلفه



العرب فى كردفان بعد
سلطنة دار فور وتأثرهم بسكان
وسط أفريقيا

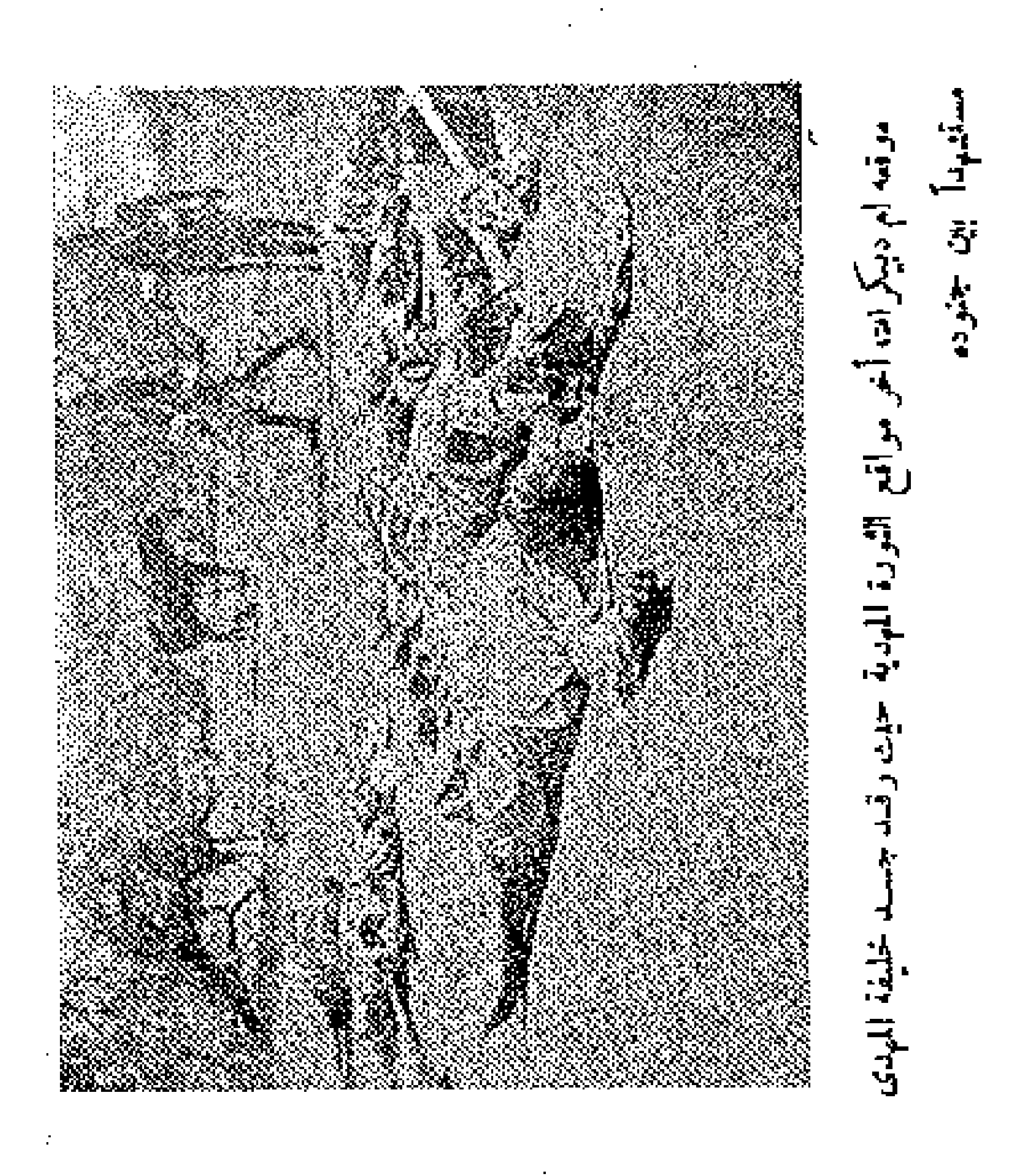


نهاية الثورة المهدية التى قاومت الأسلحة الحديثة بالإيمان والتضحية بالروح ، مخلفة أبلغ صور البطولة الصوفية .



صورة من صور الاستشهاد الروحي ومقاومة الاستعمار وامكانيات العلم الحديث .

في سعادة وطمأنينة رقد جسد البطل الامير أحمد فضيل .



موقعة أم دبيكرات آخر مواقع الثورة المهدية حيث رقد جسد خليفة المهدى
مستشهداً بين جنوده

هذا يكشف لنا أن الشيخ حجازى بن معين حين خط مدينة أربجى كان من اغنى رجال مجموعته الأمر الذى مكنه من أنشاء هذه المدينه ويؤكد لنا ذلك دعوة الشيخ تاج الدين البهارى له بالغنى لذريته من بعـــده وهى ذريه كبيره لاشك وقد عرف الغنى أكثر ماعرف عنه رجل دين وأن كان قد بنا أول جامع وهو جامع اربجى فلايعنى ذلك أنه كان أكثر الناس صلاحا وورعا . . . فقد كان مركزه المالى والاجتماعى يفرض عليه أن يقوم بمثل هذا العمل الاجتماعى . .

من ماتقدم يثبت لنا أن العلم والصوفيه دخلوا سويا للسودان فى القرن السادس عشر الميلادى على يد الشيخ تاج الدين البهارى الذى حين جاء لم يجد كتاتيب أو خلاوى إننا وجد الأستعداد الكبير للمعرفة وفى فترة وجوده بالسودان علم الدين من الشيوخ الذى أنتشروا فى أراضى السودان وقاموا برسالته .

وإذا أردنا أن نجد صورة للصوفى الذى نشأ فى السودان فلن نجد تلك الصورة وذلك الصوفى الأول الذى عاش فى بغداد وسط الحضارة العربيه والعلوم وكرس حياته للعلوم والمناقشات العلميه والفلسفيه ومسائل الوجود والعدم والقدم والحدث وأنما سنجد صوره قاضى العداله والصراع بين رجل العلم والشريعه وبين الصورة الجديدة التى ظهرت فى السودان لرجل الصوفيه فى شخصيه الشيخ الهميم .

وتحكى القصه أن دشين قاضى العداله المولود بأربجى أحد الاربعه قضاة الذين ولاهم الشيخ عجيب تلميذ الشيخ تاج الدين البهارى بأمر المالك دكين حين قدومه من المشرق ويبدو أنه يعنى بالمشرق الحجاز وما رآه فى المجتمع الاسلامى فى

الجزيرة العربيه ووجوب قيام مثل هذه الوظائف ليحكم فى الناس بالشريعه وهم أول قضاه فى السودان .

ولى الشيخ دشين قاضيا على أربجى والشاذمية عموماً . ومارس هذا العمل حسب الشريعه وقد إستعظم فى أثناء حكمه شخصية من الشخصيات الصوفية الغريبه التى ظهرت فى السودان . وهى شخصية الشيخ الهميم الذى يقال أنه فى حالة انجذاب تزوج أكثر مما سمح به الشرع أى زاد على أربعة نساء فى وقت واحد (والقصة فى جانب تكشف بأن الذين رضوا أن يزوجوه من نسائهم بعد الأربعة كانوا ولا يفقهون شيئاً فى دينهم ، ولم يقف الجامع ضد هذه العمليه المنافيه للدين . . وبجانب فقد تزوج أختين من بنات أبو تدريده من رفاعه مخالفاً بذلك الشريعه فى نكاح الأختين فى آن واحد ، كما جمع بين بنات الشيخ بأن النقا الضرير كلتوم وخادم الله . وبأن النقا رجل أخذ الصوفيه على يد تاج الدين البهارى وأخوه سندال العاج كبير الفونج ورغم ذلك زوج الشيخ محمد الهميم أخواته الاثنين فى آن واحد .

وتبدأ القصه حين قدم الشيخ محمد الهميم إلى أربجى يوم الجمعه وحضر الصلاه بالجامع . وعند انتهاء الصلاه خرج دشين قاضى العداله وصادف محمد الهميم وقبض على لجام فرسه وقال له خمست وسدست وسبعت ما كفاك حتى تجمع بين الأختين فقال له الهميم ماذا تريد . فرد عليه دشين أريد أن افسخ نكاحك لأنك خالفت كتاب الله ورسوله وسنه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له الرسول اذن لى والشيخ ادريس ليعلم . . وكان الشيخ أدريس حاضرا فقال لدشين اترك أمره وخله ما بينه وبين ربه فقال دشين مايهمل أمره وقد فسخت نكاحه فما كان من الشيخ محمد الهميم إلا أن دعى على دشين وقال له فسخ الله جلدك .

ويقال أن دشين مرض بعد ذلك وعللها البعض انها دعوة الشيخ محمد الهميم إلا أنه لم يؤد الا إيمانا ويقينا بعدالة الشرع حتى جاء فرح ولد تكتوك وقال فيه .

ود دشين قاضي العداله   الما بيعمل الضلاله
نسله نعـــم السلاله   الا وقدوا نار الرساله

هذه صوره رجل أدعى انه صوفي وصالح وخرج على تعاليم الدين ولم يستطيع إى شخص ان يقف امامه وذلك لأن الصوفيه أدخلت في عقول الناس أنهم أولياء الله وانهم يستطيعون أن يضروا البشر وما يقولونه من دعوات نافذ في البشر . وانطبعت صورتهم في ذهن الناس بأنه صاحب العقاب الرادع وكاشفة الاسرار مع أن الصوفيه الأوائل لم تظهر عليهم هذه العلامات وهذا الاتجاه نحو مضرة الآخرين والانتقام منهم والدعاء عليهم بالمصير السيء . . . وهذا الاعتقاد له مبرراته إذا إستطعنا أن نجد دور الشخصيات الدينيه في السودان قبل ظهور الاسلام والعرب وإنتقال إمكانيات تلك الشخصيات إلى شخصيات جديده في ثوب جديد .

وجد تاج الدين البهاري حين قدومه السودان بعد أن ترك بغداد حاجاً . ويبدو أن حضوره للسودان كان بناء على دعوة إحد رجال السودان الميسورين وطلبه منهم أن يخدم الاسلام بنشر العـــلوم الاسلاميه بين إولائك المتعطشين لهذه العلوم . . . . . . ولقى الشيخ تاج الدين البهاري كل ترحيب وتقدير لما للشخصيه البدويه من مكانه عند هؤلاء الرجال ، كما كان يمثل هذا العالم من معارف وما يحفظه من علوم لم تصل لسكان السودان في تلك الحقبه فكانت مثل هذه

الشخصية ومالها من علم تلفت الأنظار وتبهر العقول إذا من صفات العلم والمعرفه أن يخلق الاندهاش عند الجاهل إذ يعطيه العالم بعض الحقائق البسيطه القريبة منه ولايستطيع أن يتوصل اليها ويعطيه الحلول للأشياء التى تورق العقل الانسانى إذ من صفات العقل أن لايكف عن التساؤل والبحث . والخيال المجرد يضع العقل فى حيره والمعرفة تريح العقل من هذه الحيرة والقلق .

جاء تاج الدين البهارى وبذر بذرتين . أحدهما تشجيع القراءة ونشر العلوم الدينية وحفظ القرآن والاخرى نشر فكرة الصوفيه . وقد وجد الشيخ تاج الدين البهارى أرضاً غير صالحه لدعوته الصوفيه الأمر الذى جعل دعوته الصوفيه لاتقوم على أسس علميه سليمه بل أخذت من ملامح الشخصيات الدينيه القديمة التى سنتحدث عنها فيما بعد وهى الديانات الأفريقية وخاصة الشخصيات الدينيه فى غرب أفريقيا والعبادات الفرعونية والرومان . إذ كانت كل هذه الشخصيات غامضة تحيط بها هاله من الغموض والاسرار بعيده عن إدراك عامة الناس الأمر الذى وضع بقية الناس ينظرون اليها نظرة غريبة فيها كثير من الحيرة والدهشة فشخصية الكاهن الفرعونى كانت غامضة بالنسبه لبقية الناس وقد سلموا له عقولهم وامنوا بكل حركاته وتصرفاته ثم شخصية الكاهن وصورته المتواضعه الجديدة وحضور الناس اليه وتقديم الاعترافات له .

لم تجد صوفية تاج الدين البهارى وبقية المدارس التى دخلت لم تجد العلم الكافى للوقوف ضد الانحرافات بالدين بل أننا نجد فى كثير من تصرفات رجال الصوفية من يدعى المعجزات التى هى خاصة بالانبياء وحدهم . . . . — واننا نجد مثل الكاتب ووصيف الله لايفكر لمثل هذا الانحرافات بل يثبت لنا فى مخطوطاته مثل هذه المعجزات دون ان يعلق عليها ولايستطيع ويفرق بين ماهو مساير للشرع ومخالف له .

لايمكن لنا بأى حال من الاحوال إذا إردنا أن تدرس الشخصيات الدينيه الاسلاميه بعد دخول العرب ودخول الثقافة العربيه والاسلامية وبدايه دخول العلوم العربيه فى أوائل القرن السادس عشر علينا أن نتتبع الشخصيات الدينيه القديمة التى عاشت فى النيل وفى إفريقيا ونحن نرى حتى اليوم شيء فى أثار تلك الشخصيات الدينيه القديمه فى إعمال السحر والشعوذه وإعتقاد الناس فى بعض الشخصيات فى شفاء الناس عن طريق التعاون القديمة وإيمان الناس فى قدرة بعض جذوع الأشجار على شفاء بعض الامراض وقدره بعضها على الحاق كثير من الأذى وقدرة الناس على التشكل بأشكال الحيوانات وكل هذه المعتقدات التى مازال يعيش بعضها فى بعض القرى هى بقايا من تلك العادات الدينيه القديمه التى عاشت على النيل وعند قبائل الداجو وقبائل اعالى النيل وكماهو واقع لم تحدث عليه تصفيه حتى الآن للعادات والمعتقدات الدينيه القديمه والصور الدينيه التى عاشت فى أفريقيا . إنما حدثت عمليه مصالحه وأمتزاج بين العادات والتقاليد والمعتقدات الدينيه الوثنيه العادات المسيحية والاسلاميه لان العرب المسلمين الذين دخلوا السودان لم يدخلوا فاتحين أقوياء يفرضون سيطرتهم ومعتقداتهم على السكان إنما كانوا طالبين ملجأ ومأوى اذا لم يكونوا فى مركز يسمح لهم بمحاربه معتقدات الأهالى إنما حدث التوافق بين الاثنين قبل هؤلاء من السكان بعض العادات التى لاتمس رجولتهم وعاداتهم العربية وقبل السكان من العرب التقاليد والعادات التى لاتقسو على ماضيهم الدينى وقد كانت عمليه فيها شيء من اللين والمصالحه لخلق بيئه جديدة ترغب فى العيش فى سلام . . . ويبدوا أن تعدد المعتقدات الدينيه فى السودان من وثنيه إفريقيه وفرعونيه ومسيحيه جعل إضافه معتقدات دينية جديده من المجموعات جديده أمر مقبول إذ لم تحدث عملية نوعية لمحاربة المعتقدات القديمة أو صراع حاد والتقدم الدينى الذى حدث حدث تدريجياً وبطيئاً . .

وإذا حاولنا أن نبحث عن بعض الشخصيات الدينيه اليوم التي تمارس بعض الأعمال القديمه التي كان يقوم بها رجال الدين عن قبائل الداجو سكان وسط إفريقيا منها شخصيه (الكجور) التي تدعي اليوم أنها تمارس هذه الأعمال من وحي التعاليم الاسلاميه ومما أضافته للشخصيه القديمه بعض إمكانيات الدين. فالكجور مازال يستعمل الوسائل الدينيه القديمه لعلاج بعض الامراض ومازال الناس يعتقدون في بعض هذه الأعمال ومما شاهدته من أعمال هذه الشخصيه حين مرضت إمرأه أحضر لها هذا الكجور وأحضر معه مقشه (ونخسه) وكوكاب وحربه وقال للمريضة أن هنالك عملا سحريا قد عمل لها وأن بجسمها بعض العروق السامه التي غرست في جسمها وأجلس المريضه بعد أن كشف عن جسمها الأعلى وصار يضرب بالمقشه على جسمها وظهرها وتساقطت قطع صغيره من عروق الشجر ثم صار يمص على مواضع معينه في جسمها ويخرج من فمه بعض العروق الرطبه موهماً المريضه أن هذه العروق كانت بجسمها. وفي أثناء ذلك كان يستعمل بعض التعاويذ الافريقية القديمه وبعض الآيات القرآنيه. ثم بعد على النخسه ووضع الحربة والكوكاب على جسم المريضه وصار يقوم ببعض الحركات ويرتل التعاويذ القديمة ثم بعد برهه فتح النخسه وأخرج منها بعض العظام القديمه وبعض الشعر وبعض الاسلاك وبعد ذلك شعرت المريضه بالراحه والقوه وكل هذه الاشياء التي قال إنها كانت في جسم المريضه هي نفس الأشياء التي كان يعتقد فيها سكان إفريقيا ويقدم بها رجال الدين وسحره إفريقيا ولو راجعنا كتاب « هو بيرد يمان » عن الديانات في أفريقيا السوداء رغم مافيه من الأخطاء الكثيره وبعد الكاتب عن حياه أفريقيا وعدم إستطاعته الالمام بحقائق حياه الشعوب الافريقيه إلا أنه يعطينا صوره

حليه للمعتقدات القديمه عند قبائل الداجو وأعالى النيل والكيكويو بكينيا والسواحيلى بتانجانيقا والباكنجو والباسوتو والسوازى بجنوب إفريقيا والهوتنتوت والدمارا بجنوب غرب إفريقيا والبوشمان بهضبة أفريقيا واللوندا بانقو والبالاى بنهر الكنغو وكذلك الأزنده والباندا والمانجا إلا فيموندو بجنوب غرب أفريقيا والكانورى والهوزا والباوتشى واليوربا ولا بانجى والشارى الباجيكه بوسط أفريقيـــا والاشانتى ويبجون والتوجو والفتى والخاجو والديدا والمندى والجنداتج والتوكابر والألوف والباوله والسومنهارى بغرب حوض النيجر .

إنتشرت الديانات الافريقية القديمة والسحريه بين كل هذه القبائل وخاصه فى وسط إفريقيا وعرفها سكان السودان قبـل الحضاره الاسلامية والمسيحية وتمشت تلك الديانات مع الوثنيه الفرعونيـــه فانتشرت فى ربوع السودان ولازمت ومـــ الحضارة الفرعونيه إلا أن مركزها الأصلى كان جنوب أرضى الجزيره بين قبائل الشكل وأعالى النيل وغرب السودان وقبائل الداجو والتنجور والكنجاره والبراجوب .

وقد بدأت الديانات الوثنية وتصاحبها فكرة السحر لحاجة الانسان لفهم الطبيعه وفهم غرائبها .. وقد إستغل بعض الافراد الموهوبين أو الذين أعطتهم الطبيعة بعد القدرات الخارقه للأحساس بخفايا النفوس ويتولوا تفسير تساؤلات الناس عن الطبيعة وعن الجهاد والأمراض .... وقد اختص بعض الملوك ببعض هذه الصفات وجند بعضهم بعض الموهوبين للقيام بهذا الدور فى معرفة إمراض الناس وخفايا تفكيرهم ونفوسهم وقد إستطاعوا بأعتقاد الناس لقدراتهم أن ينجحوا لحد بعيد فى تهدئه كثير من الحالات أن كان بالتأثير النفسى أو الخداع أو العقاقير

المستخرجه من النباتات أو إستعمال التعاويذ وقد ساعد على إنتشار هذه العادات أستعداد الناس لتقبلها وخوفهم من معارضتها أو الوقوف أمام السحره اذ امو العين وقد أثبتت الدراسات أن الديانات الافريقية الأولى لاتختلف كثيراً عن ديانه الفراعنه أو الإغريق فكثير من الرموز متقاربه حيث تتشابه الحياه الزراعيه والرعويه في كل من النيل واليونان وعند القبائل الافريقيه ولذلك كان وجه الشبه بين هذه الديانات أمراً طبيعياً لتشابه الظروف الطبيعيه والمعيشيه. إلا أن القبائل الافريقيه أختصت بتعدد الآله والعبادات وذلك لتعدد القبائل وعدم خضوع هذه القبائل لسلطان واحد تعطيه كل السلطات الدينية والاجتماعية، كما كان عند الفراعنه كما أعطى هذا التعدد للأفراد الافريقيين كثيراً من الحريه وكان بأستطاعتهم التقدم والتطور أكثر من الشعوب الأخرى التي صنعت حضاره النيل والاغريق والرمان إلا إلا النظام الاجتماعي والاقتصادي الفردي حد في توحيد إقتصاد القبائل الافريقية في حين سخر الإمكانيات الاقتصادية في النظام الملكي الفرعوني أوالنظام الاجتماعي الاغريقي والروماني إلى إحترام الدوله والرؤساء والأبطال إلى تجنيد كل إمكانيات تلك الشعوب لصالح تلك الحضارات التي تمت على شمال وشرق وجنوب والبحر الأبيض المتوسط.

ونحن لانستطيع أن نفصل الديانات التي قامت في السودان عن الديانات الوثنيه إذلم تقم أي منها حتى الآن بحمله منظمه لطرد بقايا تلك الأديان الوثنيه القديمة التي إشتركت في عبادات جماعيه للطبيعه وتقديس للحيوان والاعتراف بسلطان بعض الافراد على فهم أسرار الطبيعه والقيام بدور الراهب والساحر ونحن نرى ذلك واضحاً في الصوفيه وطقوسها التي لاتختلف كثيراً عن الطقوس الأفريقية القديمه كما أخذ بعض منهم فكرة التسلط والحاق الأذى بالغير وأستعمال التعاويذ لعلاج الامراض أو إلحاق الضرر بالغير إذا علمنا إن هؤلاء

الاشخاص إن كانوا من الكهنه أو السحره الافريقيين أو رجال الصوفيه الذين قلدوا شخصياتهم وادركوا الضعف الاجتماعى العام للتصدى لهم . ونحن لانستطيع حتى الان أن يجعل بعضهم يعترف بسر مهنة سر هذه الثقه وهذه المقدره للنجاح فى بعض الامور وهى لاشك اتت عن طريق رياضه روحيه قاسيه وتعاليم معقده وتراتيل سريه خاصه تعتقد بآله للشر وآله للخير وأن هنا لك أسرارا يستطعون بها التوصل إلى آله الشر واله الخير. وقد إحتلت عبادة الحيوانات جزاء بين عبا داتهم لتمساح والثعبان كما كان يعبد الفراعنه القطه والنسر والصقر وأنواع عديده من الحيوانات .

نشأة الصوفية فى الاســـلام

الصوفية هى مذهب المجتهدين من العلماء المسلمين فى حقائق الكون وارجاع كل شيء إلى خالق واحد هو الله سبحانه وتعالى مالك الملك . مذهب الصوفية هو علم للتوحيد . . وعلم التوحيد لايقوم على الرؤيا الجاهلة أو الوهم إنما يقوم على الحقائق وكشف أسرار الوجود وربط كل شيء بخالقه .

هذا هو مذهب الصوفية الأوائل الاجتهاد فى علم التوحيد ، . . . التزود بالعلم والمعرفة بحقائق الحياة ، وامتحان كل حقائق الوجود ، ولايقوم هذا الامتحان وهذا الكشف بمجرد الرؤيا ، أو الوهم ، وإنما يقوم على الدراسة ، الدراسة التى تشبه التحليلات المعملية لاثبات صحة الحقائق واستخلاص النتائج السليمة وهو أعلى مستوى من العلوم الاسلامية إذ يتطلب من طالب علم التوحيد ، أن يكون ملما بكل معارف الوجود بالفلسفة والطب وعلم الفلك والرياضيات وسائر العلوم الاولية حتى يستطيع أن يرد على كل سائل وعلى كل صاحب رأى مخالف بالاقناع ، والمنطق والحجة . . .

كان هذا حال العلماء المسلمون فى عصر النهضة الفكرية العربية وازدهار العلوم والمعارف ولايمكن أن يتطور علم مثل علم التوحيد الأوسط تطور كافة العلوم ولابد من وجود الامكانيات العلمية لتفسير كل الظواهر الطبيعية .

لم تظهر الصوفيـة فى عصر تدهور الفكر العربى كما يتصور البعض ولكن تدهورت الصوفية بتدهور الفكر العربى وخمود المعارف وقلة الاجتهاد واندثار

العلوم حينما بات علماء التوحيد وأهل الصوفية يستعملون أدوات غير تلك التي كان يستعملها رجال العلم من الصوفية الأوائل . . . . . . في حين كان العلم هو السلاح الوحيد للصوفية أصبح الوهم والرؤيا وخطرقها والأحـــلام وتجريداتها هي أداة رجال الصوفية في مجال علم التوحيد واثبات وحدانية الله .

يقول الامام العالم أبا القاسم عبد الكريم هوازن القشيري في اعتقاد الصوفية في مسائل الأصول « اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد امرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم من البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة في توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما هو حق القوم وتحققوا ما هو نعت الموجود من العدم » .

وقد أخذ بعض الصوفية مثل هذه العبادات دون اجتهاد وعلم وظنوا أن التوحيد يأتي من الاطمئنان لصفاء السريرة وبدون صفاء العقل الذي لايكون صفاؤه الا بالعلم . . لان اثبات وجود الله درجات أعلاهم درجة ذلك العالم المؤمن الذي عرف حقائق الكون وتجرد من كل شيء بمعرفة كل الحقائق فآمن بعقله وقلبه . . وهذا هو مذهب التوحيد الذي اجتهد رجال الصوفية الأوائل فيه بالعلم ، ووقفوا عند كل شيء بالدراسة والتحليل والتعليل يضمنوا المعاني أشياء خفية وانما جعلوا لكل شيء معنى واضح ثم أتى بعدهم طائفة من المريدين وقف علمهم عن أدراك معاني هؤلاء العلماء فتوهموا معانيها وساروا بها دون علم عن طريق البصيرة وظنوا أن الرؤيا والوهم هما السبيل الصحيح للكشف عن خفايا هذه المعاني والكلمات ليفهما قلة من الناس من صدق إيمانهم ولكنهم لم يدركوا أنهم وضعوها لمن كثر علمه وصفا إيمانه حتى لايقع في حبال الشرك والأوهام .

ولو وقفنا الآن عند التعريف البسيط للصوفية القائل الصوفى هو من الذى صفا عن الأخلاق المذمومة وتخلق بالاخلاق المحمودة حتى أحبه الله وحفظه فى جميع حركاته وسكناته . . .

ولقد كان لمثل هذه المعانى المختصرة ولكثير من كلمات رجال الصوفية الاوائل التى قالوها للخاصة فانتشرت عند العامة كل أسباب تدهور الفكر الصوفى فظن البعض أن الصوفية هو صفاء السريرة ولكن كيف يتحقق هذا الصفاء وقد ظن البعض أن مجرد أداء الفرائض العادية للمؤمن يكفى لجلب هذا الصفاء وفات عليهم أن تحقيق هذا الصفاء لا يكون لا بتصفية حقائق الوجود ودراستها والتأكد من كل خاطر واثباته علميا ولكن البعض ظن الرؤيا أو الوهم هما مايعنيه علماء الصوفية بالصفاء وان الاحساس له يكفى لكشف أشياء كثيرة لصاحبه .

وباتت الصوفية عند المريدين هو استجلاء كلمات رجال الصوفية وظنوا أن فيها شيئا لايدركه إلا أهل البواطن ولايدرك معانى كلماتهم الا من توفرت لهم أسباب كشف الغيب ولم يدركوا أن الصوفية هى تطور لعلم التوحيد بالعلم والمعرفه وليس الوقوف عند كلمات رجال هذا العلم والظن بأن لكلماتهم معانى خافية لايتوصل إليها إلا القلة وهو وهم كاذب فعلم التوحيد لايقوم على هذا الظن وكل صوفى لايلم بعلم التوحيد ويضيف إليه شيئاً من عنده لايعد صوفيا . . .

قال زعيم الصوفية الأول الامام أبو القاسم الجنيد وهو ببغداد فى أوج ازدهارها فى عصر الخليفة العباس فى تفسيره للتوحيد . التوحيد هو افراد

القـدم من الحـدث واحكموا أصول العقـائد بواضـح الدلائل ولائح الشواهد . .

هـذه دعوة علمية لإثبات وجود الله بالحقـائق والشواهد . . . . . .
قال سمعت أبا حاتم الصوفي يقول سمعت أبا نصر الطوسي يقول سئل رويم عن أول فرض افترضه الله عز وجل على خلقه ماهو فقـال المعرفة لقوله جل ذكره وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون قال إبن عبـاس الا ليعرفون .
ونحن نرى هنـا أن عبـاس يفسر كلمة يعبـدون بيعرفون وذلك لأن العبـادة الصحية لا تأتى إلا بالمعرفة إنما الإيمان بدون علم ومعرفة إيمـان لايقوم على المعرفة والعلم . ويقول الامام أبو القاسم الجنيد أن أول مايحتاج إليه العبـد من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه والمحدث كيف كان أحداثه فيعرف من صفـة الخالق من المخلوق وصفة القـديم من المحدث ويذل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته فإن لم يعرف مالـكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه ويقول الجنيد كذلك فى معنى التوحيد قال أفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته أنه الواحـد الذى لم يلد ولم يولد بنفى الاضـداد والانداد والاشبـاه بلا تشبيه ولاتكيف ولاتصور ولا تمثيل . وهذه دعوة لاثبات وجود الله عز وجل عن طريق إمتحان الحقائق العلمية .

وماقاد لانحراف البعض فى تفسير معانى رجال الصوفية الأوائل انهم أهتموا بمسائل فلسفية تهم الخاصة من رجال العلم وذلك حين تعرضوا لمسائل ماوراء الطبيعة مثل الحدث والقدم .

وخرجت كلماتهم ومعانيهم هـذه إلى المريدين غـير المطاق على العلوم

الفلسفية فقصر علمهم عن متداولها وفهم معناها وظنوا أن فى العلم باطن وظاهر أحدهما بالاجتهاد وآخر بدون اجتهاد ووقفوا عند المعانى الفلسفية وظنوها كلمات روحانية نزلت على مؤلفيها من الأئمة فى ساعة تجلى كشفت لهم عن خبايا الوجود وأسرار الحياة ولم يدركوا أنها فلسفة ما وراء الطبيعة وانها علم يقوم على الاقناع العلمى .

يحكى عن يوسف بن الحسن قال : « قام رجل بين يدى ذى النون المصرى » فقال « أخبرنى عن التوحيد . ماهو » فقال « هو أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه ، وليس فى السموات العلا ولا فى الأرض السفلى مدبر غير الله وكل ماتصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك » . .

ويحكى كذلك ما وصل إليه حال الصوفية من بعضهم له علم الغيب حتى إنتشرت هذه الفكرة بين المريدين وغير المريدين وكان لها خطرها الكبير فى هدم أساس هذا المذهب وادخال الدجل عليه وإعطاء قوة لم يؤمنوا بها ولم يدعوا إليها . . . قال جاء رجل إلى ذا النون المصرى وقال له أدع لله لى فقال ان كنت قد أيدت فى علم الغيب بصدق التوحيد فكم من دعوة مجابة قد سبق لك وإلا فأن النداء لاينقذ الغرق وقال الواسطى ادعى فرعون الربوبية على الكشف وادعت المعتزلة له الستر تقول ماشئت فعلت . . .

وإذا تصورنا تطور الفلسفة اليوم والامكانيات العلمية الكثيرة التى

تستغلها لكشف الحقائق وما كانت عليه فى القرن الثالث والرابع الهجرى عند العرب لوجدنا الفارق العلمى الكبير بين الفلسفة اليوم والفلسفة بالامس فقد اختفت آراء رجال الفكر الاوائل وسقط الكثير منها أمام تقدم الفكر اليوم وهذا لايمس الأقدمية بشىء وانما يثبت ان العلم فى الفكر فى تطور مستمر وكلما تقدم التعليم كلما تقدم الفكر وذلك كيلا نسلم بآراء المجتهدين من علماء الصوفية الاوائل لان العلم لاحدود له .

....

الصوفية الأوائل

أبو اسحق بن ابراهيم بن أدهم بن منصور

أول من ورد ذكرهم من الصوفية ، هو أبو اسحق بن ابراهيم بن أدهم بن منصور . كان من أبناء الملوك ، وأول من ترك حياة الغنى ، وأعطى ما كان معه لراعيه ، ولبس جبة الراعي المصنوعة من الصوف ، مما جعل البعض يعتقد أن كلمة الصوفية مشتقة من لبس الصوف الدال على الزهد في الدنيا ومعنى الصوفية غير ذلك كما جاء على لسان أئمة الصوفية وهو الذي صفا عن الاخلاق المذمومة وتخلق بالاخلاق المحمودة ولايشترط أن يلبس الصوف لان أئمة رجال الصوفيين من علماء بغداد والذين عاشوا بها لم يلبسوا هذا الصوف .

ومن أخبار أبو اسحق وأثاره أنه قال لرجل وهو بالطواف علم أنك لاتنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات ، أولاها تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة ، والثانية تغلق باب العز وتفتح باب الذل ، والثالثة تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد ، والرابعة تغلق باب النوم وتفتح باب السهر والخامسة تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر والسادسة تغلق باب الامل وتفتح باب الاستعداد للموت ، . . .

هذا طرف من فلسفة الصوفية الاوائل الذين كانوا ينظرون للدنيا نظرة أقرب لنظرة الرهبان اليها وذلك عند بداية الحركة الصوفية الا أن هذا لم يكن يشمل فلسفة الصوفية في الوجود والتوحيد وانما كان هذا رأى فرد منهم في

حياة القرد وقد جاءت أخباره أيضا أنه كان يحرس كرما فمر به جندي فقال « أعطنا من هذا العنب » فقال « ما أمرني به صاحبه » فأخذ يضربه بسوطه فطأطأ رأسه وقال « اضرب رأسا طالما عصى الله » فأعجز الرجل ومضى . . . .

أبو الفيض ذو النون المصري :

اسمه ثوبان بن ابراهيم وقيل الفيض ابراهيم وأبوه كان نوبيا توفي سنة خمسة وأربعين ومائتين هجرية من أئمة الصوفية ، وواحد وقته ، علما ، وورعا ، وحالا وأدبا — قيل سعوا به إلى المتوكل فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ، ورده إلى مصر مكرماً . وكان المتوكل اذا ذكر بين يديه أبو الفيض يبكي .

كان رجلا نحيفا تعلوه حمرة ، ليس بأبيض اللحية ومن أمثاله قوله « مدار الكلام أربع ، حب الجليل ، وبغض القليل ، واتباع التنزيل ، وخوف التحويل » .

أبو القاسم الجنيد بن محمد :

« سيد هذه الطائفة وأمامهم أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له القواريري وكان فقيها على مذهب أبي ثور فكان يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة صحب خاله السري والحرث المحاسبي ومحمد بن علي القصاب مات سنة سبع وتسعين ومائتين .

ومن أقواله « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات وقال أيضا « من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولا يقتدى به في هذا الأمر ليس منا لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . »

الامام عبد القادر الجيلانى

هو القطب الكبير المؤسس الأول للطريقـــة القادرية . . كان اماما عالما تقيا ورعا . . . كان له اتباع ورواد لحلقته بمسجده الكبير ببغداد حيث يقوم بتدريس علوم التفسير والحديث والفقه الشافعى والحنبلي وعلوم الأصول واللغة .

وكان يقول لاتباعه « ان الله لا ينظر إلى وجوه الناس واجسامهم وانما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم ، وان المراد بالعلم ، هو العمل به فالفقيه هو من عمل فقهه والمحدث لا يكون محدثا إلا إذا طبق الحديث على نفسه واعد قلبه ليكون على قلب صاحب الحديث صلوات الله وسلامه عليه » . . .

الامام أحمد الرفاعى

هو القطب المربي الامام السيد احمد الرفاعي مؤسسة الطريقة الرفاعيه التي انتشرت في العراق والشام ومصر وشمال أفريقية

من أقواله : « أنفع الناس إلى الله أقربهم لعباده » . . . ومن أقواله أيضا (طريق دين بلا بدعة وهمة بلا كسل وعمل بلا رياء ونفس بلا شهوة وقلب عامر بالمحبة)

وكان مجلسه مدرسة للعلماء ومأوى للفقراء . . .

الإمام السيد أحمد البدوى

هو القطب السيد أحمد البدوى وفد إلى مصر من العراق بعد أن طاف ربوع الحجاز . . . واستقر بمدينة طنطا وأخذ يؤسس مدرسته الكبرى باسم (الطريقة الأحمدية) حضر عصر الظاهر بيبرس وكان يجله ويعظمه .

ومن أقواله (ليس التصوف الزهد أو لبس الصوف انما التصوف أعمال ومجاهدة وأخلاق والأخذ بأيدى الناس إلى خير الدنيا والآخرة)

الإمام السيد إبراهيم الدسوقى :

صاحب الطريقة البرهامية توفى سنة ستة وأربعين وستمائة عالما ورعا تقيا من أقواله (من لم يكن متشرعا ، متحققا ، نظيفا ، عفيفا ، شريفا ، فليس من أولادى ، ولو كان ابنى لصلبى ومن كان من المريدين ملازما للشريعة والحقيقة) . . . .

هؤلاء بعض أئمة الصوفية الكبار وإذا أردنا أحصاءهم فعددهم لا يحصى

هذا الكتاب ونكتفي بالاشارة إلى بعضهم . . . ومايهمنا ماذا استفاد السودان ؟ من الصوفية . . . . وماذا استفادت الصوفية من السودان . . . فهل أعادها إلى طبيعتها العلمية الاولى أم انحدروا بها بعد أن انحدرت هي نسبة لركود الفكر العربي عامة وتدهور الحياة الثقافية والاجتماعية بتدهور الحياة السياسية وتفتيت وحدة الأمة الاسلامية والعربية الذي ابتدأ بظهور الدولة العباسية في الجزيرة العربية وشمال أفريقيا وانزواء الدولة الأموية في الأندلس ثم بزوغ الدولة الفاطمية في شمال افريقيا محتلة أراضي الدولة العباسية ثم جرت التقسيمات العديدة التي هدت بوحدة الامة الاسلامية وقادت لتدهورها .

. . . .

وجه التشابه بين الصوفيه والرهبانيه

لما كانت المسيحية دين سماوى أنزله الله على الناس ليؤمنوا به وكلف به سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام ليقوم بنشر هذه الرسالة قابلت دعوة عيسى من اليهود والوثنية الكثير من التعسف ولاقى المؤمنين بها شتى أنواع العذاب وقد سلك المؤمنون بالمسيحية طرقا شتى فى عباداتهم وسلوكهم الدينى ومن هؤلاء كان الرهبان الذين انتشروا فى مصر فى وديانها وجبالها وصحاريها بعيداً عن لهو الدنيا وهروبا من بطش الرومانيين .

ولما بعث الله عز وجل سيدنا محمداً هاديا مبشراً بالاسلام منذرا بالعقاب ثائراً على عبادة الاوثان وقفت تربش ضده ولاقى من العذاب الكثير ولاقى المؤمنين الكثير من الاضطهاد ...

ظهر الاسلام فى النصف الأول من القرن السابع لظهور المسيحية وقد انتشرت المسيحية بين كثير من الشعوب فى شمال الجزيرة العربية وفى مصر وشمال البحر الابيض المتوسط .. وقد سلك المسيحيين مسلكا جديداً فى العبادة وهم الرهبان فى انقطاعهم عن ملذات الدنيا وخلودهم للعبادة وذكر الله وقد ظهر هذا المسلك عند بعض الصوفيين الاوائل ونحن نورد هنا بعض الامثلة ونقارن بين حياة القديس انطونيوس من أبناء مصر الاغنياء وبين حياة الصوفى الاول أبو اسحق إبراهيم بن أدهم بن منصور ...

فقد نشأ القديس انطونيوس المولود عام ٢٥١ م ببلدة (كوما) بمصر

مركز الواسطى من أبوين غنيين وعند بلوغه سن الثامن عشر توفى والديه فى عام واحد وتركاه بواخته بعد أن تركا لهما ثروة طائلة وحدث أن ذهب انطونيوس للكنيسة فسمع الكاهن يقول ان « أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع كل مالك واعط الفقراء وتعال اتبعنى فيكون لك كنز فى السماء » وقد اعتبر الشاب انطونيوس هذه الفقرة وكأنها موجهة اليه لانطباقها على حالة فخرج من الكنيسة وذهب إلى ممتلكاته وأرضه ووزعها على الفقراء محتفظا ببعض المال لاخته لتربيتها ولكنه عاد مرة أخرى للكنيسة وسمع الكاهن يقول (لا تهتموا للغد) فخرج من الكنيسة عاقدا العزم على أن يسلك مسلكا جديداً فأرسل اخته إلى بيت للعذارى ثم خرج من القرية عام ٢٧٠ م إلى مكان قريب من قريته حيث اقام فى كوخ صغير إلى جوار شاطىء النيل يدرب نفسه على حياة النسك كما فعل المسيحيون السابقون .

ولما كان قليل الخبرة بحياة النسك وتعاليمها اتصل بكبار النساك وشيوخهم المجاورين له للاستفادة منه . . ثم رأى فى اقامته فى ذلك المكان خطر على حياته الروحية بسبب رؤيته لبعض النساء اللاتى كن ينزلن إلى النهر للاستحمام فتحول إلى المقابر القريبة من القرية ، ولكنه لم يطل الاقامة بها إذ هداه تفكيره ، إلى عبور النهر إلى المناطق الجبلية حيث أقام فى حصن مهجور فى منطقة « بسبير » على الضفة الشرقية على النيل . . وعاش هناك لا يتصل بأحد إلا ثلاثة مرات فى السنة حين يحضر اليه المعجبين به الخبز الجاف دون أن يراهم . . .

هذه حياة شاب مسيحى سلك فى حياته الدينية مسلكا جديداً بخلاف ما كان شائعاً عن المسيحيين ثم تأتى بعد ذلك حياة أبو اسحق ابراهيم بن أدهم بن منصور تحكى قصة حياته أنه كان من أبناء الملوك خرج يوما للصيد فأثار ثعلبا أو أرنبا . وصار يطارده وأثناء مطاردته له هتف به هاتف يا ابراهيم الهذا خلقت أم

بهذا أمرت ثم هتف به أيضا من قربوس سرجه والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فنزل عن دابته وصادق راعيا لأبيه فأخذ جبة الراعى من صوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ثم أنه دخل البادية ثم دخل مكة وصحب بها سفيان والثورى والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها ، وكان يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين وغير ذلك وأنه رأى فى البادية ، علمه اسمه الله الأعظم ، قد عاد بعده فرأى الخضر عليه السلام وقال وإنما علمك أخى داود اسم الله الأعظم .

وقد شابهت حياة أبو اسحق المعيشية فى كثير حياة رهبان وادى النطرون والاودية الاخرى وتكسبهم من الزراعة واعتمادهم على عملهم وحياة التقشف .

هذا التشابه فى حياة الرهبان الأوائل الذين عاشوا على النيل وفى السودان كان من العوامل المساعدة لانتشار الصوفيه فى السودان وظهور مريديها بتلك الصوره لما وجدوه من روايات قديمة عاش أصحابها على النيل أخيرها من قديم الزمان وما جاء فى ذكر الرواد الأوائل من الصوفية مثل ابو اسحق بن إبراهيم بن أدهم وما كانت ترويه الروايات عن حياة الرهبان فى وادى النيل وسوريه .

* * *

(١)

الشعر

ما نعرفه عن الشعر :

الشعر ذلك النور الانسانى الذى يضىء النفس ...

الشعر تلك الروح التى تبسط الأرواح المتعبه ...

الشعر تلك الروح التى تنهض بالعقول المرهقة ...

الشعر ذلك القبس الذى يلج النفوس المتعبه فيملأها سعادة وحياه ...

الشعر رسول انسان طاهر يبحث عن الحياة والخلود ...

الشعر شعاع يضىء كل الآفاق ..

أيتها الشمس إغربى

ودعينى أستاق على الطريق

على أرى خلف الحجب

حتى أرى مالا تراه العيون

الشعر ذلك السراج الذى وقوده أنا وزيته هذه الحياة التى فى العروق ...

وموسيقاه هذه النغمات التى تخلق الحياه وتحيل الانسان إمكانيات لاتحد .

الشعر ذلك القبس الانسانى الداخلى لينير طريق الأبدية

الشعر رحلة بين النفس والذات

الشعر حركة الروح وإنطلاقه العقل

تاريخ الشعر العربي في السودان

لم تظهر حتى الآن دراسة دقيقة لتاريخ الشعر العربي في السودان غير بعض الدراسات التي إهتمت بتاريخ الشعر في القرن التاسع عشر والقرن العشرين للأستاذ عبده بدوي والشعر الحديث للدكتور الشوش الأستاذ بجامعة الخرطوم وبعض الدراسات العربية التي ألقت بعض الضوء على تاريخ الثقافة العربية في السودان بداها الأستاذ محمد عبدالرحيم في مؤلفاته « نفثات اليراع » و « العربية في السودان » ثم الأستاذ عبد المجيد عابدين « تاريخ الثقافة العربية في السودان » وكل هذه الدراسات لم تكشف لنا بوجه قاطع عن تاريخ الشعر العربي في السودان . ولم تدلنا على مسيرة الشعر العربي في السودان وهي في مجملها تابعت دخول العرب للسودان ، ولم تحاول أن تجد رواداً آخر غير تتبع رحلة العرب داخل السودان .

كما قدم الأستاذ الطاهر محمد علي آخر رسالته لنيل الماجستير من جامعة القاهرة عن « النزعة الصوفية في شعر السمانية » وكنا نأمل أن يكتشف لنا هذا التاريخ إلا أنه وقف مع شعر الصوفية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي مضيفاً غموضاً على تاريخ الشعر العربي في السودان حتى أصبح نبت بلا جذور ولابداية له ، ولم نعرف روافده الاول حتى الآن .

ومن أجل هذا حاولنا في هذه الدراسة البسيطة أن نجد البداية لتاريخ الشعر العربي في السودان مستشهدين بالوثائق والأمثلة التي إستطعنا أن نعثر عليها .

قسم الدكتور عبد المجيد عابدين فى كتابه تاريخ الثقافة العربية فى السودان الشعر إلى عامى وعامى فصيح وفصيح وهو بذلك قدم الشعر العامى على الشعر العربى الفصيح وقد استند الدكتور عبد المجيـــد عابدين فى تبويبه للشعر فى السودان على هذه الأبواب على ما وصل إليه من شعر القرن الثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن العشرين معتمداً فى نفس الوقت على أن الثقافة العربية دخلت السودان بدخول العرب إليه . ولكننا لو تابعنا رحلة العرب داخل السودان مبتعدين عن الالتحام بالناس طالبين المأوى والاماكن الامنة خوفاً من دخولهم فى مشاكل مع أهل السودان حتى يضطروا إلى أن يجدوا نفسهم فى موقف حرج، خلافهم دولة العباسيين فى مصر التى دفعت بأول فوج من العرب الأمويين للسودان . . وحرصا على النجاة من عداوة العباسيين رضوا بالفيافى والسهول الخالية من الناس قدر الامكان حتى لا يدخلوا فى عراك أو عداوة ليست فى مصلحتهم ، ولم يقف تدفق العرب على السودان بهروب الأمويين أمام العباسيين إلى داخل أفريقيا أو إلى السودان فى القرن الثامن الميلادى .

أول طلائع عربية مسلمه وصلت السودان عام ٦٤١ م — حين أرسل عمر بن العاص بعد فتحه لمصر قائده عبد الله بن السرح إلى حدود مصر الجنوبيه لضم دولة دنقلة المسيحيه إلى فتوحات الاسلام ، إلا أن دنقلة قاومت الجيش الاسلامى فى بداية الأمر حتى إضطر الجيش الاسلامى إلى ضربهـــا بالمنجنيق . فأستسلم حاكم دنقله وعقد صلحاً مع القائد العربى على إحترام المسلمين مارين بديارهم أو مقيمين أو مؤدين لشعائرهم الدينية ، والحفاظ على مساجدهم على أن يدفع مسيحيو دنقله جزيه سنوية لحاكم إسوان نيابه عن والى مصر ولكن سكان هذه المنطقة لم ينقطعوا عن العصيان والتحرر من هذا الاتفاق فترات عديده مما قاد لاعادة الهجوم عليهم المره بعد المره .

هذا كان أول لقاء بين العرب المسلمين وسكان شمال السودان المسيحيين والوثنيين الذين كان بعضهم يخضع للديانات الفرعونية فى المناطق النائية عن يد السلطة والكنيسة .

وإذا أردنا أن نتبع الهجرة العربية فانها لم تسلك هذا الطريق الوعر الذى تقطنه القبائل المسيحية عند بداية هروب العرب الأمويين أمام العباسيين أو هروب العباسيين أمام الفاطميين فى القرن الثامن الميلادى والقرن العاشر الميلادى داخل أراضى السودان سالكين أرض المدن مبتعدين عن النيل متوغلين داخل أراضى البطانة .

وإذا أردنا أن نعرف أثر هذه الهجرة العربية منذ القرن الثامن والعاشر الميلادى على الثقافة السودانية فإن نجد لها أثر لأن العرب فى هذه الفترة لم يكونوا فى إستعداد لإدخال التأثير وفرض ثقافتهم ودياناتهم ، إنما كانت هجرتهم تطلب منهم المصالحة والمساومة والتقرب إلى عادات أهل البلد دون إرهاقهم بفرض عادات وثقافة العرب .

ومما حدث أن أخذ العرب الأوائل من حياة سكان السودان الكثير ، بعد أن أخذ منهم الترحال والتجوال والبحث عن مأوى ومكان للأستقرار الكثير من ثقافتهم وحضارتهم التى أبتعدوا عن مناخها إلى ظروف معيشية افتس بكثير مما كانوا عليه فى حياتهم داخل النهضة العربية الاسلامية التى أعطتهم الكثير من الثقافة والحضارة والمدنية التى لم تتوفر مقوماتها على هذه السهول والقيافى والوديان طلبا للمرعى والرزق والظل .

أنشغل العرب الاوائل بالبحث عن مكان الاستقرار وعن إسلوب للانغام به مع سكان السودان وحاولوا ما أستطاعوا التقرب إلى عادات أهل البلد وتنازلوا عن الكثير من مقومات حياتهم الحضارية حتى إستطاعوا أن يمتزجوا بسكان السودان على ضفاف النيل والوديان والسهول .

وخلال أربعة قرون فقد العرب خلالها إتصالهم بمراكز الثقافه العربية والاسلامية حتى تجردوا فى كل مقومات تلك الحضارة والنهضة . ويأتى القرن الخامس عشر ، وقد حدث الامتزاج الكامل بين العرب والسكان المحليين وأصبحوا عنصرا واحدا ، نجد الحاله الثقافية والدينية فى حاله من الفقر والجهل بتعاليم الاسلام تذكرها لنا المخطوطات القديمة . حيث لم يعد لهم من الثقافة الاسلامية الا أداء فريضة الصلاه اما تعاليم الاسلام الأخرى فقد تبخرت عبر السنين على السهول والوديان وضفاف الأنهار حتى ظهر شكل المجموعات القبليه التى كونت الحلف السنارى مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادى وإن الامتزاج لم يحدث فى عهد الاجيال الاول أنما حدث بعد الاستقرار فى عهد أجيال جديده شبت على تربة السودان ومناخه .

لقد حاول بعض المؤرخين والباحثين جعل الفترة السابقه لقيام الحلف السنارى بين عبد الله جماع زعيم العبدلاب وعماره دونقس زعيم الفونج عام ١٥٠٠ م فترة إنتشار الثقافه العربية . ولم يستطيعوا أن يؤرخوا غير الفترة مابين القرن الثامن عشر الميلادى وبداية القـــرن العشرين ولم يحاولوا أن يعطونا صورة واضحة من حال الثقافة العربية قبل الحلف السنارى وبعد قيام السلطنه السناريه . . . . كما أن زعمهم على إنتشار الثقافه العربية بدخول العرب

السودان . وأن كان للعرب أثر ثقافى قبل القرن الخامس عشر فى مجال الثقافة العربية والاسلامية فهو أثر ضئيل لان عملية الرحلة داخل السودان كانت بالنسبة للعرب أنفسهم بمثابة إمتصاص لثقافتهم ومدنيتهم التى وصلوا اليها بظهور الاسلام وفتوحاته وأتصالهم بالحضارات الاخرى . . وكل ما خلفه العرب خلال تلك الفترة فى السودان هو نشر التقاليد العربية . . وعلينا أن نفرق بين تقاليد العرب وبين الثقافة العربية الاسلامية التى قامت عليها النهضة العلمية للعرب المسلمين .

بدأت النهضة العلمية والثقافة العربية بظهور السلطنة السنارية ببداية القرن السادس عشر وسيطرة هذا الحلف على جميع القبائل وحفاظه على الأمن وطرق التجارة وإشتراك وزراء وملوك هذه السلطنة فى التجارة بين مصر والبحر الأحمر وتشجيعهم للحج وحراسة قوافله الأمر الذى فتح الباب للناس للخروج من السودان فى آمان على إرواحهم وإموالهم من قطاع الطرق التجارية وعودتهم سالمين من شر قراصنة القوافل التجارية الذين إحترفوا هذه المهنة .

وأذا أردنا أن نبحث عن حال الثقافة العربية والاسلامية بعد قيام السلطنة السنارية فسنجد جهل عام بالتعاليم الاسلامية . . فقد إنتشر الجهل بالتعاليم الاسلامية قبل قيام هذه السلطنة وحتى بعد قيام هذه السلطنة . فسنجد إستمراراً لبعض العادات القديمة التى تنافى مع تعاليم الاسلام فيما يختص بالزواج على الخصوص . فنجد الرجل يطلق المرأة ثم يتزوجها غيره فى نفس اليوم وقد جاء فى مخطوطه « ودضيف الله » المكتوبة عام ١٧٥٢ م عن حال الثقافه العربية

والاسلامية عند قيام هذه السلطنة الان حيث يقول (لم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن . يقال إن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عده) وأستمرت هذه الحالة حتى بقيام السلطنه السنارية حتى حضر محمود راجل القصير العركى من مصر وعلم الناس العده فى النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى . وقد وجد رجال العلم والدين الذين تلقوا العلم بعد قيام السلطنه مشقة كبيرة فى تطبيق التعاليم الاسلامية على الناس وحتى على الذين تلقوا دراسات دينية . ومنهم الشيخ محمد الهميم وزواجه بأكثر من إربعة نساء وجمعه بين الاخوات ، ووقوف دشين قاضى العدالة ضد هذا السلوك وإصرار الشيخ محمد الهميم على إستمراره فى الجمع بين الاختين وتحليله لأكثر من أربعة نساء فى آن واحد لكشف جهل الشيوخ فى تلك الفتره وذلك يرجع لا شك لقتره الخلوه ، التى تلقوا العلم بها . وهذا أمر يبدوا كان شائعا وذلك لابتعاد العرب فترة طويله عن حياة المدنيه قبل أن يحدث الزواج والامتزاج والاستقرار . وساعد على هذا الجهل إبتعاد العرب عن المدنية العربية ومحاولتهم الهروب قدر الأمكان عن أى طريق يقرب من يد السلطه العربيــة الحاكمة إن كان ذلك فى عهد العباسيين أو الفاطميين . حتى فقدوا كل مقومات تلك الثقافة التى جاءت مع الرحالة الأوائل الذين عملوا كجند للدولة الاموية أو الدولة العباسيــة .

ثم جاءت الدولة السنارية فخلقت الأمن والأستقرار وبدأت عمليــة الهجرة للسودان عن طريق الحج أو عن طريق مصر . وأول من وصل للسودان فى عهد الدولة السنارية محمود العركى راجل القصير الذى نزل بالنيل الأبيض بقرية اليس ونشر للتعاليم الاسلامية ويقول الشيخ خوجلى ادريس الأرباب كانت بين الخرطوم واليس سبع عشر مدرسة خربتها قبائل الشكل ولم تقم .

فقد كانت قبائل الشلك تمتد أراضيها حتى أراضي الجزيرة ويعزى اليها البعض تخريب مدينة سوبة وممالكها .

خط الشيخ محمود العركي أول مدرسة لتعليم اللغة العربية وحفظ القرآن ونشر التعاليم الاسلامية وضمت مدرسته تلاميذاً من مختلف الاقاليم الذين قاموا بدورهم في نشر تلك المعرفة في أقاليمهم .

ثم بعد محمود القصير عاد طالب سوداني بعد أن رافق قوافل الحج التي كانت تذهب عن طريق مصر ، من دار الشايقية وهو ابراهيم البولاد بعد أن أقام بالأزهر والحجاز وألم بعلوم الدين والعربية ودرس بأرض الشايقية خليلا والرسالة ويقال أنه أول من درس خليلا ببلاد الفونج وقد خرج الشيخ ابراهيم ابن جابر ابن عون بن سليم أئمة رجال الصوفية والعلم بأرض الجزيرة وسنار والحلفاية وشمال السودان .

وقد كان لأولاد جابر الأربعة وعائلتهم أثر كبير في نشر تعاليم اللغة العربية في أرض الشايقية وشمال السودان وقد كان يحج إليهم العديد من الطلاب من شتى الاقاليم لتلقي العلم عليهم وهم إبراهيم البولاد وسمي البولاد لان رجلا حلف أن يدخل بيته جميع ما خلقه الله فافتاه إبراهيم بوضع المصحف على سريره واستدل بقوله تعالى وما فرطنا في الكتاب من شيء ، فقال له شيخه أنت بولاد الحديد . وأخوانه هم عبد الرحمن وعرف بالصلاح وإسماعيل وعرف بالورع وعبد الرحيم وعرف بالعبادة واختهم فاطمه ام الشيخ صغيرون وكانت عالمة في العلم والدين .

أما في منطقة سنار ورفاعه فقد كان الشيخ تاج الدين البهاري الفضل الكبير

في نشر العلم والصوفيه وقد تخرج على يده أئمة كبار من رجال الصوفية والفقه.
وإذا أردنا أن نؤرخ للشعر العربي في السودان فسوف نؤرخ له بمدرسة تاج الدين البهاري البغدادي الذي وصل السودان بعد أن أدى فريضة الحج حوالى عام ١٥٥٥ — ١٥٦٠ م أول حكم عماره أبو سكيكين وقد نقل الشيخ تاج البهاري للسودان الصوفية الراقية ونقل منها أحلى انتاجها وهو الشعر ، وقد كان الشعر الصوفي عربي فصيح حفظه الناس وساروا على منواله في الكتابه والذكر. ومن أثار الصوفية الكبار أبو القاسم الجنيد الذي تسمى باسمه (أبو القاسم الجنيد السوداني) . وقد كان الشعر الصوفي هو أكثر الشعر الذي تداوله الرواة الاوائل في الخلاوى (الكتاتيب) والزوايات .

وصل الشعر العربي الصوفي أعلى مراتب الشعر الذاتي وأحلاه ، حتى صار على كل لسان . وهو قد جمع بين محبة الله والخوف وقد شبه فيه بعض الشعراء هذا الحب بالحب العاطفي الجارف حتى بات هذا الشعر الصوفي على كل لسان عاشق وحبيب وكل محب للجمال والشعر الجميل وفي ذلك قولهم في الصمت .

أفكر ما أقول إذا افترقنا ... وأحكم دائما حجج المقاله

فأنساها إذا نحن إلتقينا ... فأنطق حين إنطق بالمحاله

وكذلك

رأيت الكلام يزين الفتى ... والصمت خير لمن قد صمت

فكم من حروف تجر الحتوف ... ومن ناطق ود أن لو سكت

* * *

وقولهم فى الخوف

أحسنت ظنك بالأيام إذا أحسنت ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليالى يحدث الكدر

وكذلك :

لو أن ما بى على صخر لأنحله فكيف يحمله خلقاً من الطين

وكذلك فى باب التوكل لأبى الحمزة الخراسانى .

أهابك أن أبدى إليك الذى أخفى وسرى يبدى مايقول له طرفى
نهانى حيائى منك أن أكتم الهوى وأغنيتنى بالفهم منك على الكشف
تلطفت فى أمرى فأبديت شاهدى إلى غائبى واللطف يدرك باللطف
تراءيت لى بالغيب حتى كأنما تبشر منى بالغيب إنك فى الكف
أراك وبى من هيبتى لك وحشة فتؤنسنى باللطف منك وبالعطف
وتحيى محباً أنت فى الحب حتفه وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وكذلك يقول صديقه المرتعش :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا نائع أنا عارى
هى ستة وأنت الضمين لنصفها فكن الضمين لنصفها ياباري

مدحى لغيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار
والنار عندى كالسؤال فهل ترى أن لا تكلفنى دخول النار

وقولهم فى باب الشكر.

ومن الرزية أن شكرى صامت عما فعلت وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أسرها إنى أذن ليد الكريم لسارق

وفى باب اليقين

ياعين سحى أبداً، يانفس موتى كمداً ولا تحبى أحداً، إلا الجليل الصمدا

أما فى باب الصبر فلهم أحلى الشعر كقولهم :

الصبر يجمل فى المواضع كلها إلا عليك فأنه لا يجمل

وكذلك :

سأصبر كى ترضى وأتلف حسرة وحسبى أن ترضى ويتلفنى صبرى

وأيضا ..

صبرت ولم أطلع هواك على صبرى وأخفيت مابى منك فى موضع الصبر
مخافة أن يشكوا ضميرى صبابتى الى دمعتى سراً فتجرى ولا أدرى

وكذلك :

والصبر عنك فذموم عواقبه   والصبر فى سائر الأشياء محمود

وايضا ..

وكيف الصبر عمن حل منى   بمنزلة اليمين من الشمال
إذا لعب الرجال بكل شىء   رأيت الحب يلعب بالرجال

وكذلك :

صابر الصبر فاستغاث به الصـ   ـبر فصاح الحب بالصبر صبرا

وايضا ..

تبين يوم البين أن إعتزامه   على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

وقولهم فى باب الذكر :

ذكرتك لا ، إنى نسيتك لمحة   وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت من الهوى   وهام على القلب بالخفقان
فلما أرانى الوجد إنك حاضرى   شهدتك موجوداً بكل مكان
فخاطبت موجوداً بغير تكلم   ولاحظت معلوماً بغير عيان

وقولهم فى الغيره :

أغار عليك من نظرى ومنى   ما احتيالى بسوء رأى الموالى

همت بإتيانها حتى إذا نظرت ... إلى المرآة نهاها وجهها الحسن

وقولهم فى باب الفقر .

قالوا غداً العيد ماذا أنت لابسه ... فقلت خلعة ساق حبه جرعا

فقر وصبر هما ثوباى تحتهما ... قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به ... يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا

الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى ... والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعا

وفى باب السفر قالوا :

إذا استجدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأية حرب أم لأى مكان

وفى باب التوحيد .

وغنى لى من قلبى وغنيت كما غنى ... وكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

وفى باب أحوالهم فى الخروج من الدنيا .

كل بيت أنت ساكنه ... غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا ... يوم يأتى الناس بالحجج

وكذلك قولهم :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم وقت المفاجأة للسر

أديرت كئوس المنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى السكر

همومهم جوالة بمعسكر ... به أهل ود الله كالأنجم الزهر

فأجسامهم فى الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم فى الحجب نحو العلا تسرى

فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرجوا عن مس بؤس ولا ضر

وقيل للشبلى عند وفاته قل لا آله إلا الله فقال :

قال سلطان حبه أنا لا أقبل الرشا ... فسلوه بحقه لما بقلبى تحرشا

وكذلك على إبن على الروذبارى حين واته المنية قال وهو فى حجر أخته .

لا نظرت إلى سواك ... بعين مودة حتى أراك

أراك معذبى بفتور لحظ ... وبالخد المورد من جناك

وفى باب المعرفة بالله قالوا :

نطقت بلا نطق هو النطق أنه ... لك النطق لفظاً أو يبين عن النطق

تراءيت كى أخفى وقد كنت خافيا ... وألمعت لى برقاً فأنطقت بالبرق

وفى باب المحبة قولهم :

ولما إدعيت الحب قال كذبتنى ... فمالى أرى الاعضاء منك كواسيا

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشى ... وتذبل حتى لا تجيب المناديا

وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى ... سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

وكذلك قوله :

عجيب لمن يقول ذكرت الفى وهى أنسى فأذكر مانسيت

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظنى ماحييت

فأحيا بالمنى وأموت شوقا فكم أحيا عليك وكم أموت

شربت الحب كأسا بعد كأس فما نفد الشراب وما رويت

وقوله :

لى سكرتان وللندمان واحدة شيء خصصت به من بينهم وحدى

* * *

هذا الشعر الوجدانى الرقيق السامى هو الذى وصل إلى اسماع عشاق الصوفية والمعرفة من تلاميذ تاج الدين البهارى فحفظوه لسهولته وجماله . وحاولوا الكتابه على منواله بعد أن توسعت مداركهم فى اللغة والأدب وبدأوا كتابة الشعر على هذا المبدأ ولكن الحال بالصوفيـة لم يسر على ماقدر له إن يسير فالتفت الصوفية إلى دنيا أخرى غير دنيـا الأطلاع والمعرفة . وسبحوا فى عالم روحانى بعيد عن حياة الناس وانكبوا فى العبادة طلباً لمحبة الله ليعطيهم كراماته وقدرته وقد كان لبعضهم ما أراد ولذلك إنشغلوا بحب الله عن الاشتغال بالمعرفة وبالأطلاع غير نفر يسير كالشيخ خوجلى بن إدريس الأرباب أما معظمهم فقد إكتفى بسنين الدراسة عند شيخة وحفظ القرآن وسماع ـــ الرسالة والخليل ووقفت معارفهم اللغوية وقل اجتهادهم فيها وقد كان لهم وجدان كيفية الناس ولهم شوق للتعبير عما فى نفسوهم ، ولكن لم تكمل لهم المعارف

اللغوية والعروضية لاجادة التعبير ، وساروا على قول الشعر على طريق السجع مستعملين كلمات محليه وبعض الألفاظ الغريبه التي لها موسيقية خاصة وليس لها معنى ، وهم في ذلك يظنون أنهم يدركون معاني هذه الكلمات لادراكهم لشعورهم حين قول القصيده ، فتخونهم ذخيرتهم اللغويه عن الافصاح عما في نفسوهم ، ولكن لتمسكهم بأحساسهم حالة نظم أو ارتجال القصيدة جعلهم يصرون على كلماتهما ، ويجعلونها سراً من إسرارهم وحدهم في حين أنهم عجزوا ساعة النظم أو الارتجال عن إيجاد كلمات مناسبه لذلك الاحساس .

ولما كانوا أبعد عن قول الشعر والعارفين لفنونه فلم يرضوا أن يعودا لتلك القصائد لتصحيحها وتعديلها بما يناسب الموسيقى والمعنى ووضع الكلمات الجديده مكان الكلمات الغريبه وذلك لجهلهم بفنون الشعر وانما كانوا نظمهم تعبيراً لفظياً على أحساس موسيقى وعن إيقاع داخلى ظنوه سراً من إسرار الشعر وما عرفوا أن الشعر علم وفن له أصوله وقواعده وأدواته .

ولو أطلعنا على قصيدة الشيخ محمد الهمم وهو من الأولياء الصالحين المتجذبين ردا على فسخ دشين قاضى العداله لزواجه من إكثر من اربعة نساء وجمعه بين الاختين .

تكشف لنا القصيدة بأن لرجال الصوفيه عالم لايدركه الا أصحابه واعتقادهم أن رجال رجال عالم الوحده الصوفيه . والغموض الذي يغلب معانيهم وأفعالهم هو سر معرفتهم للكون والحياة والخالق عز وجل وهي دنيا خاصة بهم وهي دنيا ليست من إختصاص العلماء ورجال الفكر وأن العلم قاصر على ارتياد هذا العالم . . حين يقول . .

فان كنت يا قاضى قرأت مذاهباً | فلم تدر يا قاضى رموز مذاهبنا
فمذهبكم اصلح به بعض ديننا | ومذهبنا يهجم عليكم إذا قلنا
قطعنا البحار الزاخرات وراءنا | فلم يدر الفقهاء أين توجهنا
حللنا بواد عندنا أسمه الفضا | فضاق بنا الوادى ونحن ماضقنا
حللنا بقرب الغاب روحاً من الدنيا | درجنا شموساً أخجلت شمس نورنا
الحقنا على العرش على الكرسى العلى ولوحها | لبسنا ثياب النور بحسن جمالنا

هذا تلميذ من تلاميذ الشيخ تاج الدين البهارى رضى الله عنه . أخذ عنه الصوفية ولم يأخذ منه العلم حتى اباح لنفسه الخروج على تعاليم الاسلام والدين وجعل نفسه فوق القوانين والشرائع وأنه من طبيعة أخرى وأن له غرما للبشر مما جعل القاضى دشين قاضى العدالة يستقضم منه بعد أن شكت اليه الناس فى ارجى قرب رفاعه وخروجه على المألوف من عادات الناس وتعاليم الاسلام .

هذا الشعر الذى قاله الشيخ محمد الهميم رغم أنه لم يكمل معارفه اللغوية والعروضية مع الشيخ تاج الدين البهارى إلا أن ملازمته اه وسماعه للشعر الصوفى الصافى الموزون الفصيح جعله يقول هذا الشعر وإذا قرنا كلمات هذا الشعر الصوفى بالشعر الذى أتى بعد ذلك لتلاميذ رجال الصوفية على شيوخ الصوفية وأنهما كهم فى المعرفة الربانية دون الاهتمام بالعلوم واللغة جعلهم ينظمون الشعر باللغة العامية والفصحى وذلك لاجتهادهم فى العبادات وقلة إطلاعهم فى علوم الفلسفة واللغة والفقه الامر الذى اتحدد بتفكيرهم وأصبحت أحكامهم عبارة عن

تصورات لاتقوم على منطق أو دليل وكذلك جاء شعرهم بعيداً عن الفن وقواعده وهم ضد القواعد والأصول .

ومثال ذلك قول الشيخ الصالح بأنقسا الضرير من الأولياء الصالحين ومن الصوفية الكبار فى مدحه للشيخ محمد الهميم .

هـــذا المربى الـكرام سادات	سلطان زمانه فأطلبوا دعوات
الشيخ محمد يوم لقى العرضات	هو يشفع لى يوم تكشف العدرات
لا النار تخاف منها ولا الجنان	يشتاق لها نظر الآلة حاجات
المـولى مقصوره أعطـــاه	تـاج الدين أبوه وبه حالات
مـروى عن سـد السادات	بيت الآلة فيه يصلى أوقات

وهنا نلحظ الفرق الكبير بين شعر الشيخ محمد بانقا والشيخ محمد الهميم فالثانى لازم تاج الدين البهارى وجعله خالفاً له فقال شعرا شبه فصيح ولم يكن من تلاميذ الصوفية المجهدين ثم جاء الجيل الذى تتلمذ على الرعيل الأول الذى عادى المعرفة والمنطق ولذا لم يستفد الشيخ باتقان علوم اللغة العربية وأنما كان إهتمامه بأمور الصوفية أكبر لذا لم يتوسع فى معرفة اللغوية والعروضية وجاء شعره عاميا متأثراً بموقف شيوخه .

كان تلاميذ الشيخ تاج الدين البهارى أكثر فصاحة فى شعرهم كجيل رائد وكلما سار الزمن وتتلمذ التلاميذ على شيوخ الصوفية الذين اهتموا بالمسائل الروحية وأهملوا المسائل العقلية رأينا الشعر ينحدر إلى العامية للفصحى ومن ذلك قول تلميذ الشيخ محمد الهميم الشيخ سليمان الطوالى الزغرات حين قال فى عروسة التى تزوجها فوق أختها حين رفضت الدخول عليه .

يادى العـروس البـكاية	غاروا عليك أهـل الراية

جعلوك قصبة وشاية

وقد شاركت النساء فى قول الشعر الصوفى ومنهن امرأة من نساء قرى بلد العيد لاب حين مدحت الشيخ شرف الدين عبدالله الوكى

شرف الدين أنا بالله وبيك	يا الماسكى الشباك بأيديك
من خلاى نعلا تأى رجليك	كل يوم اتبركى بيـــك
ياشجره وقت الله أداك	لانيلا سقاك لامطراً جاك
ولد دوكى كل يوم يغشاك	سوالكى ورقيا يغشاك

ومن الصوفية الذين ألقوا الشعر الولى أسماعيل صاحب الربابه ابن الشيخ المكى الدنلاشى ومن أخباره أنه حين تأتيه الحاله يمشى فى حوش منزله ويحضر البنات والعرايس والعرسان للرقيص ويضرب الربابه كل ضربه لها نغمه يفيق منها المجنون وتذهل منها العقول وتطرب لها الحيوانات والجمادات حتى أن الربابه يضعونها فى الشمس أول ماتسمع صوته تضرب من غير أن يقبض بها أحد ومن أشعاره فى الحرب وفرسه .

بنت بكر المرداوبوادبوا	سلطيه العرضه ديودبوا

وفى غزله فى الجمليه الكرتانيه

جره الفونج عرق طالب الدبيبه	قيصه لاكاب حاقب له عينيه
خشم توجه شبيه ابن الكشيبه	كفل من تور تواق وادليبه

وكذلك

صاح مطر الصعيد وصاح المقرر ... خفيف القلب من الكمكاع مرد

خشم تهجه عن الكذب بجرد ... مريسته فوترينه وورد امترد

وقال كذلك

صب مطر الصعيد وعاش بالبت عايد ... فوق خشم البيوت جروا الكسايد

النسوان بلا هيبة ام قلايد ... لحم سوق رفيعى مثير بحدايد

صب مطر الصعيد وطاق علينا برده ... خشم هيبه يشبه طيات البحر دوا

تعجبك فى الرقيص حين ماتهرده ... يأهنيه من هواها وقضى غرضة

ولما سمع زوجها بذلك رحل بها إلى تعلى فسمع الشيخ بذلك فقال

نسل السيف تلوح فوق أم قبالة ... تكرب الزم مكان أسمع مقاله

وجهة من نطاع فوق الصناقله ... نخلات عروسك ديك بطاله

نسل السيف تلوح فوق أم عوايد ... نطلب العنكشو ام طبعاً موافق

وجهة من شافت الجمل تلافق ... نخلات عروسك ديك مايتوافق

تشيل نحتفل فوق أثرها ... تشق ام وزت البهف مطرها

مهره الصنلاوى المكنوز طبرها ... تعاق المورود الداخل كبيرها

إذا أردنا أن نقيم هذا الشعر لاشك فسوف نضعه مع شعر الصعاليق شعر المتمردين على القوانين الاجتماعية كما كان يفعل معظم شعراء العرب فى مطارده

نساء وخليلات الرجال واستباحوا لنفسهم هذا الحق .

فطابع الشاعر العرب ماذالت فى دماء هؤلاء العرب الذين استوطنوا السودان ولاشك أنهم أدخلوا نماذج كثيرة لم تحفظها لنا المخطوطات

إنتشر الشعر الصوفى الفصيح فى النصف الأول من القرن السادس عشر وصار يتدرج فى بيوت الصوفية الذين لم يهتموا بقواعد اللغة وفنون الشعر أذ كان اهتمامهم التوصل إلى أرضاء الله عز وجل وظهور الكرامات عليهم جزاءا لحبهم لله وصار الشعر ينتقل من فصيح إلى فصيح وعامى وعامى حين جاء القرن السابع عشر فانتشر الشعر العامى بين الصوفية وابتعدوا عن شعر الوجدان والحب

وذلك لقلة إهتمامهم بالاطلاع على كتب الصوفية الأوائل ومناقشتها واكتفوا بما ظهر لهم من كرامات عند بعض شيوخهم مما شغلهم عن العالم الخارجى وصاروا يتناقشون على الايمان بمثل هذه الكرامات والخوارق ، وأهتموا بما يوصلهم إلى هذا المستوى وقل اهتمامهم بآداب الصوفية الأوائل واجتهادهم فى علم التوحيد والعلوم العقلية . وأستمرت هذه الحالة بعدم الاهتمام بالعلوم العقليـة خلال القرن السابع عشر والثامن عشر حتى عصر الشيخ أحمد الطيب شيخ الطريقة السمانية الذى إستفاد من تجواله فى البلاد العربية الحجاز ومصر وبيت المقدس واحضر عدة من الكتب والخطوطات ماجعله يرتفع بمستواه العلمى فى حالة التشرد والهيام إلى عالم العلم والحقيقة وكان محمد احمد الدنقلاوى الذى لقب فيما بعد المهدى خير شاهد على مكتبة هذا الشيخ العالم التى استفاد منها المهدى خلال عشرين عاما حتى استطاع أن يتمرد على سلوك شيوخه من الصوفية لما رآه من تعالم التى تعارض ماقرأ وما أدرك من عالم الدين والحقيقة .

بدأ الشعر العربى فى السودان بعد قيام دولة سنار فى بداية القرن السادس عشر وليس بدخول العرب السودان لأن رحلة الاستقرار الطويلة غير عشرات السنين التى اشتركت فيها الاجيال الاولى حياتها عبر الوديان والسهول والحياة المتخلفة للبحث عن مصدر عيشى ومأوى بخرت من عقول الأجيـال الأولى والأجيال التى تلتها كل مقومات الثقافة والحضارة داخل هذه الحياة البدائية حتى تأقلموا على الحياة الجديدة بتفاهموا ويعاشروا أهل السودان .

بدأ الشعر السوداني الصوفي بعد رحلة الاستقرار التي كان نتيجتها الحلف السناري شعر وجداني رقيق بسيط الكلمات رقيقها حبيب إلى النفس وذهب حيث ذهب الصوفية وحيث ذهبت الرسالة والخليل ومريديه في ذلك قول الأوائل في الصوفية. وكان هذا الشعر أجمل شيء يبقى في النفس دون إرهاق للعقل والوجدان ، إلا إن الصوفية أوقفت تطورها الثقافي لقلة الاجتهاد في كثير من الأحيان ولم ينتجوا لنا غير بعض المخطوطات لقلة من المجتهدين مثل كتاب في الطريق وآداب الذكر للشيخ إسماعيل صاحب الربابة وكثير من المخطوطات في تفسير الرسالة والخليل وبعض الدراسات في التوحيد والصوفية ولم تصل لنا من تلك المخطوطات إلا إخبارها حتى نستطيع أن نقيم مادتها وسعة إطلاع أصحابها وعمق فكرهم إلا إن هناك ظاهرة يجب الوقوف عليها ، وهي تلك الزيارات التي كانت بين رجال الصوفية لشيوخهم وتدارسهم في بعض الأمور ومحاولة الاستفادة من شيوخهم المشهود لهم بالعلم كما كان يفعل تلاميذ الشيخ خوجلي بن إدريس الأرباب وكذلك تلاميذ الشيخ الزين بن صغير من بلاد الشايقة حيث كانت حلقة علمه أكبر حلقة علم عرفها العصر وتخرج على يديه العديد من الشيوخ والفقهاء والقضاة . وقد توفي في النصف الثاني من القرن السابع عشر عام ١٦٧٥ م بالقوز بالقرب من مدينة شندي .

وقد رثاه الشيخ محمد ولد الهدى بشعر ركيك بمقاييس هذا الآن ، أما بمقاييس ذلك العصر فيعد محاولة جادة لكتابة الشعر العامي الفصيح لقوله :—

فكم من رجال لهم شأن ومعرفة	بسبب علمه سموا كالأنجم الزهرا
إلى الغروب جرى الاسلام علمك ذا	بلد البرادي وما في الأرض نفرا
نشرت علماً على الآفاق تعرفه	كل النواحي وأهل البحر والضرا

ياعين أبكى على الاستاذ لاترخى   وقبض دمعاً غزيراً جاركا المطرا

من اذا يكون بعدك للطلاب بأهلهم   بأنطلاق وفرحات بلا كشرا ؟؟

ومن شعرهم العامى قول الشيخ فرح ودتكتوت فى رثاءه للشيخ أبو بكر ولد قدير وما يحكى عن مستوى العلم فى ذلك العصر ، قصة الشيخ ابو بكر ولد قدير ، يحكى أن درس مختصر الخليل على شبخة الذين مرة واحده وأذن له بالتدريس ، وكان هذا مستوى إساتذه العلم وقد أشتهر الشيخ ابو بكر بالعالم الجليل وتخرج على يديه علماء وشيوخ وهذا يكشف لنا مستوى التعليم العلمى فى عصرهم قليل فى المعرفة بعد علما وبسط الجاهير الجاهله ويسمى صاحب هذه المعرفة اليسير بحر العلوم كما قال فية فرح ودتكتوك .

اين ابو بكر المدرس   فى النصوص يجمع يكرس

فوق مطايا المزمدرس   حتى يصبح الخانق مكرس

ومن شعرهم العامى مدحهم أيضاً هذا الاستاذ من تلاميذه

جبل البايمة البقيت لها ركازة   فى غرب دار صليح الى شرف بلودالبارة

ذهب التاجر لما قلبة العطار   مثل الشمس خفيت الجبة مع العكار

وقال آخر .

بالكاف كفاية البايع الجيعان   فى الفونج والعرب ماله نظير ولا اوزان

رحمة من بوادى الخلقة الرحمان   أم الجابتو فاقت على النسوان

بالام فى سرايا قوم الهميم ملم   دود الكرده البيكرف نقطة دم

الجود والعباده غيرهما ماهم   مكة مجالسه وقت الرجل تنضم

ومن شعرائهم أيضاً الشاعر أبو جروس شاعر الشيخ إدريس الأرباب قال في أبنه حمد على قلة عطاءة للشعراء خلاف ما كان يفعل أبيـــه من تكريمهم وعطاءهم .

الشعبة الكانت تانيـــة   إنكسرت وأدتنا العيبه

تركت حـــــد القلبية   لامن جات قال ادوها العيبة

وقال في مدحة على كثرة الكسرة والذبح

ولد عشوم معاكم ملم على حمدن   دار أبوه بويت عنوت من الشقين

ولد القرشي صفاته مايه وألفين   هيلك هبل إبوك ياجادع الشرقين

وفي الشعر الصوفي شعر الشاعر القرشي شاعر الشيخ أحمد ولد الطريق .

وهذا مثال لشعر المدح والذم ، فقد تعود الشعراء على عطاء الاغنياء فيغنون لهم كما فعل شعراء العربية ، وهذا خير مثال لغضب الشعراء على ابن الشيخ أدريس . حين أوقف العطاء وأكثر في الطعام واشار الشاعر بأن هذا !!
وليس ملكه .

شوت عود وشود أبو نخيره

شعرت ديكو وشعرت العبد سعيد

حرم شرف نار البريده

بطنك من أكل الحرام بدينة جزم ما تكرع الشينة

وقال فيه شاعر :

عبد الملك بحلف طارد الصقلوم طاردناس ابرحمد صقر الحلا الملقوم
داري تحت صبفه لصق مسموم ورقدها جبينة ونوم الخرطوم
من سنار مرق ولد التامي حباك يجي في الرقيق والخلوق تمباك
أبوي بيد المايحه المسكت الشباك صقع العبد بعصا وفقد حاشاك

ومن شعر الشيخ أحمد ولد الطريفي الصوفي :

أداني الله أداني زهدني في كل فاني
عشق به اضناني في ذاته أفناني
أيضا به أبقاني يجري كما طوفان
خلي من عرفاني اضحى من الفرسان

وهذا من شعر المجاذيب الذي يأتيهم ساعة الغيبوبة غير محكوم بمقاييس العلم ولا المنطق ومن الغريب أنهم لايعدون هذا الشعر الذي لايدرك معناه غيرهم لانه كلام أتى في ساعه غير طبيعية ومعاني غير معروفة وكلمات غير مطروقة حتى جعلوا معنى هذا الشعر سرا من أسرارهم مع أنه خال من المعنى والمنطق ، وقد حاول بعض النقاد البحث عن معاني كلمات شعراء الصوفية التي ليس لها معنى وحاولوا أن يجدوا لها دلاله منطقية إلا انهم عجزوا ومنهم من سماها مصطلحات

صوفيه متخارفه عند الصوفيه ـ كمثل هذا الكلمات : كو ، كو ، سكم ، بكم ، بكم ألخ على هذا الوزن وقات عليهم حالة الأنطلاق الشعوريه ، وعدم التقيد بنطق وواقع ساعه التدفق الصوفى : والشعر الذى قالوه فى تلك اللحظات ليس شعرا له معنى ودلاله ، إنما هو نوع من الموسيقى اللفظيه الموجوده فى الكلمات والحروف العربية يستعيض بها الصوفى ساعه غيبوبته فى ضربات النوبه والطار وموسيقى الذكر الصاخبه فكل ألفاظ أشعارهم ماهى إلا البحث عن موسيقى صوتية تساير حالتهم المضطربه القلقه الباحثه عن شىء ساعة الانجذاب . إلا أنهم رغم ذلك اعطونا صوره متعدده لهذه الشخصية فهى مرة شخصيه عالم ومره فارس ومرة رجل خوارق ومرة شخصية لرجل ورع صالح وتارة شخصيه لانعرفها ولا نعرف ملامحها حيث لا نعرف كلماتهم .

إحتلت الشخصية الصوفية ذات الكرامات والخوارق مكانه كبيره فى المجتمع السودانى . اولا لاهتمام رجال الصوفيه بهذه الخوارق وهذه الافعال الغريبه على الانسان وتفسيرهم لهذه العادات تفسيرات تختلف عما إعتاده كبار الصوفية فى العصر العباسى والفاطمى . فقد فسر الصوفية الاوائل بأن المعجزات فى صفات الانبياء وليست لسواهم من البشر . وما يظهر على البشر من بقية المسلمين من كرامات ماهى إلا أكرام لمحمد فى عبادة المسلمين وهى امتداد لاكرام الله لنبيه .. ولكن رجال الصوفيه فى السودان انفردوا بتفسير غريب لهذه الكلمات وذهبوا فيها مذاهب شتى وجعلوا أنفسهم موضع الاهتمام والتنافس حتى لهوا الناس عن عظمة الخالق ونبيه وانشغل الناس بالحديث عنهم وطلب المغفرة والرحمه والشفاعه منهم أكثر من توجيه عقول الناس إلى أنهم لا يساوون شيئا بالنسبة للخالق العظيم ونبيه خاتم المرسلين وقل حديث الناس عن عظمة الخالق ومعجزات أنبيائه ورسله .

ونرى ذلك فى شعرهم وهو أكثر الشعر الصوفى الذى قيل فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ولم يتطور للشعر الصوفى الأول إلا فى القرن التاسع عشر والعشرين ، مثال ذلك قول الشيخ طه الحاج لقانى فى شيخه حسن ولد حسونه :

سلام الله ربى ذى الجلال	على شيخ الطريقة والوصال
سلام فى طباء وهاء	على الشيخ المكمل بالخصال
والفه التحية الف مره	والف سلام خير نال
جميع الخلق قد جزمت عليه	بحسن الحسن فى حسن الفعال
تحيته تغالب كل خير	وتبعد عن كل ذى شر وبال
ونرجوا أن نفوز به جميعا	بدنيانا وأخرى بالمال
ويسعدنا الاله بجاه من	حماك الله يا بن خال من دك الخلال
وانى فى حماه وجميع أهلى	وما أرجوه عن كل الامال
بفضل الله ثم رضاه على	أروم بحبه نيل النوالى
فيا أنسا كموا فى كل وقت	بليل أو بصبح والزوال
فلا تنسانى وفى اللحظات أنى	غريق الذنب فى بحر الخيال
فهاك جفاه فى بعادى	ولكنى أخاف من الكلال
قال زرنا إتنا باجتهاد	وأنى عنا لقصدك واشتغال

وهذا الشعر إذا قيس بالشعر الصوفى لا يبعد عنه وتذكر له وفيه لرفعة الإنسان ووصفه بالكمال الذى لا يتصف به الا عز وجل والقصيدة بعيدة كل البعد عن الشعر الصوفى وهى تمجيد للفرد وعبادته وتشبيهه بالأنبياء واعطائه من صفات الخالق عز وجل ..

كما اهتموا بحالات رجال الصوفيه ومتابعتها وتسجيلها لتنشر بين الناس ويتناقلها جميع الناس مثل ذلك قول الشاعر فى عيسى ولد كنه :

ولد كنت لما جاتنه الحاله　　　دقو له الوردات بالسنداله
المولى سبحانه وتعالى　　　خل النار له شلاله

هذا هو الموضوع الذى شغل الشعراء وجعلت الصوفيه الكثيرين من المنجذبين غير المتعلمين والمهتمين بعلوم اللغة والدين وكما أسلفنا قل الاطلاع عند الكثيرين من الصوفيه وا كتفوا بالكرامات والخوارق مما عاد بالشعر من الفصحى إلى العاميه والفصحى إلى الغاميه إلى ثم لغة غير مفهومه غريبة على الفصحى والعاميه ، ومتتابع رحلة الشعر فى القرن التاسع عشر فى حديث عن الثقافة فى ذلك القرن .

حيث بدأت مرحلة جديده فى حياة السودان والثقافة العربية ببداية القرن التاسع عشر الميلادى وعاد الشعر إلى أصله العربى واخرج طلاب المعرفه من عالم الكتاتيب (الخلاوى) الى عالم الازهر وأروقته وأخذوا من معارف العرب وتراثهم .

• • • • • •

وقفة مع الثقافة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى

لمعرفة الحياة الثقافية والعلمية فى القرن التاسع عشر الميلادى لابد لنا من معرفة الحياة العلمية فى القرن الثامن عشر الذى أشتهر بمنطقتين رئيستين كان لهما الأثر المباشر فى حياة الثقافة والفكر خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . وقد نبع هذا النشاط من منطقتين هما الدامر حيث أقام حمد المجذوب وأرض المرروواب حيث أقام أحمد الطيب شيخ الطريقة السمانية التى غلبت كل الطرق الصوفية فى السودان وعلتهم مكانه وخرجت الكثير من من رجال الصوفية والعلوم الدينية ومنهم الشيخ نور الدائم وتلميذه محمد أحمد الدنقلاوى صاحب الثورة الثقافية والدينية على المعتقدات القديمة والجهل بالشريعة وعلوم الدين وعلى أعراف الصوفية .

فقد خرجت مدرسة السمانية ثلاثة رجال كان لهم أثر فى الثقافة والفكر فى السودان أولهم الشيخ أحمد الطيب ونور الدايم والشريف محمد نور الدايم والعلامة محمد أحمد الدنقلاوى تلميذه وزعيم الثورة المهدية .

الشيخ أحمد الطيب صاحب الطريقه السمانية إصله من قبيلة المجموعية ولد فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى أى فى النصف الأول فى القرن الثامن عشر الميلادى وتوفى عام ١٨٢٤ م - حفظ القرآن وعمره خمسة عشر عاما وسافر إلى مكة حيث واصل دراسته على يد القطب الكبير محمد السمان الذى لقنه العلوم الصوفية وأخذ منه الشيخ أحمد الطيب الطريقة السمانية . ولما عاد للسودان نشر الطريقة السمانيه التى فاقت جميع الطرق الصوفية . ولقد كسب الشيخ أحمد الطيب

لإحترام ملوك السلطنة السنارية وشيوخ العبدلاب ومنحوه الأراضى الواسعة التى وهبها بدوره للآخرين .

ومما يدعو الوقوف ما جاء فى مقال الشيخ عبد الله الطيب نور الدائم فى جريدة السودان العدد الناشر بتاريخ ١٩٠٣/٩/١٧ .. وحكى أن جده أحمد الطيب قد يئس من حكومة السلطنة السنارية والفوضى التى كانت تعيش فيها وتأخر بلاده بالبلاد العربية التى كان يزورها فدعى سلطات الحكومات العربية لدخول السودان وتعميره وتطويره فى الادارة والثقافة . وقد كان نظرة الأستاذ أحمد الطيب نظرة حضارية وذلك لاتاحة الفرصة للسودان ليتصل بالامم المتقدمة ويدور فى فلكها لتحرر من التخلف والجهل وذلك الاستفادة من خبرة تلك البلاد ولكن دعوته هذه لم تلق إستجابة عند الاتراك وذلك لجهلهم بخبرات السودان وظنهم إن السودان بلد متوحش أهله من الزنوج وليسوا من المسلمين وما سمعوه من الروايات الخرافية الكثيرة التى كانت تقال عن سكان أفريقيا . . .

وقد قال الشيخ عبدالله الطيب نور الدائم شيخ الطريقة السمانية بمصر بعد أن هرجه من يد الخليفة عبدالله ، قال لما عاد سيدى الشيخ أحمد الطيب من الاراضى المقدسة وزار مصر وبيت المقدس والعراق وأكثر البلاد الاسلامية ورأى ما فيها من التقدم والعمران بالنسبة لحالة السودان أحب ان تصير بلاده مثلها فكان لاينفك عن دعوة الاهلين إلى السعى إلى ضم السودان إلى حكومة مصر والقضاء على دولة الهمج التى لايرجى منها أن تسير بالبلاد فى الطريق الذى صارت فيه مصر والشام..

وقد كان أخوته وبنو عمومته القابضين على خطط هذه الدولة لهم منها وظائف الوزارة وقيادة الجنود ومراتب القضاء والكتابة وسائر خطط الدولة . . .

أشار على الدولة بإصلاحات كثيرة وبث الرغبة في افئدة الكثيرين من طلاب العلم ليغادروا ديارهم لطلب العلم حتى لو بالصين فعادت مساعية بالنجاح وانتشر علم الدين في الافاق بعد أن كان الناس يسافرون الأيام والليالي ليصلوا إلى بيت عالم يفتيهم أو يعقد لهم نكاحه .

حديث الشيخ عبدالله الطيب عن جده أحمد الطيب يكشف لنا عن مركز ثقافي هام أنشأه الشيخ أحمد الطيب بالقرب الخرطوم وقد نتج هذا الاهتمام بنشر الثقافة والعلم من الخبرة والضرورة التي يراها الشيخ أحمد الطيب في البلاد العربية التي كانت تعيش في اسوأ حالتها والكذوا رغم ذلك رأى فيها من مظاهر التطور والعمران إذا قيس بحال السوداني المتخلف تحت ظل السلطنة السنارية ، كما يكشف لنا تأثير مدرسة الشيخ أحمد الطيب في تخريج القضاة والمعلمين والمستشارين لحكومة السلطنة السنارية في عهد الهمج وذلك في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر ..

مدرسة المجاذيب :

احتلت الدامر مكانة كبيرة في العصر الثامن عشر والعصور التي تلت ذلك بفضل شيخها أحمد المجذوب ، حفظ القرآن على الفقيه عبد الماجد تفقه في خليل والرسالة على الفقيه مدني بن محمد وعلى الغزاوي وعلم الكلام عن الحاج سعد وحج إلى بيت الله الحرام وأخذ الطريقة الصوفية الشاذلية على يد الشيخ على الدراوي ..

وأنتعشت الدامر بحياته فقد قام للتدريب بها فى شتى العلوم والفنون والأحكام وهو من جمع بين العلم والعمل .. وقد كانت تخاف منه الأعراب وقطاع الطرق وقد جاء فى كتاب بوكهارت فى رحلاته فى بلاد النوبة وصف مدينة الدامر له فى ١٠ أبريل سنة ١٨١٤ م .

يقول الدامر قرية أو بلدة كبيرة قوامها خمسمائة بيت وهى نظيفة تفضل فى شكلها بربر لما فيها من المبانى الجديدة ولخلوها من الخرائب فى بيوتها شىء من التنسيق وشوارعها منتظمة وتنمو فى كثير من أرجائها الأشجار الوارفة الظلال ويسكنها عرب من عشيرة آل المجذوب ويردون أصلها إلى جزيرة العرب وجلهم من رجال الدين أو الفقراء وليس لهم شيخ يتزعمهم بل فقيه يسمونه الفقى الكبير وهو الرئيس الفعلى والقاضى الذى يفصل فى خصوماتهم ويشتهر آل المجذوب الذين أصبح هذا المنصب وقفا عليهم من قديم بما تجب عشيرتهم من سحرة وعرافين مهرة لايحجب عنهم غيب ولاتقاوم لهم تميمة . .

ويخيل إلى أن وظيفة الفقى الكبير وراثية ولابد أن يتوافر فيمن يليها بطبيعة الحال الذكاة . ورجاحة العقل والفقه فى الشريعة لأن هذه كلها من مقومات وظيفته على أن الفقية الكبير ليس ساحرهم الأوحد فغيره من الفقهاء الأقل شهرة كثيرون ممن يؤمن الناس بهم على قدر تقواهم وعلمهم وهكذا اكتسبت بلدة الدامر بأسرها صيتاً ذائعاً وفى البلدة يمارس الناس التعليم فى مدارس عدة يؤمها الطلاب من دارفور وسنار وكردفان وغيرها من أنحاء البلاد ليدرسوا الفقه دراسة تتيح لهم أن يكونوا فى بلادهم فقهاء كباراً .. ويقتنى فقهاء الدامر من الكتب الشىء الكثير ولاكنها لاتتناول من المواضيع غير الدين والشريعة

ورأيت فيما رأيت نسخة من القرآن لا تقل ثمنها عن أربعمائة قرش ونسخة كاملة من تفسير البيضاوى تساوى ضعف هذا المبلغ فى مكتبات القاهرة وقد جلب هذه الكتب من القاهرة الشباب من فقهاء الدامر أنفسهم فكثير منهم يجاور الأزهر الشريف أو فى المسجد الحرام بمكة ويظلون سنوات ثلاث يعيشون على الصدقات والجرايات . فاذا عادوا إلى الدامر علموا الطلبة تلاوة القرآن وأعطوهم دروسا فى التفسير والتوحيد ولهم جامع كبير حسن البناء ولكنه بلا مئذنة وتمتده عقود من الاجر وأرضه مفروشة بالرمل الناعم وجو الجامع ألطف أجواء المدينة وأرطبها وإليه يأوى الغرباء للتقيل بعد صلاة العصر ويلحق بالجامع مكان مكشوف تحيط به حجرات للدرس . . ولكثير من الفقهاء زوايا صغيرة إلى جانب بيوتهم ولكنهم لا يصلون فريضة الجمعة إلا فى الجامع الكبير ويحيط كبار الفقهاء أنفسهم بمظاهر الورع والتقوى ويعيش الفقى الكبير عيشة العابد المتقشف فهو يسكن بناء صغير يقوم وسط ميدان كبير من ميادين البلدة . وقسم من البناء مصلى والقسم الآخر حجرة مساحتها نحو أثنى عشر قدما يقيم فيها ليل نهار لا يبرحها ، بعيداً عن أسرته وحيداً لا خدم معه ولا أتباع وهو يعيش على مايرسله له أصدقاؤه أو أتباعه من فطور وعشاء وإذا كانت الساعة الثالثة عصراً بارح حجرته بعد إعتكافه سحابة نهاره للقراءة والدرس ثم اتخذ مجلسه على مصطبة من الحجر أمام داره وألم به اخوانه وأتباعه فجعل يصرف أعماله حتى الغروب . . . وذهبت مرة لاقبل يده فراعنى منه محيا وقور وطلعة جليلة وكان يلتف بعباءة بيضاء تغطيه كله .. وكان يجلس بجواره شيخ مغربى مكناسى قدم من مكة يشتغل عنده كاتبا ويصرف له كل أعماله الرسمية وذكروا لى أن هذا المغربى أستطاع أن يجمع من وظيفته مالا طائلا .

ويلوح لى ان شئون هذه الدولة الدينية الصغيرة تصرف بمنتهى الحكمة والعقل وجيرانها يكنون للفقهاء أعظم الاحترام والاجلال . ألقوا الرهبة فى قلوب البشاريين الغادرين فلم يسمع أحد . انهم اعتدوا على دامرى يعبر الجبال من بلده إلى سواكن : وأخوف ما يخافه البشاريون أن يقطع الفقهاء عنهم المطر بسحرهم فتهلك اغنامهم ومواشيهم .

أما الزينه والفنون فيقول بوركهارت عن أهل الدامر (ويزين نساء الدامر غرف جلوسهن بعدد كبير من الصحون الخشبية الواسعة يعلقنها على الجدران فيبدوا وكأنها الصور الكثيرة . أما الأرض فيغطينها بالحصر الجميلة مختلفة الرسوم والألوان ولاغرو فالقوم خبيرون بصنع خوص الدوم وكذلك رأيت بيض نعام وريش نعام أسود معلق على الحائط فوق الباب للزينه) .

مع الفن :

إذا وقفنا مع الفن فى هذه المنطقة حتى شمالها وجنوبها إلى منطقة أبو حمد والخرطوم نجد تشابه الحياة الطبيعية على النيل بالنسبة لشمال الدامر وبالنسبة لجنوبها وتكاد الدامر أو نهر عطبره بداية لوجود تربة جديدة جنوبه وشماله حيث تختلف النباتات الطبيعية بعض الشيء وتظهر أشجار الدوم والنخيل وفى الجنوب تبدأ الاراضى الواسعة على الشاطىء الصالحة للزراعة مثل زراعة القطن بكميات بسيطة بجانب الخضروات والذرة وتقوم على الشاطىء أشجار (السنط العربى)

وإذا أردنا أن نتتبع الفن فى هذه المنطقة فسوف نجد الامكانيات الطبيعية

هى التى تشكل الفن وهى الرسوم والتخيل والتربة الصلصالية عند الجزائر والشواطىء الرملية بعيداً عن الشاطىء وبعض الاحجار والحصى . والمواشى وجلودها وزعفها وقد استغلت هذه الامكانيات استغلالا مختلفا عبر العصور فقد استعملها الفراعنة للعبادات وتجميل المعابد وزينة النساء واستخدمها المسيحيون إستخداماً جديداً فى التعبير عن البساطة وحياة المسيح والعذراء واستخدمها سكان النيل بعد دخول العرب والاسلام زينة للمنازل وللنساء وحياة المنزل وهو استخدام يتطور بتطور الفكر الدينى وليس الفكر الجمالى ، فالجمالية قد أختفت فى العصور الوسطى بعد دخول العرب وأصبح الاهتمام بالاشكال الجميلة نوع من الترف والانحراف الدينى وأصبح الجمال هو جمال الروح واجتهدوا لتعويض هذا النقص فى مظاهر الجمال الصناعى بخلق جمـــال معنوى نابع من الاخلاق والعادات والتقاليد ...

وقد ظهر نوع من الزخرفة فى ملابس الدروايش والصوفية فى العصور الوسطى أمتد حتى القرن العشرين كان فى مجموعه تعبير عن عدم الانسجام وتنافر الالوان وكأنهم أرادوا خلق انطباعات مختلفة باختيار الوان صارخة متنافرة لا تدل على الانسجام والصداقة .

أما الموسيقى والرقص فقد أخذت نفس الطابع سائرة مع اشكال التطور المختلفة ، فقد استخدمت الموسيقى والرقص فى تأدية الشعارات الدينية فى العصور الفرعونية حين إنتقلت الحضارة الفرعونية إلى منطقة مروى أما فيما سبق هذا العصر فقد كانت الايقاعات تعبر عن الفرح والسرور والحزن والخوف والاستعداد والرقصات نفسها كانت رقصات ايقاعية وكانت الموسيقى هى الضرب على الايدى والارجل وآلات النفخ البسيطة من النباتات ثم تطورت الموسيقى والرقص المصاحب لها تعبيراً عن المشاعر الدينية فى فترة الوثنية الفرعونية وذلك أثناء

طقوس المعابد واحتفالات النيل والزرع والحصاد والموت والزواج والختان ..

واذا تابعنا عطاء هاتين المنطقتين الدامر وشمال الخرطوم حيث أقام السادانية والمجاذيب نجد تجمعاً كبيراً من طلاب القراءة وحفظة القرآن والطالبين للالمام ببعض أمور دينهم وقد كان لعلم هؤلاء الصوفية بين تلك المجموعات الجاهلة أثر كبير بجانب التقدير الصوفي الذي احاط بهم وأعطاهم مكانة أجتماعية جعلت قبول تعاليمهم وأرشاداتهم الدينية مقبولة ومحترمة أكثر من رجال العلم الذين فقدوا هذه الميزة الصوفية .

حمل تلاميذ هاتين المنطقتين رسالة العلم رغم بساطة المعرفة التي كانت تعطى لهم إلا انها كانت برهاناً تقتصر اللقاح الطيب في القرن التاسع عشر على يد الفتح التركي وحضور الوفود العلمية مع الفتح التركي من قضاة ومعلمين وخروج الطلاب إلى اروقة الأزهر والاقامة به على نفقة محمد على باشا ليعودوا عمالا في دولته الجديدة .

. . . .

رفاعة رافع الطهطاوي في السودان

إذا تتبعنا آثار النهضه الثقافيه فى العالم العربى فى بداية القرن التاسع عشر بعد حملة نابليون نجد أن روادها الاوائل اتجهوا جميعهم إلى الثورة الفرنسية .. ففرنسا بعد ثورتها واعلان الجمهورية . . . . وخلق طبقة وسطى قوية أصبحت حلم كل مثقف ومتطلع إلى عالم الحرية والعلم والفكر .

فقد انجبت الثورة الفرنسيه رجال من المفكرين مثل جان جاك روسو وكما أنجبت الثورة الفرنسيـة رجالا مفـكرين خدمـوا الفكر الانسانى والثقـافة الانسانية . . وقد حطمت الثورة الفرنسية الفوارق الطبقية وجمعت بين أنصار الفكر والحرية فى مشارق الارض ومغاربها .

ومن هؤلاء الرواد الاوائل كاتب ومجاهد مصرى كان له الفضل الـكبير فى بعث النهضة التعليمية والثقافية وحمل لوائها فى صدق واخلاص واجتهاد وهو رفاعة رافع الطهطاوى المولود ببلدة طهطا . حيث حفظ بهـا القرآن وأجاده كبقية أبناء تلك الفترة ثم أرسله والده للأزهر الشريف ليتزود من علم الازهر وليتخصص فى علومه .

وقد كان الطالب رفاعه رافع الطهطاوى طالب مجتهـداً لفت نظر معلميـه لاهتمامه بعلومه ونبوغه وقد تعهد تعليمة بالازهر رجال أفاضل منهم الشيـخ الفضال والشيخ العطار وقد أهله نجاحه للتدريس بالازهر لمدة عامين .

وقد عرف عن محمد على باهتمامه لانشاء دولة مصرية قوية لتقف قوية متينه

أمام أطماع الاستعمار والتمكن فى مناعة ترهب المتطلعين إليها . ولذلك أدرك أن نهضة مصر وقوتها تكمن فى أبنائها فخطط لذلك بالاعتماد على أبناء مصر فى إدارة شئونها فأخذ يبعث بالبعث التعليميه فى كافة العلوم إلى فرنسا وقد استفادت مصر والنهضة العربية من أولئك الرواد الأوائل ومنهم شيخنا رفاعه رافع الطهطاوى . .

وحين أرسل محمد على بعثة من أبناء كبار موظفى دولته سأل الشيخ العطار أن ينتخب لهذه البعثة أماما من علماء الازهر فوفق الشيخ العطار فى اختيار رفاعه رافع الطهطاوى لهذه البعثة .

وقد كان الشيخ طموحا للعلم ما أن خط رجله على الباخرة الراحلة إلى أوروبا وإلا بدأ فى تعلم اللغة الفرنسية ... وهناك فى الثورة تفتحت عقلية الشاب الازهرى المتطلع للعلوم ووجد المجال مفتوحا لكل راغب ومجتهد . وأجاد اللغة الفرنسية خير اجادة حتى أصبح من خيرة مترجمى العلوم الغربية إلى العربية وقد ساعده على طموحه العلمى العالم الشهير موسيو جومار ثم العالم البارون دساس فكان خير عون له ليفتحا ذهنه على كنوز المعرفة والعلم .

ثم عاد الشيخ الازهرى إلى مصر بعد أن تمكن من اجادة اللغة الفرنسية والاطلاع على العلوم الحديثة فى أوروبا .

عاد رفاعه ثائرا متشبعا بالروح الفرنسية وثورة الطبقه الوسطى .

[illegible] وطنيا مخلصا [illegible] إليه إنشاء مدرسة الألسن بالقاهرة

لتخريج طلبة ليعملوا فى الدواوين وليجيدوا اللغة الفرنسية. ثم مالبث أن اختلف مع محمد على وأساتذته فقرر نقله للسودان .

وكان السودان بالنسبة لاى مواطن ذلك الوقت كالمنفى بل هو منفى حقيقى بما عرف عنه أخبار وأن أهله يعيشون فى حالة بدائية وراجت مثل هذه الاخبار ولذلك كان يتخوف منه كل من يرسل إليه .

وفى الخرطوم عاصمة السودان حط الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى رحاله وأنشأ فرع لمدرسة الالسن انضم إليها أبناء كبار الاعيان لتخريج الكتبة الذين يعملون فى دواوين الحكومة .

وقد استفاد السودان من هذا الشيخ كل فائدة فى وطنه بعد رائد من رواد الثقافة والفكر فى مصر .

إلا أن المدرسة لم تستمر حيث كانت حرارة الخرطوم وسوء المعاملة التى لقيها الشيخ وزملائه مما قضى بوقف المدرسه بعد إن توفيا بالخرطوم زملاء الشيخ رفاعه حيث رأى فى حياه الخرطوم فى ذلك العهد منفى حقيقى ، فهى بالنسبة للمدن السودانيه الاخرى مدينه جديده ليس بها أى شىء غير المرتزقه وحياه السخف ، ولم تسعد الخرطوم الشيخ فصار يرسل التوسل تلو التوسل لرؤساءه يستعطفهم العفو عنهم واعادته إلى السودان وقد سجل لنا فى ليق كتبه شيئا عن السودان بما فى ذلك قصيده هجا فيها الخرطوم وحياتها القاسيه التى اذا قورنت بما رأى من حال المدينه والحضارة فى فرنسا تعد أكثر من بدائيه إذا أمكن هذا الوصف وهذا ماتكشفه لنا قصيدته .

ولقد رأيت فى طريقى ببلاد الشايقية بمديرية دنقلة حرم سنجق يدعى الملك الأزيرق تسمى السيدة آمونة تقرأ القرآن الشريف ومؤسسة مكتبين أحدهما للغلمان والآخر للبنات كل منهما لقراءة القرآن وحفظ المتون تنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحليجه وغزله وتشغيله ولا ترضى أن يشوبه شىء من مال زوجها وبجانب المكتبين خلوات لمن يختلى من العباد والزهاد الحاضرين من أقاصى البلاد لأداء فريضة الحج الشريف ومنزلها كالتكية للفقراء وأبناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام وأمثال ذلك كثير هناك فى ظل الحكومة المصرية

ومما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد على أنه فى عودته من البلاد السودانية استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان إلى مصر وأدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادىء العلوم ثم نقلهم الى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها فى بلادهم وقد شاهدت بعضهم مستخدما بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب ويغلب على الظن أنه بواسطة تنظيمات سعادة شاهين باشا الأخيرة المؤسسة على حب تقدم الجمعية المدنية وعمه سعادة جعفر باشا صاحب الأنظار التمدنية تمكن إيصال التقدمات العصرية بعناية الحكومة فى أطراف وأكناف تلك البلاد التى هى الآن لم تخل قراها عن نوع التقدم فى الحضارة مع مساعدة الوارد والمتردد إليها فى هذه الأيام لقصد الزيارة أو التجارة فإنها أقرب للتمدن من أقاليم أمريكا بكثير وجد أهلها ما عدا بعض الجبال لسانهم عربى فصيح حيث أن جلهم من نسل العرب المتنجعة القبائل قديما يحفظون أحسابهم وأنسابهم وفيهم كمالا واستعدادا وذكاء الفطنة وإنما يحتاجون فى حصول المطلوب إلى اطمئنان النفوس وتأليف القلوب من حكام

أرباب صداقة وعفاف وعدل وانصاف لاتحملهم المطامع الدنيوية على حصر الالتفات إلى الامور الدينيه بل توجـــد القبليه أيضا عند الاهـالى المتأصلين .

ويدل على هذا ماحكى عن الخليفه أبى جعفر المنصور عما جرى بين عبد الله بن مروان بن محمد وبين ملك النوبه مما ذكره المؤرخون فى حق الملك المذكور مع أنه كان من ملوك السودان المتأصلين إذ لم تكن القبـــائل العربيـــة انتجعت إلى السودان ولا تسلط على هذه الأقاليم ملك من أهل الاسلام ولا من العربان وهو أن أبا جعفر المنصور حضره ليلة عبد الله على وصالح بن على فى نفر معهم فقال عبد الله بن على يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن مروان بن محمد لما هرب إلى بلاد النوبة جرى بينه وبين ملكها كلام فيه أعجوبة سقط عنى معظمه وأن رأى أمير المؤمنين ان يرسل اليه لحضرتنا ويسأله عما ذهب عنا وكان فى المجلس فارسل اليه أبو جعفر فلما دخل قال له : يا عبد الله — قال لبيك يا أمير المؤمنين قال أخبرنى بحديثك وحديث ملك النوبه قال يا امير المؤمنين هربت بمن تبعنى بأثاث سلم لى إلى بلاد النوبة فلما دخلت بلادهم فرشت ذلك الاثاث فجاء أهل النوبة متعجبين حتى أبلغ ملك النوبة حضورى فجاء معه ثلاثة نفر فاذا رجل طويل آدم أغبر مستوى الوجه أملسة فلما قرب منى قعد على الأرض وترك البساط قلت ما يمنعك ان تجلس على أثاثنا هذا قال إنى ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله أذا رفعه الله قال ثم نظر إلى فقال لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فقلت عبيدنا أتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم قال فلم تلبسون الديباج والحرير وتتحلون بالذهب وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك وأنقطعت المادة واستنصرنا بقوم من الاعاجم كان هذا زيهم فكرهنا الخلاف عليهم فاطرق يقلب يده ويقول عبيدنا واتباعنا واعاجم دخلوا فى ديننا يكرر الكلام على نفسه

ثم نظر إلي وقال ليس ذلك كما تقول ولكنكم قوم ملكتم فظلمتم وتركتم ما به أمرتم وركنتم إلى ما عنه نهيتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد وأنا أخاف أن تنزل بكم النقمة وأنتم ببلدي فتصيبني معكم فارتحلوا عن جواري انتهى . فقام ابو جعفر وقيدا من كلامه فدخل حجره وقال الله تعالى وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . قال المفسرون في الآية حذف دل عليه ما بعدها اي أمرنا مترفيها أي منعميها بالطاعة فخالفوا ففسقوا فدمرناها تدميرا انتهى — فيالها موعظة بيضاء من ملك أسود ولعل ملوكهم في الأزمان القديمة كانوا كصلحائهم الآن على قدم عظيم من الاستقامة وطريقة قويمة وأما موضع معرض الذم في حق أهل السودان فهو متوجه عام لجمهور أهل البلاد وللعبيد والمولدين ومن يحذو حذوهم من رعاع أهالي تلك البلاد أرباب الدناءة والخسة .

وفي سنة سبع وستين ومائتين وألف كنت مسافرت إلى السودان بسعي بعض الأمراء بتصدير مستقر بوسيلة نظارة مدرسته بالخرطوم فلبثت نحو الاربع سنين بلا طائل وتوفي نصف من عصبتي من الموجهين المصريين فنظمت هذه القصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتخدا مصر برجاء تشلي من أوحال تلك الأحوال فلم يتيسر ارسالها ثم أسعد الحال بتبديل الماضي بالحال الذي هو حال وذلك عقب تخميس لقصيدة نبوية بردية متوسلا فيه بشفاعته خير البرية وها هي القصيدة الأولى : —

ألا فادع الذي ترجو ونادي   يجيك أن تكون في أي نادي

فمن غرس الرجا في قلب   أصاب جنى النجائب للحصاد

ومن حسن الخلائق مالة صنعا   جميلا فهو أرقى بالوداد

وحمدت عن وفاجل وفى ... بوصل حبة فى القلب بادى

ورب أخ تلاهى عنك يوم ... قرب وداده أبد ودادى ...

بنوا الاداب آخوان جميعا ... واخوان بمختلف البلادى

خلائق عنصر كل تغذى ... بآراء العلا دون اقتصاد

وآداب الغنى تعلية وربما ... إلى الانجاد من بعد الوهاد

وآدابى لسانى فى الدراوى ... على شق وتبلغنى مرادى

ومالى لا آتيه بها دلالا ... وقد دلت على نهج الرشاد

إلى سبل الفخار تقود حزبى ... وفى ميدانه عزم انقيادى

عصامى طريق المجد سعيا ... عظامى شريف بالتلاد

سوى نسب العلوم إلى انتساب ... إلى خير الحواضر والبوادى

نحيى السلالة فانتمى ... بطهطا معشرى وبها مهادى

لسان العرب ينسب لى فخارا ... وقد ينمى إلى مس الايادى

وحسبى انى ابرزت كتبا ... تابيد كتابتا يوم الطرادى

فمنها منبع العرفان يجرى ... وكم طرس تجبر بالمدادى

على عدد التواتر معربانى ... تفى بفنون سلم أو جهاد

وملطبرون يسر وهو عدل ... وتمسكوا بقراه بلا تمادى

ومقترقو فراح قرات درسى ... وقد اقترحوا مقابلة كل حادى

ولاح لسان باريس كشمس ... بقاهرة المعز على عبادى

وفى مصر احيا كان قدرى ... وكافأنى على قدر اجتهادى

سأشكر فضله مادمت حيا ... وماشكرى لدى تلك الايادى

بساعى الخديو عهد زمان مصر ... وامطر ربعها صوب العهاد

وصلت بصفقة المغبون عنها … وفضلي في سواها في المزاد

ما السودان قط مقام مثلي … ولا سلماي فيه ولا سعادي

بها ريح السموم يشم منه … زفير لظى فلا يطفيه وادي

عواصفها صباحا ومساء … دواما في اضطراب واطراد

فلا تعجب إذا طبخوا خليطا … بمخ العظم مع صافي الرماد

ولطخ الدهن في بدن وشعر … كدهن الابل من جرب القراد

ويضرب بالسياط الزوج حتى … يقال أخو بلاء في الجلاد

ويرقى ما بزوجته زمانا … ويصعب فتق هذا الانسداد

واكراه الفتاة على بغاء … مع الذكرى ارتضوه باعتاد

فيحجبه المولد وهو غال … بمرغبات دوما باعتقاد

لهم شغف بتعليم الجواري … على شبق مجاذبة السفاد

وشرح الحال منه يضيق صدري … ولا يحصيه طرسي أو مدادي

وضبط القول فالأخيار ندر … وشر الناس منتشر الجراد

ولولا البيض من عرب لكانوا … سوادا في سواد في سواد

وحسبي نقلها بنصيب صحبي … كأن وظيفتي عبس الحداد

وقد فارقت أطفالا صغارا … بطهطا دون عودي واعتيادي

أفكر فيهم سرا وجهرا … ولا سمري يطيب ولا رقادي

وعادت بهجتي بالنأي غما … بلوعة مهجة ذات اتقاد

أريد وصالهم والدهر يأبى … مواصلتي ويطمع في عنادي

وطالت مدة التقريب عنهم … ولا غنم لدي سوى الكساد

وما خلت العزيز يريد ذلي … ولا يصغي لأخصام لداد

لديه سعوا بألسنة حداد … فكيف صغى لألسنة حداد

مهازيل الفضائل خادعوني … وهل في حربهم يكبو جوادي

وزخرف قولهم إذ موهوه … على تزيينه نادى المنادي

فإن من صبر فى المعنى بغير … صحيح الانتقاء والانتقادى

قياس مدارس قالوا غنيم … بمصر فما النتيجة فى بلادى

وكان البحر منهج سفن غرضى … فكدت الان اعرف فى التمادى

ثلاث سنين بالخرطوم مرت … بدون مدارس طبق المراد

وكيف مدارس الخرطوم ترجى … هناك ودونها خرط القتاد

أم ترجى المصانع وهى أحرى … لتأييد المقاصد بالمبادى

علوم الشرع قائمة لديهم … لمرغوب المعاش أو المعاد

خدمت بموطنى زمنا طويلا … ولى وصف الوفاء والاجتهاد

فكنت بمنحة الاكرام اولى … بعقد للتعيش مستفاد

وغاية مطلبى عودى لأهلى … ولو من دون راحلة وزاد ..

وصبرى ضاع منذ اشتد خطبى … وهون الخطب عند الاشتداد

وكم حسنا دعوت لحين حالى … وكم نادى فؤادى يا فؤادى

وارجو صدر مصر لشرح صدرى … وجهد الطول فى طول التمادى

وكم بشرت ان عزيز مصر … آمره بالفكاك ولم يفاد

وحاشا ان اقول مقال غيرى … وذلك ضد سرى واعتقادى

لقد اسمعت لو ناديت حيا … ولكن لا حياة لمن تنادى

وفى دار العزازة لى عياذ … يقينى نشب اظفار العوادى

أمير كبار أرباب المعالى … فتى فى سرحة العرفان هادى

معروف المعى لا يبارى … بمضمار العلا فاق الجياد

بواخر فضله الركبان سارت … وغنى باسمه حاد وشاد

وقال فى معارفه فريد … فقلت وفى الرياسة وفى انفراد

وفى الاحكام قالوا لا يضاهى … فقلت وذو تحر واجتهاد

وقالوا وفى الذكاء ذكا فقلنا … واقبس ذهنه وارى الزناد

وقالوا وافق الحسن المثنى … فقلت وكم حدا بالوصف حاد

وبحر حجاه يبدو منه در … لغواص العلوم بلا نفاد

فيا حسن المقال اغث اسيرا ... بسجن ازبخ يحى ذا القياد
عليه دوائر الاسوار دارت ... وطالت وفق اهواء الاعادى
وقد فوضت للمولى أمورى ... وزاعين الاصابة والسداد
عسى المولى بقرل امضوا بعبدى ... فيقضى لى بتقريب ابتعادى
وما نظم القريض برأس مالى ... ولا استرى اراه ولا منادى
ووافر بحره ان جاد يوما ... فممدوحى له وصف الجواد
وليس ابكر فكرى من صداق ... سوى تلطيف عودى بلا بلادى
فما يسمى ذراها من بيوت ... وزان فى حماستها شداد
ومسك ختامها صلوات ربى ... قام طه المشفع فى المعاد
وآل والصحابة كل وقت ... مواصلة إلى يوم التناد

هذه شكوى رجل كان يعد نفسه من رجال الفكر ، هيء نفسه لخدمة مصر فاذا به يقذف بعيداً عنها لايستطيع ان يعطى معرفته وعلمه حيث كان عليه ان يبدأ مع كليته فى أول سنين الدراسة ، وهو الذى عاد من فرنسا ليجاهد فى الفكر ويفتح العقول المستعده بالعلم لتقبل فكره وعلمه لاتعليم الطلبه والكتابة والقراءة .

• • • • • • •

القرن التاسع عشر

تأثير حملة نابليون عام ١٧٩٨ م على مصر لم يكن فاتحة خير لبعثة الحركة الثقافية والعلمية فى مصر وحدها بل كان فاتحة خير للسودان ولبقية الدول العربية وعلى الثقافة العربية .

لقد ظل شمال النيل مرتبطا بجنوبه كل ماينعكس عليه يصل تياره إلى الجنوب والى سكان السودان حتى لو بعد حين . فقد كانت حملة نابليون رغم الخسائر المادية والبشرية التى تعرضت لها مصر والقاهرة خاصة إلا أن القليل الذى خلفته هذه الحملة كان شعلة جديدة وقبساً طيبا لذلك الصراع العربى القديم الذى خبت ذبالته امدد قرون منذ ذهاب الدولة الفاطمية وتدهور الحيـــاة السياسية والفكرية واضطراب الأمور ليس فى مصر وحدها بل فى جميع بلدان الشرق الأوسط . ومما زاد ركود الحياة عامة فى البلاد العربية إمتداد يد الظلام على يد الحكم التركى العثمانى لخنقه كل يد علافة وكل فكر ثاقب وليحرم أبناء البلدان العربية كل فرص النمو والمشاركة إذا استورد كل حكامه المجرمين من تركيا لانزال العقاب والذل بكل من تسول له نفسه بالتمرد والاحتجاج ....
وعاش الاتراك فسادا وقسوة فى البلاد العربية واخذوا كل شىء ولم يعطوا أى روح أى أمل للعمل والنهوض ... ووقفوا امام كل شىء علمى وامام كل عمل عقلى حتى انتهت الحياة العلمية والفكرية وعاد الناس لايقربون العلوم ولايتبارون فيها ولايغترفون منها الاخفية . . . كانت هذه الحياة العامة فى البلاد العربية اما فى السودان قبل هذه الحملة فقد وصلت الحياة السياسية إلى أسوأ حالات التمزق واستنفذت الحكم السنارى كل مقومات الحكم اذ لم يطور الحياة انما قبع

فى كراسى الحكم يسيطر على التجارة والقوفل التجارية وجباية الضرائب وعاش البيت السنارى لنفسه ولم يعش لمملكته ... فلم يخطر ببال ملك من ملوكهم حتى العظام كالشيخ عجيب فى تحسين حال البلد او تطوير نظام الحكم والاستفادة بخبرات الشعوب الاخرى .....

عاش البيت السنارى مقفولا على نفسه لا يفتح الباب الا للذين له مصلحة فيهم أو الذين يرغب فى التعرف اليهم .

لا يعنى ذلك انه كان ذكيا انما يعنى انه كان يفهم الحكم على انه وراثة ولا يوجد فى البلاد من يتطاول على هذا الحق . . ثم لم يفكر أهل البلاد فى شأن هذه الوراثة لان الحكم لم يكن له تأثير كبير على حياتهم ولان الحياة العامة نفسها لم تتعرض لهزات كبيرة حتى تتدخل الدولة وتفرض سلطاتها وهيبتها ... فالشيخ أو الزعيم هو الذى يعرف السلاطين والحكام لارتباطه بهم .. اما القرية والمجموعات الصغيرة فلم تتأثر بهذا المثل لانه من قديم ولم يتغير فيه شىء الحق الذى يأخذه منه يومن أجدادهم فى القديم زاد بشىء بسيط ليدفع الضرائب التى عليه السلطان . . . ومشاكل القرية محلولة ومشاكل القبيلة محلولة بين المجموعة.. ولم يعتاد الناس ان يخرجوا من هذا النطاق الصغير لعرض مشاكلهم على نطاق اوسع . فنفس الأسلوب الذى كان متبعا قبل السلطة السنارية ظل ساريا بعد ثلاثة قرون من قيامها لم تتغير فى وجه المجتمع شىء فان كان هنالك تطور ظهر على المجموعات من الناحية الثقافية والعلمية فهو تطور طبيعى تقتضيه سنة التطور وليس للسلطنة السنارية فيه أى يد .

دولة لانت لها كل القبائل والعشائر وسلمت لها طواعية فلم تخشى استلام

هذا القيد ولم تحاول ان تطور حياة هذه المجموعات التى وكلت اليها أمرها وشئونها . . . بل اطمأنت إلى هذا الاطمئنان الذى أعطى لها وعاشت فى فلك العادات الملكية والصراع الطبيعى الذى يدور فى اسرة حاكمة . . . .
فالاسر الحاكمة تخلف لنفسها من المشاكل لو تفرغت اليه مايشغلها عن كل هموم الدنيا ودسائس الاعداء وتغييرات الحياة . . وهكذا عاشت السلطنة السنارية دولة منعزلة على نفسها لم يكن لها مجلس مخطط ولم تكن لها دور اين — لجميع أوجه النشاط الانسانى بل ربما فكرت فيه وحجمت عن أى نشاط خوفا من الخسارة المادية .

بل كانت لها الرئاسات الكبيرة لشئون المال والعساكر وهو أمر ضرورى وحيوى وبدائى جدا فى اى مجموعات نشأت هاتين الوظيفتين وظهورها لايعنى تطور الحكم السنارى .

لو تبعنا حياة هذه السلطنة منذ القرن السادس عشر الميلادى حتى نهاية القرن الثامن عشر التى تطور هذه المملكة من الداخل والخارج .

كان يمكن ان تكون هـــذه السلطنة وسلطنة دارفور من أعظم الممالك الاسلامية لانتقال الامكانيات العلمية فى البلدان العربية التى تهدمت فيها أسس العمران والاستقرار . . .

فقد عاشت البلدان العربية الاسلامية فى حالة من الفوضى وقف كل شىء عن التقدم ووقف العلماء فى حيرة من امرهم فالاحسان الذى كان يأتيه من القصور وقف عنهم بل انشغل عنهم بمشاكل فوق قدرة القصور والقائمين عليها . وفى مثل هذه الحالات يهرب رجال العلم والفكر للأراضى الجديدة التى يشع

منها الاستقرار ويمجد فيها رجال العلم والفكر كان بالبلدان العربية حركة علمية طيبة رغم ذلك الاضطراب ولكنها كانت تبحث عن مأوى يجمع شملها وكان العلماء وهم أكثر الناس ابتعادا عن حياة المعارك والقتال إلى حياة العلم والدروس والتفكير والاحترام ... كانت تلك الحركة العلمية التي تمسكت باهداب بعض الرجاء في حاجة إلى منقذ وهي كالغريق تتقاذفها الامواج ... وطال بها الانتظار ... وبلعها يم الحياة وغرقت تلك الامكانيات العلمية ... فان كان لحكام الممالك أي السلطنة السنارية تلك اليد الممدودة وتلك الدعوة المسموعة وذلك التكريم الذي يسري مع الريح يجلب الى سنار كل رجال العلم والفكر ... والرجال الذين أتوا لسنار وبعثوا الحياة العلمية في ارجاء السودان ووضعوا اللبنة الأولى للحركة العلمية والاسلامية كالشيخ القصير راجل العرب والشيخ تاج الدين البهاري وابراهيم البولاد واخوانه أولاد جابر .

الحركة العلمية والثقافية والاسلامية التي ظهرت في السودان لم يكن للسلطنة السنارية فيها أي مجهود بل كان ذلك المجهود الضئيل هو مجهود افراد .. وما يؤيد هذا الرأي إن كل العلماء الاجانب الذين جاءوا للسودان من رجال السودية أو من رجال العلم سكنوا بعيدا عن سنار .. وكل الحركات العلمية وكل الرجال الذين اشتهروا في هذا الميدان بعيداً عن سنار فإن كان لسنار أي فضل أو كانت يدها مبسوطة لدعاة العلم تدعوه وتكرمهم لكانت خلقت حركة ثقافية ولكانت جمعت كل أشتات الفكر العربي واحتضنته وبعثته من جديد الا أن اهتماماتها لم تصل إلى هذا الحد الذي وصلت اليه بغداد وحلب والقاهرة والاندلس ... لقد وصلت لذلك المستوى مع تلك الظروف المهيئة للنمو والتطور خلال ثلاثة قرون لكان السودان اليوم شيئا آخر .. فهي لم تقدم

للعلم أى خدمة ولم تهتم به . . وان كان لها اهتمامها بالزائرين من رجال العلم والصوفية فهو اهتمام السودانى الكريم الذى لايبخل عن ضيفه . .

فلو بحثنا عن رجال العلم والاماكن التى استقروا فيها منذ القرن السادس عشر لوجدناهم بعيدوعن سنار وربما بعيداً عن نفوذ سنار بل اختاروا جانب العبدلاب فى شمال النيل .

فعند الشايقين استقروا أولاد جابر وعون الله وعند الدناقلة تلامذتهم سكنوا بعيداً عن قرى وعن سنار والسمانية سكنوا فى طيبة قرب السروراب وأرض الجزيرة كانت مأوي لكثير من هؤلاء العلماء منها شندى وبربر والحلفاية وتوتى وارببجى والميتمة وسنار وكردفان .

فاذا بحثنا فى النظام الادارى لسلطنة سنار فلا نجد أى تحسين أدخلته على نظامها منذ انشاءها حتى سقوطها بل ظلت تطبق نظاما اداريا قبليا لم تعدل فيه ولم تطوره حتى وصل الينا بكل مساوءه وخيراته . . واذا نظرنا فى نظامها الاقتصادى فلم تحاول ان تطوره بل جعلت التجارة وهى تجارة القوافل الكبيرة وتركوا لبعض المغامرين بعض الفرص للتعرض لحياة القوافل التجارية بالحراسة ولم يقوموا بانشاء الابار ونقط الحراسة من قطاع الطرق الذين كانوا يشكلون خطرا كبيرا على التجارة وقصة (الرباط) الرباطابي المقيم فى القرن الثامن عشر وما كان يفعله بالقوافل التجارية الداخلة على بربر والخارجة منها ببعيد ولم تستطيع اي السلطة الحاكمة ان تذدب اليه وكان الامر لا يعنيها وحوادث قطاعى الطرق وانتشارهم وازدياد هذا النوع من التكسب يكشف

عن ضعف هذه الادارة حتى انتشر هذا النوع من العمل وجذب اليه الكثيرين وأصبح لقطاع الطرق وزن كبير فى الحياة العامة .. واحتلوا مكانة كبيرة فى الادب .. الشعبى والغنائى ...

أما فى الزراعة فلم يحاولوا أن يطوروا أسلوب الزراعة النظرية ولا أساليب نقل الماء من النيل وظلت كل أشكال الحياة العامة كما هى وانشغلوا بما يهم الملوك وهى حياة القصور والوراثة والملكية حتى انتهوا على أيدى الهمج ..

ربما يظن أن لمملكة سنار يد كبيرة فى تطور الثقافة أو العلم أو الادارة . فالحياة العامة منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى إلى نهاية القرن الثامن عشر لم تتطور فى السودان تطورا ملموسا وإن كان هنالك أى تقدم أو تطور هو تطور طبيعى يحدث لكل المجموعات البشرية حينما لاتجد عوائق لهذا التطور والحسنة التى أتت بها سلطنة سنار إنها أوحت بالنظام وأوقفت القتال بين القبائل ومحاولة تسلط بعضها على الآخر .. وأتاحت الفرصة للحياة العامة أن تنمو نموها الطبيعى ومهدت للثقافة العربية أن تنتشر ببطء وللتعاليم الاسلامية أن تتصالح مع المعتقدات القديمة وثنية كانت أو مسيحية ولكنها من جانبها لم تحاول أن تنشر الثقافة العربية أو التعاليم الاسلامية إنما كل ماحدث كان من نشاط الأفراد والمجموعات وحاجة الناس لهذه العلوم ولمعرفة تعاليم دينهم الذى كانوا لايعرفون عنه شيئا حين قامت هذه السلطنة وكما جاء فى مخطوطه ود ضيف الله وكاتب الشونة عن الحياة العامة قبل السلطنة السنارية أن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نفس اليوم دون تتمة

العدة . . . وهذا الجهل بتعاليم الدين لم يجد التخطيط السليم لمحوه بل ظل حتى ظهور المهدى ومطالبته بتطبيق الشريعة التى كان يجهلها معظم الناس حتى ضج ذلك الشايق من تعاليم الاسلام ودعوة المهدى فصاح قائلا :

لا مريسى ولا طيبير ولا تنباك ولا سجير

ودوكه من مهديك الكبير وعقرباً تطقك يا محمد الخير

فشلت السلطنة السنارية فى أن تخلق جهازاً إداريا وأن تنهض بالحياة العامه السودانية واستعانت بقبائل تقلى لمساندتها على حفظ العرش من الداخل ومن المؤامرات الداخلية التى تحاك عادة فى القصور وبين الاسر الحاكمة الكبيرة القديمة حتى مهدوا لهؤلاء الجند فى مملكة تقلى أن يستولوا على زمام الحكم وأن يبعدوا أهل البيت عنه .

وان كانت حياة السودان العامة فى ظل السلطنة السنارية على هذا الوضع فاهل السودان كانوا فى أحسن حال إذ ماقورنو ببقية الدول العربية التى سقطت تحت نفوذ حكم المملكة العثمانية . . فقد ترك سلاطين سنار للناس أن يطوروا حياتهم ولم يقفوا ضد هذا التطور ولكن ماحدث لبقية البلدان العربية أن المملكة العثمانية التركية وقفت أمام تطور هذه البلدان . . وقفت أمام التطور الطبيعى ولم تقدم أى يد لرفع الحياه العامة بل خنقت كل محاولة للحركة حتى شلت كل شىء لينام الشرق فى سبات عميق من أول القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ودخل نابليون الاسكندرية ومعه علماء ومفكريه

ليخططوا له ملكة جديدة وليحتفظ بطريق الهند الذى كانت تمتلكه الامبراطورية البريطانية .

وربما لو لم يأت نابليون ومعه ذلك العدد الهائل من العلماء والمفكرين الذين تأخروا بمصر لما حدث هذا التطور ولما افاقوا الحياة ولما لفتوا نظر المصريين بأن هنالك عالم غير عالمهم وان هنالك علم غير علم الازهر وان بقايا التراث التى خلفتها الشعوب العربية لاتساوى شيئا بالنسبة لافكار جان جاك روسو وفولتير وغيرهم من المفكرين الغربيين .. وربما لولا حضارة مصر القديمة التى أغرت العلماء بالبقاء بالقرب منها ومحاولة نقلها والبحث عن معانيها حتى توصل شامبليون إلى معرفة الخط الهيروغليفي ما استفاد الشرق تلك الفائدة بقدر علاقته بركب العلوم الانسانية .

كان ذلك الجزء من حملة نابليون الذى ضم العلماء هو الخير فى تلك الحملة وفتح باب الحياة الجديدة لابناء مصر ... وتساعد الظروف مصر بأن يحكمها ملك له طموح وله افكار وله تطلع بعيد وفى نفسه تمرد على السلطنة العثمانية وهو ابنها محمد على باشا .

كان محمد على طموحا وفهمه للحكم متطور وكانت افكاره .. لخلق مملكة خاصة به جعلته يبحث عن امكانياته المحلية فى الادارة والمال وخلافه .. فوجد الفرصة فى فرنسا التى كسرت القيد الملكى وبذرت بذور الجمهورية على الممالك القديمة وانتشرت فيها العلوم فارسل اليها أبناء مصر الذين يثق فيهم لتلقى العلم والنهوض بالحياة المصرية فى جميع مجالاتها حيث حضورهم .. كان يخطط لكل

شيء رأى امكانيات مصر لاتفي بأحلامه . . سمع عن الذهب في السودان . . .
فالتفت نحو السودان . . . للاستفادة من ذهبه ورجاله . . .

وسأل عن السودان فعرف ان به ممالك هرمة . . في الشمال مشيخة الشايقية التي تمردت على العبدلاب ثم مشيخة العبدلاب . . . والسلطان غر . ثم بقايا مملكة سنار التي استولى عليها الهمج وسلطنة دارفور في غرب السودان . . ارض واسعة وخيرات كثيرة وقبائل متفرقة . . . امكانياتها متخلفة . والذهب كما قيل له كثير لايحد وجرد جيشه عام ١٨٢٠ بقيادة ابنه اسماعيل وسار الجيش ولم يجد عقبة في طريقه حتى أرض الشايقية الذين رفضوا الخضوع للجيش المزود بالبنادق والمدافع حتى عقد اسماعيل معهم صلحا وخدعهم وضمهم إلى جيشه وسار الجيش وتم له فتح السودان وكان الجيش يستعين بأهل البلاد والقبائل المختلفة لقتال القبائل الأخرى . . . .

كان دخول جيوش محمد على للسودان له مزايا عدة وربما لو لم يتقدم محمد على وهم ايجاد الذهب لما تطور السودان وحدث له ماحدث لمصر بدخول نابليون وعلمائه . . .

فعل محمد على مثلما فعل نابليون في مصر بل ربما استفاد من فكرة نابليون . . . وحين أرسل جنوده إلى السودان أرسل معهم بعض العلماء من الازهر وبعض رجال الصوفية حتى يؤثروا في الناس وما تطلبه الظروف ليخدموا الامن ثم يستعين بهم بعد ذلك في ادارة مملكته الجديدة . . .

كانت الادارة في مصر في عهد محمد على هي ادارة حكومية منظمة لها دواوين

حكومية بكل فرع من فروع الادارة والعمران . اما فى السودان فلم تكن قد وضعت هذه اللبنة بعد ... ودخل جيش محمد على السودان وهو يحمل خطة لحكم البلاد على أسلوب حديث وخلق إدارة جديدة تقوم على نظم حديثة ومتطورة بالنسبة للادارة المحلية التى كانت سائدة ....

كان لدخول محمد على السودان ميزتان — أولهما توحيد ممالكه الصغيرة السلطنة السنارية — دارفور والشايقية فى دولة واحده هى السودان ثم كانت الميزة الثانية وهى ادخال الادارة الحديثة فى السودان وما يتبع ذلك الادارة من أساليب التطور والتقدم والعلوم .

كما قلنا أرسل محمد على ابنه اسماعيل لارض الذهب فمات اسماعيل محترقا بين نيران الحطب والقصب على ايدى الملك مساعد وشقيق الملك نمر ... مات اسماعيل وكان صهره قد تم فتح دارفور فعاد ليجد رماد الجسد ورماد الحطب فاشعل النار من جديد وشق الرماد بالدماء ظنا منه ان الدم المسفوك يمكن أن يحي الدم المحترق ... وطارد الملك نمر واخوه وقبليته ولم يشف غليله تلك الدماء التى اراقها من اجل اسماعيل ....

حزن محمد على لوفاة اسماعيل ولكنه كرجل حرب ورأس دولة لم تثنه هذه الوفاة عن حلم الذهب — فبحث عن المعدنين وارسل الخبراء لاراضى الذهب وعادت البعث وتقاريرها لاتشجع باستخراج الذهب . . فالذهبية التى عثروا عليها قليله ولاتكفى تكاليفها .... ولم يصدق محمد على . . كل أحلامه التى وضعها فى السودان ونسى موت ابنه من أجلها تضيع بكلمات

الخبراء ... الذهب موجود فى السودان هذا اعتقاده ... الذهب موجود فى السودان . .

وفى عام ١٨٣٨ م بعد ان فشلت كل جهود حكامه فى ارسال الذهب اليه ساوره الشك وفضل الذهاب إلى السودان بنفسه وهو يرى كل امكانياته المادية لا الحربيـة التى ارسلهـا إلى السودان لتـأتى له بفائدة ليقوى دولته واسطوله وليستطيع ان يقف على دول أوربا وانجلترا ويجعل له اسطولا قويا يمنع سفن القرصان من الاقتراب من شاطئه وبحره . . ولكن المال الذى كان عنده ضاع والامل الذى كان يرجو منه أن يسنده لرفع مستوى اسطوله باحضار الذهب من السودان ولى ...

ولم يثق بتقارير الخبراء والفنيين . . . واعد رحلته الشهيرة افازوغلى والخرطوم واخذ معه الخبراء والفنيين . . وذهب إلى ارض الذهب وجلس ا بقرب الخيام ينظر إلى تراب الذهب ويسأل اهل البلاد عن الذهب التى يتحدث الناس عنه والخبراء يقولون له ان نسبة الذهب هنا ضئيلة جداً . . .

ويعرضون عليه العينات وهو يراقب الحفر والتنقيب والتصفيـة ولكن الذهب كذب وضاع الحلم الكبير الذى كان يحلم به محمد على فى استغلال ذهب السودان فى تطوير جيشه واسطوله ومملكته وليقف قويا أمام الدول الاوربية والانجليزية . .

الحكم التركى فى السودان :

(من ١٨٢١ — ١٨٢٦ تحت سلطة الدفتردار اسماعيل

(١) الاميرلاى عثمان بك (١٨٢٥ — ١٨٢٦)

كان ظالما وحكم البلاد فى أوج اضطرابها واعتمد على خيرات البلاد التى دمرتها الحروب ... اشتهر حكمه بالظلم والفساد والاعتداء ولانه على سلب حق الناس وذلك لاضطراب الأحوال العامة وعدم استطاعة الادارة الجديدة من ابقاء كل مطالب الادارة . . . . . وشحت امكانيات البلاد من جراء الحرب فعاش الناس فى خوف وجوع ... توفى بالسل فى ابريل ١٨٢٦

محو بك ١٨٢٦ :

لم يعمر كثيرا ... أول ماذكر فيــــه هو اشراك أهل البلاد فى الحكم ليستعين بهم فى حفظ الامن وكسب ثقتهم — عين الشيخ عبد القادر والذى كان شيخ خط ... فقلده شياخة فى الكوع ومنحه كسوة فاخرة ... ثم شيد بناية خاصة للادارة الحكومية فى الخرطوم ..

خورشيد باشا (١٨٢٦ — ١٨٣٩)

من الحكام المحنكين الذين أرسوا قواعد الادارة والنظام فى البلاد اتبع نظام الاستفادة بخبرات أهل البلد واستعان بالشيخ عبدالقادر فى تعديل الضرائب .. وقلده مشيخة البلاد من حجر العسل إلى جبـــال الفرنج وخلع عليه كسوة فاخرة وسيفا .

انتقد النظام الذى سبقه وكشف العيوب التى جاء الحكم الجديد وكتب بها

تقرير محمد على وعلى بالاسلوب الحديث على تطوير الزراعة وايجاد الامن والاستقرار بين أهالى البلاد . .

وخطط لنشر التعليم والصناعة بالسودان ... عمده مدينة الخرطوم فى عهده .. وأدخل بناء المنازل من الطوب وزار محمد على السودان فى عهدة . . . وكذلك فى الحياة العامة .

أحمد باشا أبو ودان ١٨٣٢ — ١٨٤٢ م

وجد سلفه خورشيد باشا قد خطط له الحياة والادارة فسار على خطاه وطور الادارة ونظم الدواوين وشجع الملاحة وبناء السفن ضم بعد الاقاليم إلى السودان كاقليم التاكا فى سنة ١٨٤٠ ووسعت الفتوحات المصرية فى السودان الشرقى واخضع الحدلاقة عند نهر القاش وتمردت عليه قبائل الهدندوة . . قبيلة المحاربين الاقوياء الهائلين وجمعت فرسانها وشمال كسلا فى غبابى وهيباى والكليتاب . . الا انه استطاع بفكره أن يتغلب عليه . . اذ فكر فى منع ماء القاش عن الغابة التى يجتمعون بهـــا فعطشوا ثم أشعل النار فى الغابة فذعروا وخرجوا حتى خضعوا له بعد أن انسحب شيخهم . .

بعد أن فتح شرق السودان وعاد للخرطوم وولى على كسلا مدير قسم السودان إلى سبع مديريات :

(١) فازوغلى (٢) سنار (٣) الخرطوم (٤) كسلا (٥) بربر

(٦) دنقلة (٧) كردفان

أحمد باشا المنكلى (١٨٤٤ — ١٨٤٥)

فى عهده عادت قبائل التاكا للتمرد من جديد فاستعان بشيوخ القبائل وكبار القوم منهم الأرباب محمد ودقع الله والشيخ عبد القادر الذين والشيخ أبو او محمد كبير الشاكرين

عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ — ١٨٥١)

عمل على صلاح الادارة فى فترة الركود التى حلت بسابقه خالد باشا وازال المظالم . . . وجدد ديوان الحكومة وحضر فى عهده رفاعة رافع الطهطاوى لإنشاء فرع مدرسة الألسن (المدرسة الاميرية ومعه بيومى بك . . .

وصل الشيخ عبـــد القادر إلى أعلى منصب سودانى وهو وظيفة معاون الحكمدارية مع مشيخة عموم الجزيرة

على باشا شركس (١٨٥٥ — ١٨٥٧)

عم البلاد فى عهده مرض (الهواء الاصفر) ومات خلق كثير منهم الشيخ عبد القادر شيخ مشايخ الخرطوم وسنار . . خلفه إبنه الزين الذى ذهب إلى مصر حيث عين معاونا فى نظارة الداخلية . . . . .

زار سعيد باشا السودان . . . . ثم عين اراكيل بك نوبار حاكما للسودان (١٨٥٨ — ١٩٥٩)

ثم حكم بعده حسن بك سلامة ثم محمد بك لغاية عام ١٨٦٢ م ثم موسى باشا حمدى لغاية ١٨٦٥ ثم خلفه جعفر بك صادق ليخلفه فى نفس العام جعفر باشا مظهر ثم ممتاز باشا الى عام ١٨٧١ ثم اسماعيل باشا أيوب الى إن استلم منه غردون عام ١٨٧٧ ثم محمد رؤوف باشا فى عام ١٨٨٠ حتى عام ١٨٨٢ وثم جاء بعده عبد القادر باشا فى مايو ١٨٨٢ حكمدار

ماذا خلف الحكم التركى

يصعب علينا أن نتباكى الآن على الفوضى التركية التى عمت السودان فى القرن التاسع عشر وأدخلته فى ثلاثة حروب اشتركت فيها كل القبائل من تعرضت للبطش التركى القاسى مباشرة حتى خضعت ومن خرجت لاخضاع بقية القبائل لاشتراك القبائل مع بعضها لاسكات الفتن الداخلية بعد الثورة المهدية ثم عودة الحملة على الثورة المهدية وإعادة فتح السودان من جديد .

حملة إسماعيل باشا

كانت حملة إسماعيل باشا لفتح السودان وتوحيده على حساب إستقرار القبائل والافراد وإدخال الفوضى بمحاولة دفع الحملة التركية لارغام الناس للخضوع والخنوع الذى لم يتعودوه

إطلاق يد الناظميين من الباشبوزق لجبى الضرائب وحفظ النظام أوقع الضرر فى يد شين مجرم قاسى لا يعرف الرحمة ولا الكرم

كانت عملية توحيد الممالك الثلاثة وإخضاع أمرا فيه مشقة على الجيش الغازى إذ عليه أن يحارب ثلاث دويلات فى الشايقية وسنار والعبدلاب ودارفور الأمر الذى عرض جميع السكان لبطش هؤلاء الغزاة ففقدوا فيه الكثير من خيراتهم ورجالهم واستقرارهم ومحاولة تسخيرهم للعمل بالجيش للمساعدة فى فتح الاقاليم الأخرى فيه من الاذلال أكبر وأعظم فقد إستغل الشايقية لضرب الجعليين واستغل الاثنين لضرب سنار ودارفور حيث لم تستسلم هذه الدويلات والقبائل لهذا الغازى باسم الاسلام إذ كان منطقها فى المقاومة لايحق لمسلم أن يغذوا مسلما

إرسال عـــدد عظيماً من أبناء السودان للجهاد فى جيش الخديوى وإرسال الاف الأبقار والجمال لمساعدة ميزانية الخديوى فى تحقيق أحلامه لخلق جيش قوى يحفظ النظام داخل مصر ويساعده على الفتوحات خارجها الأمر الذى قلل من الايدى المنتجـــة من الرجال الشباب وكذلك ذهاب كثير من خيراته لجيش الخديوى والمديريه الذى فرضوا عيشهم بالقوة على الأفراد مستغلين طرق الاذلال والبطش وحتى أدخلوا الكراهية بكل صورها ضد الحكم التركى وفى إشعار تلك الفترة بايكشف غضب الناس وضيقهم بالحكم التركى

الثورة المهدية

إلتف الناس حول المهدى وهم كارهين لحالهم وحال الحكم التركى ظانين فى هذا الشيخ الخلاص والراحة ولكن كيف الخلاص من هذا الماضى العتيد

الا بقوة أكبر ووحدة أكبر وكان مالا مفر منه وهو الاحتكام للحرب والتمرد أملين بهذه الثورة الخلاص من ذلك الكابوس إلا أن الحرب إستمرت وشملت البلاد جميعها واشتركت كل القبائل فيها حتى كان النصر للمهدى وانصاره وقبائل السودان .. وظن الناس بالنصر المهدى يعنى الراحة والاطمئنان والاستقرار والعودة للحياه الطبيعية بعد هذا التشرد والتغرب عن الديار وفقدان الأهل والأرض والاقارب ولكن المهدى لا ينتظر ليحقق لهم أمانيه إلا ان تعرض بعد أن استولى على الخرطوم عام ١٨٨٥ م واستمرت حركة الثورة المهدية من عام ١٨٨٢ إلى ١٨٩٧ م فى ثلاثة حروب الأول لاجلال الاتراك والانجليز من السودان والثانية لتأديب القبائل الخارجة على طاعة عبد الله التعايشى ثم محاولة عبد الله التعايشى لغــــزو مصر وعودة الجيش المصرى الانجليزى لفتح السودان مرة أخرى ثم عودة الانجليز وجيش الخديوى لاعادة النظام وتأديب المتمردين حتى عام ١٩١٦ بالقضاء على ثورة على دينار

هذه هى مظاهر السياسة للقرن التاسع عشر وما خلفته من فقر وإرهاق لإمكانيات البلاد والناس ولعدد الضحايا الهائل الذى راح من أجل هذه المعارك حتى يبدوا للناظر أن هذا القرن كان قرن الظلم والتخلف بالنسبة للشعب السودانى ولكن رغم هذا المظهر الخارجى للكبت والتنكيل إلا أن هنالك قوة أخرى كانت تنمو وهى قوة العقل وذلك باتساع مدارك الفرد العادى وإهتمامه بأمور جديدة ورؤية شعوب جديدة واحتكاكه بالنظم جديدة إستفاد منها رغم هذا المظهر الخارجى الأسود للقرن التاسع عشر . .

القرن التاسع عشر وخطاه

رغم ماتعرضت له الدويلات السودانية المبعثرة على مساحاته الشاسعة من تخريبة وماعانته القبائل من بطش إلا أن هذا القرن كان مفيدا فى توحيد تلك الدويلات فى دولة واحدة وتوحيد كل تلك القبائل فى قومية واحدة هى السودان الحديث .

إستقرار السودان فى الإدارة الحديثة المتطورة نسبية عن إدارة الشايقية ودارفور وسنار وعرف نظام الإدارات الحديثة .

الأزهر فى هذا القرن

كان للأزهر أثر كبير على المعرفة فى السودان فى هذا القرن وفيه أنشئت الأروقة السودانية ولطلاب العلم وضمان عيشهم والاعتناء بهم فى عهد بدأ فيه الأزهر يتفتح فى جديد للمعارف العقلية ويشتد نشاطه .

وأول ما وصل إلى السودان من خير الأزهر العلماء والقضاء الذى أوسلهم محمد على باشا إلى السودان من خير الأزهر والذين كان لهم أثر كبير فى نشر الثقافة الدينية فى البلاد وخلف علاقات عامة واسعة ولم تكن الخرطوم فى ذلك الحين البلد الطيب ذا المدابغ التى تسر فهى مدينـــة جديدة انشأتها الادارة التركية لم يظهر عليهـــا علامات التحضر والمدنية

غير مدينة للجند والذين يخدمونهم وترتبط معيشتهم بوجود هؤلاء الجند والمستخدمين المدنيين الذين يعملون فى دواوين الدولة الجديدة .

رغم أن الخرطوم كانت قرية قديمة قبل الفتح التركى يسكنها بعض المزارعين إلا انها لم تكن ذات أهمية تذكر قبل القرن التاسع عشر وخاصة بعد أن تحطمت حضارة سوبه على أيدى قبائل الشلكاك

• • • • • •

بهنس

معجم البلدان

(أهناس) بالفتح اسم لموضعين بمصر أحدهما اسم كورة فى الصعيد الأدنى يقال لقصبها اهناس المدينة وأضيفت نواحيها إلى كورة البهنسا .. وأهناس هذه قديمة ازلية وقد قرب أكثرها وهى على غرب النيل ليست ببعيدة من الفسطاط وذكر بعضهم أن المسيح عليه السلام ولد فى أهناس ذات النخلة المذكورة فى القرآن المجيد (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) موجوده هناك وان مريم عليها السلام أقامت بها إلى أن نشأ المسيح عليه السلام وساروا إلى الشام وبها ثمار وزيتون . وإليها ينسب دحية بن مصعب بن الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم خرج منها على السلطان وقصد الواح وغيرها ثم قتل سنة ١٦٩ هـ . واهناس الصغرى فى كورة البهنسا أيضا قرية كبيرة .

بهنسا : بفتحتين وسكون السين ونون والف قلعة حصينة عجيبة بقرب مرعش وسيمساط وبرستاقها هو رستاق كيسوم مدينة نصر بن شبث الخارج فى ايام المأمون وقتله عبد الله بن طاهر وهو على سن جبل عال وهى اليوم من أعمال حلب .

البهنسا : بالفتح ثم السكون وسين مهملة مقصور مدينة بمصر الصعيد الأدنى غرب النيـــل وتضاف إليها كورة كبيرة وليست على ضفة النيـل

وهي عامرة كبيرة كثيرة النخل وبظاهرها مشهد يزار يزعمون أن المسيح وأمه
أقاما به سبع سنين .

وبها برابي عجيبة وينسب إليها جامع جماعة من أهل العلم منهم أبو الحسن
أحمد بن عبد الله بن الحسين ابن محمد العطار البهنسي حدث عن يحيى بن نصر
الخولاني توفي في شهر ربيع الأول سنة ٣١٤ وأبو الحسن علي بن القاسم بن محمد
بن عبد الله البهنساوي روى عن بكران سهل الدمياطي وغيره روى عن أبو نصر
علي بن عبد الله .

• • •

النوبة

وخلفهم أمة يقال لهم علوا بين ملك النوبة وبينهم ثلاثة أشهر وخلفهم أمة أخرى من السودان تدعا تكنة وهم وعلوا عراة لايلبسون ثوبا البتة إنما يمشون عراة وربما سبي بعضهم وحمل إلى بلاد المسلمين فلو قطع الرجل أو المرأة على أن يستتر أو يلبس ثوبا لا يقدر على ذلك لعمله إنما يدهنون إبشارهم بالادهان ووعاء الدهن الذى يدهن به فلقة يملأها دهنا ويوكى رأسها بخيط فتعظم حتى تصير كالقارورة فاذا لدغت أحدهم ذبابة اخرج من فلقته شيئا من الدهن فادهن به ثم يربطها ويتركها معلقة . وفى بلادهم ينبت الذهب وعندهم يفترق النيل ومن وراء مخرج النيل الظلمة . ونوبه أيضا بلد صغير بأفريقيه بين تونس واقليبيا . ونوبه أيضا موضع على ثلاثة أيام من المدينة له ذكر فى المغازى وقرية إيضا ناحية من بحر تهامة تسمى بالنوبه لانهم سكنوها ونوبة أيضا هضبة حمراء بجزيرة الحوأب فى ارض بنى عبد الله بن أبى بكر بن كلاب وفى حديث عبد الله بن حجر خرجنا من مليحة نوبه ذكره الواقدى .

• • •

النوبة

(نوبة) بضم أوله وسكون ثانية وباء موحدة والنوب جماعة من النحل ترعى
ثم تنوب إلى موضعها فشبه ذلك بنوبة الناس والرجوع مرة بعد مرة وقيل النوب
جمع نائب من النحل والقطعة من النحل تسمى نوبة شبهوها بالنوبة من السودان .
وهو في عدة مواضع . النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر وهم نصارى
أهل شدة في العيش أول بلادهم بعد أسوان يجلبون إلى مصر فيباعون بها . وكان
عثمان بن عفان رضى الله عنه صالح النوبة على أربعمائة رأس في السنة وقد مدحهم
النبي ﷺ حيث قال من لم يكن له أخ فليتخذ أخا من النوبة وقال خير سبيكم
النوبة . والنوبة نصارى يعاقبة لا يطؤون النساء في الحيض ويغتسلون من الجنابة
ويختتنون . ومدينة النوبة اسمها (دمقلة) (دنقلة) وهي منزل الملك على ساحل
النيل وطول بلادهم مع النيل ثمانون ليلة ومن دمقلة إلى أسوان أول عمل مصر
مسيرة أربعين ليلة ومن دمقلة إلى أسوان الى الفسطاط خمسة ليال ومن أسوان
الى أول بلاد النوبة خمس ليال وشرقي النوبة أمة تدعى البجة ذكروا في موضعهم
وبين النوبة والبجة جبال منيعة شاهقة وكانوا أصحاب أوثان وقالوا والنوبة
أصحاب إبل ونجائب وبقر وغنم ، ولملكهم خيل عتاق وللعامة براذين ويرمون
بالنبل عن القسي العربية وفي بلادهم الحنطة والشعير والذرة ولهم نخل وكروم
ومقل وأراك وبلدهم أشبه شيء باليمن وعندهم أترنج مفرط العظم وملوكهم
يزعمون أنهم من حمير ولقب ملكهم (كابيل) وربما (قابيل) ، وكتابته الى
عماله وغيرهم من كابيل ملك مقرى ونوبة وخلفهم أنه .

البجاء

(بجاوة) بفتح الواو — قال الزمخشري بجاوة أرض بالنوبة بها إبل فرهة
وإليها تنسب الإبل البجاوية منسوبة إلى البجاء وهم أمم عظيمة بين
العرب الحبش والنوبة .

البربر

ذكر هشام بن محمد أن جميع عمالقة الاصنهاجة وكتامة فانهم بنو افريقس بن قيس بن صيفي بن سباء الاصغر كانوا معه لما قدم المغرب وبنى افريقية فلما رجع إلى بلاده تخلفوا عنه عمالا له في تلك البلاد فبقوا إلى الآن وتناسلوا .

أسماء قبائلهم :

هوارة ـ امتاهه ـ خربسه ـ مغيله ـ دوجومه ـ ولطيه ومطماطه ؛ وصنهاجه ـ نفزه ـ كتامة ـ كزانه ـ مزاته ـ ريوحه ـ نفوسه ـ لطه ـ صيونه ـ معمودة ـ غمارة ـ مكناسه ـ قالبه ـ واريه ـ اثيته ـ كوميه ـ سخود ـ امكنه ـ خرزبانه ـ قطاطه ـ حيره ـ براثن ـ واكلان ـ قصدران ـ زرنجى ـ برغواطه ـ لواطه ـ زواوه ـ كزوله .

بربرة

هذه بلاد أخرى من بلاد الحبش والزنج واليمن على ساحل بحر اليمن وبحر الزنج وأهلها سودان جداً ولهم لغة برأسها لايفهمها غيرهم وهم بواد معيشتهم من صيد الوحوش وفي بلادهم وحوش غريبة لاتوجد في غيرها منها الزرافة والببر والكركدن والنمر والفيل — وغير ذلك وربما لاتوجد في سواحلهم العنبر وهم الذين يقطعون مذاكر بعضهم بعضا . وقد ذكرت ذلك وسننهم فيه في الزيلع وذكر الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني اليمني وقال ومن الجزائر التي تجاور سواحل اليمن وجزيرة بربره وهي قاطعة من سواحل ابين ملتحقة في البحر بعدن من نحو مطالع سهيل إلى ماشرق عنها وفيها حاذى منها عدن وقابله جبل الدخان وهي جزيرة سقوطرا مما يقطع أن عدن ثابتا على السمت . واما صفة صيدهم حدثني غير واحد عن دخل بلادهم ان عندهم نوعا من التبن يشبه الخيار يجمعونه ويطبخونه ويستخرجون ماءه ثم يطبخونه حتى ينعقد ويصير كالزفت .

بربرة

هذه بلاد أخرى

المريسة (بفتح اوله وتخفيف الراء وياء ساكنة وسين مهملة — جزيرة فى بلاد النوبة كبيرة يجلب منها الرقيق .

مريسه بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة وسين مهملة قرية بمصر وولاية من ناحية الصعيد اليها ينسب الحمر المريسية وهى من أجود الحمر وامشاها .

« والحمار حينما يشرب المريسة لاشك سوف يمشى سريعا حزبا فى التخدير والشيح »

ينسب اليها بشر بن غيات المريس صاحب الكلام مولى زيد بن الخطاب أخذ الفقه عن أبى يوسف القاضى صاحب أبى حنيفه ثم اشتغل بالكلام .

انشدنى أبو القاسم النحوى الاندلسى الملقب بالعلم لبعض المغاربة يهجو البربر :

رأيت آدم فى نومى فقلت له   أبا البرية ان الناس قد حكموا

ان البربر نسل منلنا قال انا   حواء طالقة ان كان ما زعموا

مقرى

(مقرى) بالضم ثم السكون وراء والف مقصوره تكتب ياء لانها رابعة من أقرت الناقة تقرى فهى مقرية والمكان مقرى اذا ثبت ماء الفحل فى رحمها : قرية على مرحلة من صنعاء قربها معدن العقيق .

(مقرى) بالفتح ثم السكون وراء والف مقصورة تكتب ياء لمجيئها رابعة قرية بالشام من نواحي دمشق هكذا وجدناها مضبوطة بخط ابى الحسن على بن عبيد الكوفى المتقن الخط والضبط وكذا نقله ابن عرى فى كتابه والمحدثون واهل دمشق على ضم الميم قال البحترى

أما كان فى يوم الثنية منظر — ومستمع ينبى عن البطشة الكبرى
وعطف ابى الجيش الجواد بكره — مدافعة عن دير مروان أومقرى .

(مقرى) بضمتين وتشديد الراء — بلد بأرض النوبة افتتحه عبد الله بن سعيد ابن أبي سرح سنة ٣١

العلاقى

العلاقى حصن فى بلاد البجة فى جنوب أرض مصر به معدن التبر بينه وبين مدينة أسوان فى أرض فياحة يحتفر الانسان فيها فاز وجد فيها شيئا فجزء منه للمحتفر وجزء منه لسلطان العلاقى وهو رجل من بنى حنيفة من ربيعة وبينه وبين عيذاب ثمان رحلات .

كانم

كانم بكسر النون من بلاد البربر في أقصى المغرب في بلاد السودان وقيل كانم صنف من السودان وفي زماننا هذا شاعر بمراكش المغرب يقال له الكانمي مشهود له بالإجادة ولم أسمع شيئاً من شعره ولا عرفت إسمه. قال البكري بين زويله وبلاد كانم أربعون مرحلة وهم وراء الصحراء في بلاد زويلة ولا يكاد أحد يصل إليهم وهم سودان مشركون ويزعمون أن هناك قوماً من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم ببني العباس وهم زي العرب وأحوالها.

* * *

فهرست الكتاب